شرح الخطبة الأولى

من نهج البلاغة

ISBN 978-9922-9464-5-0

9 789922 946450

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد 3674 لسنة 2019

مصدر الفهرسة : IQ-KaPLI ara IQ-KaPLI rda

رقم تصنيف LC : BP193.1.A2 H5 2020

المؤلف الشخصي : آل كمال الدين الحسيني، هادي حمد، 1405-1326 للهجرة - مؤلف.

العنوان : شرح الخطبة الأولى من نهج البلاغة

بيان المسؤولية : عني بشرحها السيد هادي السيد حمد ال كمال الدين الحلي ؛ تحقيق الدكتور كريم حمزة حميدي

بيانات الطبع : الطبعة الاولى.

بيانات النشر : كربلاء، العراق : العتبة الحسينية المقدسة، مؤسسة علوم نهج البلاغة؛ 2020 / 1441 للهجرة.

الوصف المادي : 207 صفحة : صور طبق الاصل ؛ 24 سم.

سلسلة النشر : (العتبة الحسينية المقدسة ؛ 709).

سلسلة النشر : (مؤسسة علوم نهج البلاغة ؛ 178).

سلسلة النشر : (سلسلة تحقيق المخطوطات؛ 10)

تبصرة ببليوجرافية : يتضمن هوامش، لائحة المصادر (الصفحات 189 - 206).

موضوع شخصي : الشريف الرضي، محمد بن الحسين، 359-406 للهجرة –نهج البلاغة.

موضوع شخصي : علي بن أبي طالب (عليه السلام) الامام الاول، 23 قبل الهجرة-40 للهجرة – حديث.

مصطلح موضوعي : البلاغة العربية.

اسم شخص اضافي: شرح لـ(عمل) : الشريف الرضي، محمد بن الحسين، 359-406 للهجرة - نهج البلاغة.

اسم شخص اضافي: حميدي، كريم حمزة – محقق.

اسم هيئة اضافي : العتبة الحسينية المقدسة (كربلاء، العراق)، مؤسسة علوم نهج البلاغة. جهة مصدرة.

اسم هيئة إضافي : العتبة الحسينية المقدسة (بابل، العراق)، مركز العلامة الحلي. جهة مصدرة.

تمت الفهرسة قبل النشر في مكتبة العتبة الحسينية

سلسلة تحقيق المخطوطات (١٠)
وحدة تحقيق التراث العلوي

شرح الخطبة الأولى من نهج البلاغة

عُني بشرحها

السيّد هادي السيّد حمد آل كمال الدّين الحلّي
ت: ١٤٠٦هـ

تحقيق

الدكتور كريم حمزة حميدي

إصدار

مؤسسة علوم نهج البلاغة

مركز العلامة الحلي قدس سره

جميع الحقوق محفوظة
العتبة الحسينية المقدسة

الطبعة الأولى

١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

العراق - كربلاء المقدسة -مجاور مقام علي الأكبر عليه السلام

مؤسسة علوم نهج البلاغة

هاتف: ٠٧٧٢٨٢٤٣٦٠٠ - ٠٧٨١٥٠١٦٦٣٣

الموقع الألكتروني: www.inahj.org

الإيميل: Info@Inahj.org

تنويه:

إن الأفكار والآراء المذكورة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر العتبة الحسينية المقدسة

تخلي العتبة الحسينية المقدسة مسؤليتها عن أي انتهاك لحقوق الملكية الفكرية

بسم الله الرحمن الرحيم

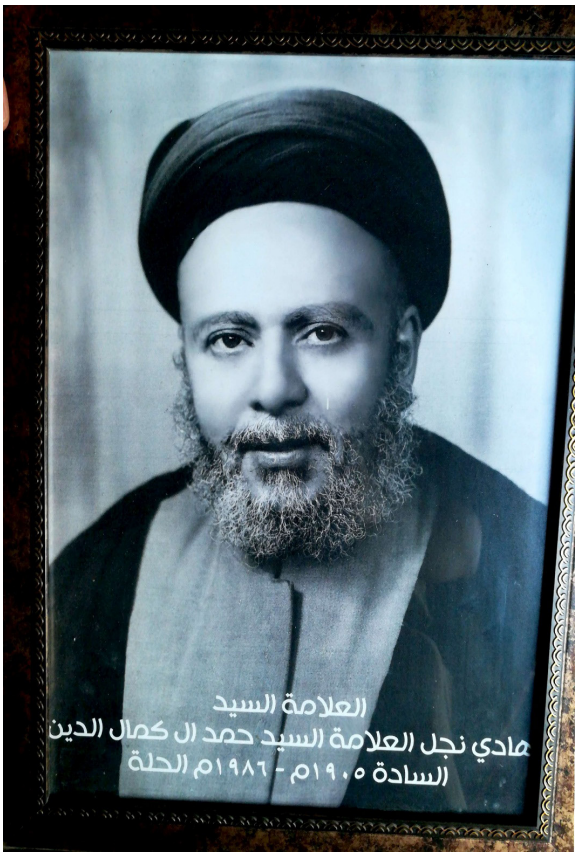

أبياتٌ للشارح:

نهـجُ البلاغـةِ بعـدَ الذكـرِ معجـزةٌ ... الـكلُّ تعـرفُ ذا حتَّـى مضلّيهـا

فكـم بـه للـورى رُشْـدٌ وتبصـرةٌ ... يأبـى الغوايـةَ والإضـلالَ واعيهـا

فـإن يكـن لؤلـؤًا حُسـنًا فـلا عَجَـبٍ ... فالحـرُّ عادتـه يحـوي لآليهـا

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى كافة إخواننا المسلمين، بعد السلام عليكم، والدعاء لكم بالتوفيق، اعلموا أن ولدنا العالم الفاضل السيد هادي بن ثقة الإسلام السيد حمد كمال الدين أني قد نصبته مرشداً العامة المسلمين إلى أحكام الدين، وشرع جده سيد المرسلين، وإرشاد العباد إلى الهدى والاتحاد، فاسمعوا منه ترشدوا إن شاء الله تعالى، وأوصيه بملازمة التقوى والاحتياط، فإنه أهل لذلك.

أسأل الله تأييده وتوفيقه، والسلام عليكم.

أبو القاسم عبد الكريم الجزائريّ

حُرِّر في اليوم الحادي عشر من المحرَّم من شهور سنة

١٣٦٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤسسة

الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر بما ألهم، والثناء بما قدّم، من عموم نعم ابتدأها، وسبوغ آلاء أسداها، وتمام منن والاها، والصلاة والسلام على خير الخلق أجمعين محمد وآله الطاهرين.

أما بعد:

فإن الاهتمام بالتراث العلمي والفكري والروائي المخطوط يعدّ من أهم السمات التي تأخذ بأعناق المؤسسات العلمية والفكرية وأصحاب الفضيلة العلمية الذين انعكفوا على دراسة هذا التراث واستخراج خزائنه وإظهارها إلى الناس بغية الانتفاع منها والمحافظة عليها من التلف والضياع والتلاعب.

وفيما نأتي إلى التراث الخطي في الحديث والتفسير والفقه والآداب والتربية والمعارف المختلفة نجد أن شخصية الإمام علي عليه السلام كانت حاضرة في جميع هذه الحقول المعرفية، وإن ما احتواه التراث الخطي في هذه الشخصية لأكثر بكثير مما طبع ونشر.

وعليه:

فقد كان من المهام والأهداف التي سعت إليها مؤسسة علوم نهج البلاغة هو الاهتمام بهذا التراث المخصوص بالإمام علي عليه السلام وكتاب نهج البلاغة وتحقيقه وطبعه ونشره في الأوساط العلمية والثقافية.

وما هذا التحقيق الذي بين أيدينا إلا واحداً مما كتب في أمير المؤمنين (عليه السلام) الذي تضمن شرحًا لخطبة من خطب نهج البلاغة للسيد هادي السيد حمد آل كمال الدين الحلي، وقد انبرى له الباحث محققًا ليكون أحد المصادر الإسلامية في المكتبة، فينهل منه طلبة العلم، وهذا العمل هو جزء من إحياء ذلك التراث العظيم الذي كتب في آل البيت الأطهار (عليهم السلام) وبالخصوص ذلك البحر الزاخر كتاب نهج البلاغة لمولانا أمير المؤمنين (عليه السلام).

فجزى الله الباحث خير الجزاء لما بذله من جهد في تحقيق هذا المؤلف القيم.

والحمد لله رب العالمين.

السيد نبيل الحسني الكربلائي

رئيس مؤسسة علوم نهج البلاغة

مقدِّمة المحقِّق

بسم اللّه الرَّحمن الرَّحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على أشرف مَنْ نطقَ بالضاد، العبدِ المؤيَّدِ والرَّسولِ المُسدَّدِ، نبيِّنا مُحمَّد وعلى آله الطيّبين الطاهرين، وبعدُ...

فقد مَنَّ اللهُ عليَّ بالغوصِ في بحرِ (نهجِ البلاغةِ)، البَحْرِ الذي لا يُدركُ قعرُهُ، ولا يخوضُ في لُجهِ إلّا مَنْ نال شيئًا من التوفيق، وأدركَ سدادَ الطريق. فأحمدهُ حمدًا وفيرًا أن وفّقني في خوضِ تجربةٍ فريدةٍ برفقةِ السيِّد هادي كمال الدِّين الحلِّيّ، عن طريق تحقيق كتابه (شرح نهج البلاغة)، ذلك الشرح الذي بقيَ سنينَ متعدّدة حبيسَ مكتبته – رحمه الله – ؛ بسبب سياسات النظام البائد، الذي حاربَ العلمَ والعلماء، وكلَّ ما يمتُّ بصلةٍ لتراثِ آل البيت (عليهم السلام)، فعقدتُ العزمَ على تحقيق هذا الشرح، الذي لم يمهل الموتُ المؤلِّفَ – رحمه الله – لإكمالِ مشروعه المبارَك؛ إذ عثرتُ – عن طريق نجل المؤلِّف – على مجلَّدٍ واحدٍ فقط، متضمِّنٍ شرحَ الخطبةِ الأولى من النهج. وقد كُتِبَ الشَّرحُ بخطِّه – رحمه الله –.

وممَّا حفّزني على تحقيق هذا اليسير من الشرح موسوعيَّة المؤلِّف، الذي كان عالِمًا أديبًا، ذا بصيرةٍ في مختلف العلوم الشرعيَّة والعقليَّة واللغويَّة، ممَّا انعكسَ على شرحِهِ، الذي كانت من نتائجه أن جعل المُجلَّدَ الأوَّل منه مختصًّا بالخطبة الأولى من النهج، يُزادُ على ذلك قلَّة الشروح المعاصرة لـ(نهج البلاغة).

وبعد التعاون مع مركز العلّامة الحلِّيّ التابع للعتبة الحسينيَّة المُقدَّسة، وبمشاركة ثُلَّة طيّبة من منتسبي المركز، قُمنا بالتنسيق والاتفاق مع نجل المؤلِّف السيِّد عليّ السيّد هادي على تحقيق مُجْمَلِ مؤلَّفات والده، بدءًا من شرحه على (نهج البلاغة)، فجاء هذا التحقيقُ الذي أضعه بين يَدَي القارئ الكريم. فلا يسعني في هذا المقام إلّا أن أتقدَّم بالشكر الجزيل إلى مركز العلّامة الحلّيِّ؛ لاهتمامه بنشر التراث الحلِّي، والشكرُ موصولٌ أيضًا إلى نجل المؤلِّف السيّد عليّ؛ لتعاونه معنا على تحقيق تراث والده. فأرجو أن ينال هذا العمل رضا الله تعالى، وصاحب السِّفْرِ أمير المؤمنين (عليه السلام)، وشارحِهِ السيّد هادي – رحمه الله –، والقارئ الكريم، وما توفيقي إلّا بالله عليه توكَّلتُ وإليه أُنيب.

ترجمة المؤلِّف

السيِّد هادي بن حمد بن فاضل كمال الدين الحسينيّ الحِلِّيّ. وُلد في الحِلَّة سنة (١٣٢٦هـ)، جَمَعَ بين العلوم الدينيَّة واللغويَّة والشعر والأدب والسياسة، وتوفّي سنة (١٤٠٦هـ)[1].

كان والدُهُ المرحوم السيّد حمد عالمًا فقيهًا، ممَّا كان له الأثرُ الأكبرُ في

(١) ينظر موسوعة أعلام الحلَّة منذ تأسيس الحلَّة حتَّى نهاية ٢٠٠٠م، د. سعد الحدَّاد: ٢٤٩.

توجّهات المرحوم السيّد هادي العلميَّة والأدبيَّة والسياسيَّة؛ إذ شارك والدَه في بداية حياته في ثورة العشرين بقصائده الحماسيَّة، وكذلك الاشتراك الفعليّ ضدّ الاحتلال الإنكليزيّ، وهزموهم في معركة (بَتَّة) الشهيرة[1]، وقد كتب له والدُه كتابَ (محجَّة الاعتقاد في الوصيَّة لثمر المهجة والفؤاد)[2]. قال الطهرانيُّ عن هذا الكتاب: «للسيِّد حمد بن السيِّد فاضل بن السيِّد حمد آل كمال الدين الحِلِّيّ المعاصر، كتبه لولَده السيّد عبد الهادي الشهير بالسيّد هادي كمال الدين مؤلِّف (فقهاء الفيحاء) و(جريدة التوحيد) الصادرة مِن الحلَّة، وهو في الرَّدِّ على الطبيعيّين وطبعَه ١٣٥١»[3].

تعلَّم السيِّد هادي – في مقتبل حياته – في كتاتيب الشيخ ارزوقي (عبد الرزاق سعيد) في مدينة الحِلَّة؛ إذ تعلَّم القراءة والكتابة، ثمَّ درسَ المقدِّمات على والده السيِّد حمد، ثمَّ شدَّ رحاله إلى مدينة النجف الأشرف، والتحق بحلقات الدرس الحوزويّ فيها، فكان من أساتذته: (الشيخ آغا بزرك الطَّهرانيّ، الشيخ هادي كاشف الغطاء، الشيخ محمَّد جواد الجزائريّ، الشيخ محمَّد حسين كاشف الغطاء...)[4].

نالَ السيِّد هادي ثقةَ المراجع، وأصبحَ وكيلَهم في الحلَّة، فقد اتجهَ إلى

---

(١) ينظر مدوّنة السيّد عليّ الهادي نجل السيّد هادي كمال الدين.

(٢) ينظر الذريعة، آقا بزرگ الطهراني: ٢٠/ ١٤٤.

(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٤) ينظر فقهاء الفيحاء وتطور الحركة الفكرية في الحلَّة، السيِّد هادي كمال الدين الحلّيّ، دراسة وتحقيق: د. عبد الرضا عوض: ٢/ ٢٤ – ٢٦.

الدراسة الحوزويَّة في النجف الأشرف في مدرسة (الشربيانيّ)، وعلى يد أساتذتها، ومنهم العلّامة المرحوم محمَّد طه نجف، وغيره من علماء ذلك الوقت، فدَرَسَ الحاشية، والشمسيَّة، والمعالِم، واللمعة. ثُمَّ اتجه إلى خدمة أهالي الحلَّة، فقام بتأسيس مدرسة العلوم الدينية، وهي مُجازة من وزارة المعارف، وهي المدرسة الدينيَّة الوحيدة المجازة رسميًّا[1]. وأصدر جريدة (التوحيد) في مدينة الحلَّة، مطبعة القضاء ١٣٧٨ / ١٩٥٨م، وهي جريدة أسبوعيَّة، وبعد صدور أعداد منها انتقل بها إلى بغداد واحتُجِبَت[2]. يقولُ نجلُهُ السيِّد علّي في مدوَّنته: إنَّ الجريدة أُغلِقت؛ لاختلافه مع الدكتور عبد الحميد شلاش رئيس صحَّة بابل؛ كونه يتلاعب بالأدوية، ويَحرمُ الفقراءَ منها، ممَّا اضطرَّهُ إلى إصدار عدد خاصٍّ في جريدة التوحيد، موضحًا فيه فسادَ رئيس الصحَّة، وقد أُغلِقت بسبب جهود عمِّ رئيسِ الصحَّة، وهو وزير الماليَّة محسن شلاش[3].

للمُترجَم أكثر من (٥٣) مؤلَّفًا طُبِعَ منها (٣٦) كتابًا وكرّاسًا، منها: (تحفة الحضر والأَعراب في علم النحو والإعراب) و(مقتبسات من أرجوزة الرياض المشمسة في علم الهندسة) وهو مطبوع في (١٠٢) صفحة، في مطبعة النعمان في النجف، سنة ١٩٧٤م، و(جناح النجاح) أرجوزة في توضيح غريب اللغة، وغير ذلك[4].

---

(١) ينظر مدوَّنة السيِّد علّي الهادي.

(٢) ينظر معجم المطبوعات النجفيَّة، محمَّد هادي الأمينيّ: ١٣١.

(٣) ينظر مدوَّنة السيِّد علّي الهادي.

(٤) ينظر مقدَّمة كتاب (فقهاء الفيحاء وتطوّر الحركة الفكريَّة في الحلَّة)، للسيِّد هادي

بين يدي الشرح

كتابُ (شرح نهج البلاغة) واحدٌ من مؤلَّفات السيّد هادي كمال الدين الحلِّيّ المخطوطة التي تعرَّضَ بعضُ أجزائها إلى الفقدان، أو أنَّه لم يكملها أصلًا، وهو الرَّاجح؛ إذ تبقَّى منه مجلَّدٌ واحدٌ فقط، مكتوبٌ بخطِّه – رَحِمَهُ اللهُ –، وظهَرَ لنا أنَّ هذا المُجلَّد قد خُصِّصَ لشرح الخطبة الأولى من النَّهج، لذا قيَّدتُ في صفحة العنوان عبارة [شرح الخطبة الأولى]، وقد أبلغني نجلُ المؤلِّف السيِّد عليّ بن السيّد هادي أنَّ عددًا كبيرًا من مؤلَّفاتِ والده قد فُقدتْ، لذا رجَّح أن تكون الأجزاء الأُخرى من هذا الشرح مفقودة، ويبدو لي أنَّ المؤلِّفَ لم يسمح له الوقتُ بإكمال الشرح؛ لأسبابٍ، منها:

١- ذِكْرُ المؤلِّفِ – رَحِمَهُ اللهُ – في نهاية هذا المُجلَّد جزءًا من الخطبة الثانية من (نهج البلاغة) من دون شرح. وهي من تتمَّة المجلَّد الأوَّل، غير أنَّ السيّد تَرَكَها من دون شرح، فضلًا عن أنَّه لم يُشِر إلى أنَّها من المجلَّد الثاني.

٢- شَرْحُ (نهج البلاغة) يتطلَّبُ الرجوعَ إلى أُمَّات المصادر في اللغة والأدب والتاريخ، ممَّا يتعذَّر على المؤلِّف التواصل في إنجاز الشرح؛ نظرًا لنشاطه العلميِّ والسياسيِّ والدينيِّ والاجتماعيِّ.

وبعد الحصول على هذه النسخة المكتوبة بخطِّ المؤلِّف، والتي أشار – رحمه الله تعالى – إلى سنة تأليفها في صفحة العنوان، وهي سنة ١٣٦٠هـ. شَرَعنا بتحقيقها ومحاولة إخراج الكتاب كما أراده المؤلِّف – رحمه الله تعالى –.

حمد كمال الدين: ١ – ٨.

عملنا في التحقيق

عمدتُ إلى إثبات النصِّ على النسخة الخطِّيّة الوحيدة، واجتهدتُ في تقويمه، وضبطِه ضبطًا صحيحًا، مُتَّبعًا الرسمَ الإملائيَّ الحديثَ في كتابة النصوص، وقد وجدتُ أن لا مندوحةَ من ذِكْرِ ما جاء خلافَ ذلك، فأهملته ولم أُشِر إليه في الهامش، وممَّا أثبتَه المؤلِّفُ وقمتُ بتعديله ما يأتي:

- يكتبُ المؤلِّفُ في بعض المواضع التاءَ المربوطةَ هاءً، وقد عملتُ على تصويب ذلك.

- تسهيل الهمز، وقد قمتُ بتحقيقه في مواضع كثيرة، منها الكلمات: (المساوئ، الشرائع، البارئ، المبدئ، لائم، مائز).

- تخريج الروايات التي استدلَّ بها المؤلِّف، والتي ذَكَرَ أرقامَ صفحاتها في متن الكتاب، وقد اعتمدتُ في ذلك على الطبعات الحديثة، مع حذف توثيق المؤلِّف في المتن؛ لاختلاف طبعات المصادر التي اعتمَدَ عليها.

- استعمَلَ المؤلِّفُ كلمةَ (إلخ) كثيرًا، ولا سيَّما عند إيراده النصوصَ القرآنيَّة، ونصوصَ الإمام عليّ (عليه السلام)، والأحاديثَ النَّبويَّة، والأبياتَ الشعريَّة، وقد استبدلناها بنقاطٍ (..)؛ لأنَّها أكثر ملاءمة مع النصوص المقدَّسة.

- ذَكَرَ المؤلِّفُ في مقدِّمة الكتاب أنَّه اصطلحَ وضعَ نقطتين متعامدتين (:) بعد ختام شرح كلِّ فِقرة، وربَّما أراد بذلك التمييزَ بين العبارات المشروحة؛ لذا قمتُ برفع هذه النقاط من الكتاب، لعدم الحاجة إليها بعد أن أصبحَ الكتابُ مرتَّبًا على شكل فِقرات، ووضعتُ نقطةً بعد نهاية كلِّ فِقرة.

- عنيتُ بضبط الآيات القرآنيَّة، وحصرتُها بين قوسين مزهَّرين، وذلك بالرجوع إلى المصحف الشريف.

- خرَّجتُ الأحاديثَ من كُتبِ الحديث وحصرتها بين قوسين « ».

- خرَّجتُ الشواهدَ الشعريَّة والرَّجَز، واكتفيتُ بذِكْرِ الديوان أو الشعر المجموع إن كان للشاعر ديوانٌ أو شِعرٌ مجموع، وإذا لم يكن له ديوان أو شعر مجموع خرّجتُ شِعرَهُ من كُتب الأدب واللغة والنحو والمعجمات. وأشرتُ إلى الأبيات التي لم أقف على قائلها.

- ترجمتُ الأعلامَ الواردةَ أسماؤهم في الكتاب، وأشرتُ إلى مصادر تراجمهم، كما نبَّهتُ على كلِّ من لم أقف على ترجمته.

- تخريج بحور الشعر العربيّ التي لم يخرِّجها المؤلِّفُ، على الرَّغم من حِرصِهِ على تخريجها.

من صور المخطوط

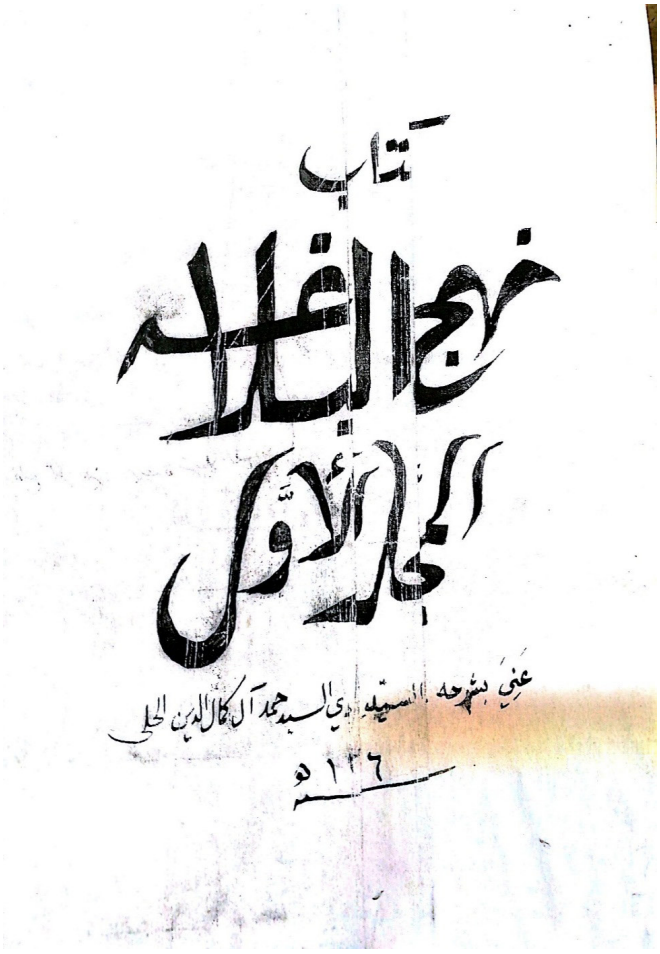
كتاب
نهج البلاغة
المجلد الأول
عني بشرحه السيد هادي السيد محمد آل كمال الدين الحلي
سنة ١٣٦ هـ

الصفحة الأولى من المخطوط

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله كثيراً وصلى الله على سيدنا محمد وآله اولاً واخيراً

و (بعد) فانك ايها القارئ الكريم لخبير بما مُنيَت به اللغة العربية الجيدة من التدهور والانحطاط في عصرنا هذا مما يؤسف الوطني الغيور ويكمد الاجداد وان كانوا في القبور اذ تجد الناشئة مقبلة بكل رغبتها عاكفة بكل اهتمامها على درس اللغات الاجنبية وهجران العربية الفصحى كأن هذه اللوصمة وتلك الجناية دكن التمدن واساسه وضياء التثقيف ونبراسه ولو امعنوا في التفكير قليلا لاعتقدوا ان فعلتهم هذه اكبر جناية على امتهم وبلادهم لا تقل ضرراً من التزويج بالاجنبيات فكلاهما يقتضي اندماج العنصر العربي الكريم بعنصر غريبة عنه شرفا وبيئة حتى يضمحل ويكون جنساً لكان [redacted] هذا من جهة التفكير وهذا من جهة الدم فمعنى اندراس اللغة العربية اندراس لهذه الامة ومعنى احيائها احياؤها ولا اخال احداً يناقشني فيضطرني الى اقامة برهان او دليل

وهل يصح في الاذهان شيء ... اذا احتاج النهار الى دليل

ومن اهم الظواهر الوطنية في نظري — شدة المحافظة على لغة الاجداد فهي تاريخ صميم ومجد تالد ومكارم مكاة ثقافتهم وهي التراث الخالد والفخر الواسع فليس بارأبها من هجرها واستبدل بها غيرها كمن استبدل الذي هو ادنى بالذي هو خير وما اللغة الا سلم التقدم وطريق الرقي والسلام العلوي وان شيئاً هذه نفاسته وهذا مقدار نفعه وخطورته وخطره لواجب الاحتفاظ به والعناية مهما كلف الامر وكيف بغير ذلك ونحن في قرن العشرين وقد تنبهت امة العرب في

صورة من مقدمة الشرح

جعلنا البيت

الى البيت الحرام كالوشاحة الحمام الذين يلفون الليل ويفارقه بالنهار الساكن
به عند مفارقته في طلب القوت: وقوله تعالى جعله سبحانه علامة لتواضعهم
لعظمته اي وهذا يكشف بعض السر في بعض الاحكام احكام الحج التي
يستحسنها من لم يقف على حكمتها: وقوله تعالى يجرون الارباح في متجر عبادته
الخ احسن استعارة فان التجارة يأمل بها صاحبها الربح فجعل
الثواب ربح هذه الملتجئ لمن يتوب فسمى الثواب ربحا والعبادة
تجارة: وقوله ~~ويتبادرون عند موعد مغفرته الى ملتقى رضوانه~~
~~ابواب مغفرته الى مزاحم بروحه~~: وقوله تعالى جعله الله للاسلام علما الخ
اي علامة يتميزون به عن غيرهم وذلك بعد تحريم الدخول مع المشركين في قوله
تعالى يا ايها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم
هذا الخ: وقوله وللعائذ به حرما الخ اي جعله الله موضعا لا
تنتهك فيه حرمة فيجتمع القاتل مع اهل المقتول في صعيد واحد ولا يتعرضون
له مع قدرتهم على الاقتصاص منه واخذ ثأرهم ~~جعله الله~~ فيجعله فكان
~~فجعله الله~~ مانعا عن لبعضهم من بعض ~~رحمة بعباده لانه الاسلام~~
~~خاصة بل في الجاهلية ايضا~~ في زمان الجاهلية والاسلام: وقوله تعالى وهو حج
واوجب حقه الخ اشارة لقوله تعالى ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه
سبيلا ومن كفر فان الله غني عن العالمين ~~ختم الله عليهم خطبته~~
وهذه الآية آخر هذه الخطبة المباركة

{الاصل} ومن خطبة له بعد منصرفه من صفين

احمده استتماما لنعمته * واستسلاما لعزته * واستعصاما
من معصيته * واستعينه فاقة الى كفايته انه لا يضل من هداه
* ولا يئل من عاداه * ولا يفتقر من كفاه * فانه ارجح ما وزن *

واتزن

صورة للصفحة الأخيرة من المخطوط

شرح الخطبة الأولى

من

نهج البلاغة

النَّصُّ المُحَقَّق

مقدِّمة المؤلِّف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله كثيرًا، وصلَّى اللهُ على سيِّدنا محمَّدٍ وآله أوَّلًا وأخيرًا، وبعد:

فإنَّك أيُّها القارئُ الكريمُ لَخبير بما مُنِيَتْ به اللغةُ العربيَّةُ المجيدةُ من التدهور والانحطاط في عصرنا هذا، ممَّا يؤسفُ الوطنيَّ الغيور، ويكمدُ الأجدادَ، وإن كانوا في القبور؛ إذ تجدُ الناشئةَ مقبلةً بكلِّ رغبتِها، عاكفةً بكلِّ اهتمامها على درسِ اللغاتِ الأجنبيَّةِ، وهجرانِ العربيّة الفصحى، كأنَّ هذه الوصمةَ وتلك الجنايةَ ركنُ التمدُّنِ وأساسُه، وضياءُ التثقيفِ ونبراسُه، ولو أمعنوا في التفكير قليلًا، لاعتقدوا أنَّ فعلتَهم هذه أكبرُ جنايةٍ على أمَّتهم وبلادهم، لا تقلُّ ضررًا من التزويج بالأجنبيَّات، فكلاهما يقتضي اندماجَ العنصرِ العربيّ الكريم بعناصرَ غريبةٍ عنه شَرَفًا وبيئةً حتَّى يضمحلَّ، ويكونَ خبرًا لكان[1]، هذي من جهة التفكير، وهذا من جهة الدم، فمعنى اندراسِ اللغة العربيَّة اندراسُ هذه الأمَّة، ومعنى إحيائها إحياؤها، ولا أخالُ أحدًا

(١) هذه العبارة تُقال للدلالة على الشيء الذي يتحوَّلُ إلى حالٍ أُخرى من دون رجعةٍ.

يناقشني، فيضطرّني إلى إقامة برهانٍ أو دليلٍ[1]:

وَهَلْ يَصِحُّ فِي الأذْهَانِ شَيْءٌ ... إذَا احْتَاجَ النَّهَارُ إلى دَلِيْلِ؟

ومن أهمِّ الظواهرِ الوطنيَّةِ – في نظري – شدَّةُ المحافظةِ على لغةِ الأجدادِ، فهي تاريخُ مجدِهم، ومجدُ تاريخهم، [و][2]مرآةُ ثقافتهم، وهي التراثُ الخالدُ، والفخرُ الواسعُ، فليس بارًّا بها مَنْ هجرها، واستبدَلَ بها غيرَها، كمن يستبدلُ الذي هو أدنى بالذي هو خير، وما اللغةُ إلّا سلَّمُ التقدّمِ، وطريقُ الرُّقي، والسلاحُ القويّ، وإنَّ شيئًا هذه نفاستُه، وهذا مقدارُ نفعه وخطره، لَواجبٌ الاحتفاظُ به، مهما كلَّف الأمرُ، وكيف يغيبُ ذلك عنَّا، ونحن في قرن العشرين؟! وقد تنبَّهتْ إليه العربُ في دَوْرِ جاهليَّتها وعهدِ توحّشها، فحرَّروا المعلَّقات بماء الذَّهب، وعلَّقوها بالكعبة؛ احتفاظًا بلغتهم؛ وتقديرًا لبليغها، ورَمزًا للفخارِ، وممَّا قُلتُه في هذا الموضوع:

عَلَى لُغَةِ الأجْدَادِ يا قَوْمُ حَافِظُوا ... وَلا تُبْدِلُوْهَا – إنْ وَعَيْتُم – بِغَيْرِهَا

فَكَمْ أُمَمٌ مَاتَتْ بِمَوْتِ لُغَاتِهَا ... فَذلكَ مَا يَعْمِي عُيُوْنَ عِدَاتِهَا

وإذا فكَّرنا في اهتمامِ الأجانبِ في كَيْدِ اللغةِ العربيَّةِ وإماتتِها بشتَّى الطرق ومختلَف الوسائل، استفدنا من ذلك أهميَّةَ اللغة العربيَّة، ووجوبَ المحافظةِ

---

(١) البيت للمتنبّي، والروايةُ فيه:

وَلَيْسَ يَصِحُّ فِي الأفْهَامِ شَيْءٌ ... إذَا احْتَاجَ النَّهَارُ إلى دَلِيْلِ

ينظر: ديوانه: ٣٤٣.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

عليهـــا، (والضِّـدُّ يُظْهِـرُ حُسْـنَهُ الضِّـدُ)[1]، وهـذا مـا حَـدَاني إلى شرحِ أشرف كتـابٍ يحـوي بـين دفَّتيـه نفائسَ مـن ظرائـفِ الحكمـةِ، وطرائـفِ العلـم، في أبلـغ أسـلوب، وأمتـن تعبـير، مـع رقَّـةِ ألفـاظٍ، وسـلامةِ تركيـبٍ، يُحلّي كلَّ ذلـك سـموُّ المعـاني، وشريـفُ المقاصـد، أعنـي: كتـاب (نهـج البلاغـة)، مـن كلامِ سيِّدِ البُلغاءِ، وإمـامِ الفُصحـاءِ، أمـيرِ المؤمنـينَ عـليِّ بـن أبي طالـبٍ (عليه السلام). ذلـك الكتـابُ الـذي أدهـش البلغـاءَ، وحـيَّرَ الفصحـاءَ، الكتـابُ الـذي انـبرى لشرحِـهِ وإبـراز مكنونـات جواهـره كثيرٌ مـن أعـلامِ العلـماء مـن مختلـفِ الأديـانِ؛ لِمَـا اشـتملَ عليـه مـن الحِكَـمِ الباهـرةِ، والمواعـظِ الزاجـرةِ، والسياسـةِ الرشـيدةِ، والأمثـالِ المفيـدةِ، كانـت ولا تـزال موضـعَ اسـتغرابِ العلـماءِ والفلاسـفةِ، وباعـثَ تَعَجُّـبِ الأدبـاء، وقـد اتفقـوا عـلى جعلـه شـقيقًا للمعجـزة المحمَّديَّـة حـين رَأَوْهُ لا يُقـاسُ بـكلامِ النَّـاس، وهـو كـما قلـتُ: [مـن بحـر الكامـل]

نَهْـجُ البَلاغَـةِ للبلاغـةِ جامـعٌ ... أمسـى وحيـدًا في سمـوّ مكانِـهِ

لَمْ يَحْكِـه إلّا الكتـابُ بلاغـةً ... إذ كـاد يُسْـحِرُ في لطيـفِ بَيَانِـهِ

---

(١) هـذا عجـزُ بيـتٍ مـن القصيـدة المشـهورة المعروفـة بالدّعديّـة، للشـاعر المنبجـيّ، وصـدرُ البيـت: [مـن الكامـل]

ضِدَّان لمَّا اسْتُجْمِعا حَسُنا...

لم أعثـر عـلى ديـوان الشـاعر، وينظـر هـذا البيـت في: سرّ الفصاحـة، لابـن سـنان الخفاجـيّ: ٦٤، وشرح ديـوان المتنبـيّ، لأبي البقـاء العكـبريّ: ١/ ٢٢، وتحريـر التحبـير، لابـن أبي الإصبـع العـدوانيّ: ٤٨٧، وصبـح الأعشـى في صناعـة الإنشـا، لأحمـد بـن عـلي الفـزاريّ القلقشـنديّ: ٢/ ٥٠٣.

الـكلُّ يُـدْرِكُ حُسْـنَه لكنَّمـا ... تَتَفَـاوَتُ الأفْهـامُ في استحسـانِهِ
إحـدى معاجـزِ حَيْـدَرٍ وَلَكَـمْ لَـهُ ... مِـنْ مُعْجِـزٍ مـا اسـطيع مِـنْ نُكْرَانِـهِ
اللهُ سَـدَّدَهُ بِـكُلِّ كَرَامَـةٍ ... وَكَأنَّ هـذا النَّهْـجَ مِـنْ قُرآنِـهِ
فـإلى الإمـام بـكلِّ عضـوٍ مُعْجِـزٌ ... والنَّهـجُ أصبـحَ مُعْجِـزًا للسـانِهِ

ونحو ذلك ما قلتُهُ من قصيدةٍ في مدحِهِ: [من بحر الكامل]

لَـوْ أصبحـتْ هـذي البلاغـةُ دولـةً ... لا شـكَّ أنَّـكَ يـا علـيُّ مليكُهَـا
ثنَّيْـتَ معجـزةَ الكتـابِ بصنوِهـا ... لـولا الغلـوُّ المَحْـضُ قُلْـتُ شـريكها
ولأجـلِ ذا أمسـى كتابُـكَ خالـدًا ... مثـل اليقـين فلـم تُزِلْـهُ شـكوكُها
والقـولُ مثـلُ الجنـدِ فـازَ قويُّهـا ... مُـذْ آبَ بالفشـل العظيـم ركيكُهـا[1]
قـولٌ كمثـلِ النـور بـل هـو ذاتُـهُ ... لو كان في الظلماتِ لضاءَ حلوكها

أو كما قال الشاعر[2]: [من البسيط]

---

(١) الرَّكِيكُ والرُّكاكةُ مِنَ الرِّجَالِ: الضَّعِيفُ فِي عَقْلِهِ ورأْيه، وَقِيلَ: الَّذِي لاَ يَغار وَلاَ يَهابُه أهلُه، وَكُلُّهُ مِنَ الضَّعْفِ. ورَكَّ عقلُه ورأْيُه وارْتَكَّ: نَقَصَ وَضَعُفَ. يُنظر: لسان العرب، جمال الدين ابن منظور، دار صادر - بيروت، ط٣/ ١٤١٤هـ: ١٠/ ٤٣٢.

(٢) لم أعرف قائلها. وتنظر في (منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة)، حبيب الله الهاشمي الخوئيّ: ١/ ٢٤٤. وقد وجدها السيِّد محمَّد حسين الجلالي على ظهر كتاب (بيان القناعة)، للشيخ محمَّد حسن القبيسيّ. يُنظر: دراسة حول نهج البلاغة: ١٧١.

نَهْـجُ البَلاغَـةِ نَهْـجُ العِلْـمِ وَالعَمَـلِ فَاسْلُكْهُ يَا صَاح تَبْلُغْ مُنْتَهَى الأمَلِ
أَلْفَاظُـهُ دُرَرٌ أَغْنَـتْ بِحُلْيَتِهَـا أَهْلُ الفَضَائِلِ عَنْ حُلْيٍ وَعَنْ حُلَلِي
وَكَيْفَ لا وَهُـو نَهْـجٌ طَـابَ مَسْلَكُهُ هَـدَى إليْـهِ أَمِـيْرُ المُؤمِنِـيْنَ عَلِـي

ولا غـرو فهـو مـن إشراقـات نـور النبـوَّة، والألطـاف الإلهيَّـة، والعنايـة الربَّانيَّـة، التـي لا تتأتَّـى بطـولِ كَسْـبٍ، ولا تحصـلُ بكَثْـرَةِ كَـدٍّ، وقـد صـحَّ قـولي فيـه: [مـن الرجـز]

مِـنْ حُسْـنِهِ ولُطْفِـهِ تـكادُ أنْ تَقْـرَأَ قَبْـلَ لَفْظِـهِ مَعْنَـاهُ
يَكْفِيْـكَ مِـنْ إجْلالِـهِ أنْ لا تَـرَى فِي مِثْلِـهِ قَـدْ جَـاءَ إلّا اللهُ

أجَـلْ: والحـقُّ يُقـال إنَّ بلاغتـه وفصاحتـه وسـائرَ مزايـاه السـامية لا توجـد قـطُّ إلّا في شـقيقه القـرآن، فمـن قـرأه ولم يشـعر بانبسـاطِ نفسٍ، وهـزَّةِ طـربٍ، ولم يُـدرِك لـذَّةَ هـذا البيـان البديـع، وعذوبـةَ هـذا النمـيرِ الصـافي، فنصيحتـي لـه أن يتنـاولَ الـدواءَ في طَلَـبِ الاستشـفاء، فضَعـفُ عـينِ الخفَّـاش يمنعُـه مـن التمتّـع بهـذه الأنـوار الزاهيـة والأشـعة الذهبيَّـة التـي تمـلأُ الكـونَ بهجـةً وسرورًا، وتُلْبِـسُ الأرضَ بهـاءً وحُبُـورًا.

وخُلاصةُ القولِ: إنَّ هذا النهجَ القويمَ، كما قال الشاعر[1]: [من المتقارب]

(١) لم أعثـر عـلى قائلـه، وينظـر في (محـاضرات الأدبـاء ومحـاورات الشـعراء والبلغـاء)، للراغـب الأصفهـانيّ: ١/ ٨٤، و(الـدر الفريـد وبيـت القصيـد)، محمَّـد بـن أيدمـر المسـتعصميّ: ٥/ ٣٤٢.

تَزِيْـنُ مَعَانِيْـهِ أَلْفَاظَـهُ وَأَلْفَاظُـهُ زَائِنَـاتُ المَعَانِـي

كتـابٌ بَلَـغَ البلاغـةَ، واجتـازَ حتَّـى انتهـى إلى الإعجـاز، دونَـهُ تقِـفُ الطاقـةُ البشريَّـة، جامـعٌ لأشـتات المحاسـن، آخـذ السـنية بأطـراف الفضائـل. ولا ريـب فقـد صقلـه أكـبرُ دمـاغٍ بـشري، وأنتجتـه أحسـنُ قريحـةٍ، مـع تسـديدٍ إلهـيّ، فبمثلـه حيـاةُ اللغـة العربيَّـة، بـل حيـاةُ القلـوب، فيـه تُجلَى الأذهـان، وتُـصرَفُ الأهـواءُ، وتمـوتُ البِـدعُ، قـد قـادني التوفيـقُ لشرحِـهِ، فتجنَّبـتُ الإيجـازَ المُخـلَّ، والإسـهابَ المحـلَّ، وشَـقَقْتُ بينهـما طريقًـا وسـطًا. وقـد جعلتُـه في ثلاثة أبـواب: أوَّلهـا الخُطَب ومـا يجـري مجراهـا، وثانيهـا الرسـائل، وثالثهـا الكلـمات القصـار، وقـد اصطلحـتُ عنـد ختـام شرح كلِّ فِقـرة أنْ أضـعَ نقطتـين إحداهمـا فـوقَ الأخـرى هكـذا (:)، ولم أُخلـهِ مـن اللطائـفِ والنـوادرِ والأدبِ والمواعـظِ والأخـلاقِ؛ ليكـونَ جامعًـا يجـدُ فيـه كلُّ طالـبِ شيءٍ حاجتَـهُ، مبتغيًـا بذلـك ترويـحَ الخاطـرِ، وتجديـدَ الرغبـةِ.

وقـد توخَّيـتُ منـه تعـالى أن يعمِّـمَ بـه النفـعَ، ويرشـد بـه الضـالَّ، راجيًـا مـن قرّائـه الكـرام أن يُسـدِلوا ثـوبَ التأويـل والإعـذار عـلى مـا يجدونَـه مـن شـطحات القلـم وزلَّـة اللسـانِ، فقـد يذهـب بي البحـثُ لإيـراد حُجَّتـي بكـلامٍ قـد يوجـد فيـه وخـزًا وطعنًـا، فـإن وُجِـدَ ذلـك فليـس عـن سـوء نيَّـة؛ إذ الإنسـان معـرَّضٌ للخطـأ والنسـيان، هـذا عُـذري، وقبـولُ العـذرِ مِـنْ شِـيَمِ الكـرام.

١٣٥٩/٤/٢٩هـ

الشارح

توطئة

إتمامًا للفائدة يتحتَّم علينا أن نذكر يسيرًا من ترجمة فريد عصره، ونادرة زمانه، جامع (نهج البلاغة) الشريف الرضيّ، نقيب الطالبيّين.

هو أبو الحسن محمَّد بن أبي أحمد الحسين بن موسى بن محمَّد بن إبراهيم بن الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) بن الإمام جعفر الصادق بن الإمام محمَّد الباقر بن الإمام عليّ زين العابدين الملقَّب بالسجَّاد بن الإمام الحسين سيِّد الشهداء بن الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام). وأمَّا نسبُهُ من قِبَلِ أمّه، فهي فاطمة بنت الحسين بن الحسن الناصر المعروف بالأصمّ صاحب الدَّيْلَم[1] ينتهي نسبُه إلى عليّ بن الحسين الشهيد (عليه السلام).

كانت ولادته سنة ٣٥٩هـ، وتوفّي سنة ٤٠٦هـ، أي: إنه قضى (٤٧) خريفًا وانتقل إلى جوار ربِّه.

كان الشريفُ الرضيّ أفضلَ علماء عصره، وأحسنَ أدباء دهره بعد أخيه الشريف أبي القاسم المرتضى، الملقَّب بِعَلَم الهدى، طلبَ العِلمَ ففاقَ، وتعلَّمَ

(١) الحسين بن الحسن الناصر الأطروش بن عليّ بن الحسن بن عمر بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، كان أبوه الحسن قد ظهر بطبرستان سنة ٣٠١ه فملكها ولُقّب بالناصر. يُنظر: أعيان الشيعة، السيّد محسن الأمين: ٥/ ٤٨٤.

الأدبَ فطارت شهرتُه في الآفاق، ولا أعرف أحدًا أنكر عليه تفوّقه، أو نازعه مفاخره، وهذا ديوانه الكبير يشهد بفضله على مرِّ الأجيال والعصور، وهو مع ذلك كان يشكو دهرَه، ويذمّ زمانَه في مثل قوله[1]: [من بحر المتقارب]

مَشَى الدَّهْرُ بَيْنِي وَبَيْنَ النَّعِيْم ... ظُلْمًا وَغَيَّرَ مِنْ حَالِيَه

وقوله[2]: [من الوافر]

وَلا سَتَر الزَّمَانُ عَلَيَّ عَيْبًا ... فَأجْزَعُ أنْ يَنمَّ عَلَى عُيُوْبِي

وله من هذا البحر[3]:

وما ذَنْبي إذا اتَّفَقَتْ خطوبُ ... مغالبةٌ وأيَّامٌ غِضابُ

وآملُ أنْ تَقِي الأيَّامَ نفسي ... وفي جنبي لها ظِفرٌ ونابُ

وبعض العُدم مأثرة وفخر ... وبعض المال منقصة وعابُ

وأحسن ما قاله في ذمِّ أعدائه الذين عابوه قوله من هذه القصيدة[4]:

رَمَوْنِي بالعيوب ملفّقاتٍ ... وقد علموا بأنِّي لا أُعابُ

وأني لا تدنسني المخازي ... وأني لا يروعني السُّباب

---

(١) يُنظر: ديوانه: ٢/ ٩٧٨.

(٢) يُنظر: ديوانه: ١/ ٨٠. ورواية الديوان: (ولا ستر الشَّبابُ) بدلاً من (وَلا سَتَرَ الزَّمَانُ).

(٣) يُنظر: ديوانه: ١/ ١٠٠. وترتيب الأبيات ليس على التوالي، ولكنَّها من قصيدة واحدة.

(٤) يُنظر: ديوانه: ١/ ١٠٢.

ولمّا لم يلاقوا فيَّ عيبًا كَسوني من عيوبهم وعابوا

كشأن أغلب النوابغ. وقد قلَّ فيه ما قاله صاحبُ اليتيمة أنَّه «هو اليوم أبدع أبناء الزمان، وأنجب سادات العراق، يتحلَّى – مع محتده الشريف، ومفخره المنيف – بأدبٍ ظاهر، وفضلٍ باهر، وحظٍّ من جميع المحامد وافر..»، ولكنَّه مع هذا الفضل الكبير لم يكن يطمع يومًا ما أن يداني أخاه المرتضى في فضيلة أو يماشيه في مكرمة، ولكنَّ البعض من أهل الجهل والعماية، والحقد والغواية، اختلقوا بعضَ العيوب قاصدين أن يَحطُّوا بها من مكانة علم الهدى، وليس الباعث لذلك غير أنَّ السيِّدَ المرتضى (رَحِمَهُ اللهُ) قد أثبت في بعض تآليفه مثالبَ ثلاثةٍ ممَّن وُسِم بالخلافة، وأثبتَ أحقّيَّة الإمام الأمير لها دون غيره ممَّن نازعه إياها ظلمًا وبغيًا، فكان هذا أكبر داعٍ لإلصاق ما وضعوه من عيب بتاريخ حياة هذا المجتهد الجهبذ، والنِّحرير الفذ، وأرادوا أن يتخلَّصوا من التهمة فمدحوا الرضيّ دفعًا لذلك، وما مدحهم له إلّا للتمويه على العوامِّ؛ ليُقبَلَ فَهْمُ كلِّ ما تقضيه سوء النيَّة، وخبث السريرة من قولٍ شائن وسفالة، من ذلك ما رواه ابن أبي الحديد الحنفيّ المعتزليّ في كتابه (شرح نهج البلاغة)، قال[1]: «قرأتُ بخطِّ محمَّد بن إدريس الحليِّ الفقيه الإماميّ، قال: حكى أبو حامد أحمد بن محمَّد الأسفراييني الفقيه الشافعيّ[2]، قال: كنتُ يومًا عند

(١) يُنظر: شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ١/ ٣٩ - ٤٠.

(٢) هو أَحْمَد بْن مُحَمَّد بْن أَحْمَد أَبُو حامد الفقيه الإسفراييني قدم بغداد، وهو حدث، فدرس فقه الشافعي عَلَى أَبِي الحسن بْن المرزبان، ثم عَلَى أَبِي القاسم الداركيّ، وأقام ببغداد مشغولًا بالعلم، كَانَ مُتقنًا في الحَدِيث وَالرِّوَايَة، وَسكن ببُخارَى وَمَات بهَا

فخر الملك أبي غالب محمَّد بن خلف وزير بهاء الدولة وابنه سلطان الدولة، فدخل عليه الرضيّ أبو الحسن، فأعظَمَهُ وأجلَّه، ورفع من منزلته، وخَلَّى ما كان بيده من القصص والرقاع، وأقبل عليه يحادثه إلى أن انصرف، ثُمَّ دخل بعد ذلك المرتضى أبو القاسم (رضي الله عنه)، فَلَمْ يعظّمه ذلك التعظيم، ولا أكرمه ذلك الإكرام، وتشاغل عنه برقاعٍ يقرؤها، وتوقيعات يوقّع بها، فجلس قليلًا، وسأله أمرًا، فقضاه، ثم انصرف. قال أبو حامد: فتقدمتُ إليه، وقلتُ له: أصلح اللهُ الوزيرَ، هذا المرتضى هو الفقيه المتكلِّم، صاحب الفنون، وهو الأمثلُ والأفضلُ منهما، وإنَّما أبو الحسن الرضيّ شاعر، قال: فقال لي إذا انصرف الناسُ وخلا المجلسُ أجَبْتُك عن هذه المسألة. قال وكنت مُجْمِعًا على الانصراف، فجاءني أمرٌ لم يكن في الحساب، فَدَعَتْ الضرورةُ إلى ملازمةِ المجلس إلى أن تقوّض الناسُ واحدًا فواحدًا، فلمَّا لم يبقَ إلّا غلمانه وحجّابه دعا بالطعام، فلمَّا أكلنا وغسل يديه وانصرف عنه أكثر غلمانه، ولم يبق عنده غيري، قال لخادمٍ له: هاتِ الكتابين اللذين دفعتُهما إليك منذ أيّام، وأمرتك أن تجعلهما في السفط الفلانيّ، فأحضَرَهما، فقال: هذا كتابُ الرضيّ، اتصَل بي أنَّه قد وُلِدَ له ولدٌ، فأنفذتُ إليه ألفَ دينار، وقلتُ: هذه للقابلة، فقد جرت العادة أن يحملَ الأصدقاء إلى أخلّائهم وذوي مودتهم مثلَ هذا في مثل هذه الحال، فردّها وكتب إليَّ: هذا الكتاب فاقرأه، قال: فلمَّا قرأته

في صفر سنة سِتّ أو سبع وَسبعين وَثَلَاث مئَة. تنظر ترجمته في: تاريخ بغداد، للخطيب البغداديّ: ٦/ ٢٠، وسير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبيّ: ١٣/ ١٣ - ١٤، والوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفديّ: ٧/ ٢٣٤.

وهو اعتذارٌ عن الرَّدِّ، في جملته: إنَّنا أهلُ بيتٍ لا يطّلع على أحوالنا قابلةٌ غريبة، وإنَّما عجائزنا يتولَّينَ هذا الأمرَ من نسائنا، ولَسْنَ ممَّن يأخذْنَ أُجرة، ولا يقبلْنَ صِلَةً، قال - أي الوزير المزعوم - : فهذا هذا.

وأمَّا المرتضى، فإنَّنا كنّا قد وزّعنا وقسّطنا على الأملاك (ببادرويا) تقسيطًا نصرفه في حفر فوهة النهر المعروف بـ(نهر عيسى)، فأصاب مُلْكًا للشريف المرتضى بالناحية المعروفة بـ(الداهريَّة) من التقسيط عشرون درهمًا، ثمنها دينار واحد، قد كتب إليَّ منذ أيَّام في هذا المعنى هذا الكتاب فأقرأه، فقرأته، وهو أكثر من مائة سطر، يتضمن من الخضوع والخشوع والاستمالة والهزّ والطلب والسؤال في إسقاط هذه الدراهم عن أملاكه المشار إليها ما يطول شرحه. قال فخرُ الملك: فأيّهما ترى أولى بالتعظيم والتبجيل، هذا العالم المتكلِّم الفقيه الأوحد، ونَفْسُه هذه النفس أم ذلك الذي لم يُشهَر إلّا بالشعر خاصَّة، ونفسه تلك النفس؟ فقلت: وفَّقَ اللهُ تعالى سيِّدنا الوزير، فما زال موفَّقًا، واللهِ ما وضع سيّدنا الوزيرُ الأمرَ إلّا في موضعه، ولا أحلَّه إلّا في محلِّه، وقمتُ فانصرفت. انتهى.

ونحن فضلًا عن شُهرة سقوط هذا الخبر واختلاقه، نريدُ أن نذكرَ ما عندنا بصدده، فنقول: إنَّ هذه الأقصوصة الخياليَّة لم تُنْسَج لُحمَتُها إلّا بقصد الحطّ من مكانة هذا العالِم الفريد، ولكنَّه كما قال الشاعر[1]:

---

(١) هو أبو الطيِّب المتنبّي، يُنظر: ديوانه: ٣١٤. ورواية الديوان: (موضعُهُ) بدلاً من (رتبته).

مَنْ كَانَ فَوْقَ مَحَلِّ الشَّمْسِ رُتْبَتُهُ فَلَيْسَ يَرَفَعُهُ شَيْءٌ وَلا يَضَعُ

وفيها ما يدلُّ على الكذب والوضع، أنَّ الرواية عن شخصٍ واحدٍ، وهي تنمُّ عن غرضٍ، وقد أرسلها دون ما يؤيّدها، وقد قال تعالى: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾[1]، كما أنَّ الدينار يساوي عشرة دراهم في ذلك الوقت وليس عشرين درهمًا، وهذا أيضًا يدلُّ على الكذب والاختلاق، كما أنَّ الراوي (أبا حامد الفقيه الشافعيّ) زعم أنَّه كان بعد انصراف الناس من الوزير، حتَّى انصرف عنه أكثر غلمانه، ثُمَّ يقول في أثر هذا: «حتى لم يبقَ عنده غيري»، فمفاد قوله الأوَّل بقاء بعض الغلمان، وهو ينافي قوله: لم يبق معه غيري، ولو قال: انصرف عنه غلمانه، لَمَا وقع في هذا التناقض السريع، ولكنَّه كما قلت من أبيات: [الرجز]

مَنْ يَحفر البِئْرَ إلى مُؤمنٍ لا بُدَّ مِنْ وقوعِهِ فيها

فهذا تدافعٌ من هذا الفقيه الشافعيّ يصرِّح بافترائه، ويؤيِّدُ هذا قولهُ بعد ذلك: «فقال لخادم له هات الكتابين». فظهر أنَّ معهما الخادم أيضًا، وهذا القول لا يجتمع مع قوله: «حتَّى لم يبقَ معه غيري»، ثم إنَّ هذه الرواية مُعَارَضَة بأصحَّ منها، فقد روى[2] الخطيبُ التبريزيُّ المتوفَّى سنة ٥٠٢هـ قال:

---

(١) سورة الحجرات/ من الآية: ٦.

(٢) تنظر هذه الرواية، والأبيات المذكورة فيها في: سمط اللآلي في شرح أمالي القالي، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمَّد البكريّ الأندلسيّ: ٢/ ٨٩، ومعجم الأدباء، ياقوت الحمويّ: ٤/ ١٦٤٦ - ١٦٤٧، والمزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين

إنَّ أبا الحسن عليّ بن أحمد بن عليّ بن سلك الفالي كانت عنده نسخة من كتاب (الجمهرة) لابن دريد المتوفَّى سنة ٣٢١ هـ في غاية الجودة قديمة، فدعته الضرورةُ إلى بيعها، فاشتراها المُرتضى - موضوع بحثنا الآن - منه بستِّين دينارًا وتصفَّحها فوجد بها أبياتًا بخطِّ بائعها تتضمَّن تأسُّفَه على بيعها لولا الفاقة والديون التي أجبرته على بيعها، من ذلك قوله من بحر الطويل:

وما كانَ ظنِّي أنَّني سَأبِيْعُها ... وَلَوْ أخْلَدَتني في السجونِ ديوني

ولكنْ لضَعْفٍ وافتقارٍ وصِبْيَةٍ ... صغار عليهم تستهلُّ عيوني

فلمَّا وقف عليها أعاد النُّسخةَ ولم يسترجع ثمنَها، كما نقل ذلك ابنُ خلِّكان[1]. فَمَنْ بَلَغَتْ نفسُهُ في الشرف لهذه الدرجة، ويترك ستِّين دينارًا لأجل أبياتٍ وجدها في كتاب لم تُكْتَبْ لَهُ، ولم تُبْعَثْ إليه، كيف يروقُ له أن يكتب مائة سطر في خضوع وخشوع واستمالة وهزّ وطلب لأجل دينار واحد، ومَنْ تصفَّح تاريخَ حياة هذا الرجل العظيم بنزاهته يستطيع أن يعرف مقدار قيمته الغالية، ولكن الأغراض تعمي وتصمّ، فقد كان - رَحِمَهُ اللهُ - على جانب عظيم من الفضل والورع والعفة والزهد، وعَلَمًا في العلم، وركنًا ركينًا للآداب، وقد صدق ابنُ بسّام[2] في كتابه (الذخيرة)؛

السيوطيّ: ١/ ٧٣.

(١) يُنظر: كتابه وفيات الأعيان: ٣/ ٣١٦.

(٢) هو أبو الحسن، عليّ بن بسام الشنتريني الأندلسّي، أديب، من الكتاب الوزراء من أهل الأندلس، له كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، توفِّي سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م. يُنظر: معجم الأدباء: ٤/ ١٦٦٧، والوافي بالوفيات: ٢٠/ ١٦٢.

إذ قال[1]: كان الشريف المرتضى إمام أئمَّة العراق، بين الاختلاف والاتفاق، إليه فَزَعَ علماؤها، وعنه أخذَ عظماؤها، صاحبُ مدارسها، وجمّاع شاردها وآنسها، ممَّن سارت أخباره، وعُرِفَتْ به أشعارُه، وحُمِدَتْ في ذات الله مآثرُه وآثارُه، إلى تآليفه في الدين وتصانيفه في أحكام المسلمين ..

أمَّا ناحية حياته الشعريَّة، فهو فارسُ تلك الحلبة، وإمام تلك الصناعة، قد ذكرَ أهلُ التاريخ ديوانَه الكبير، إلّا أنَّه اشتَهَرَ بالعلم، كما اشتَهَرَ أخوه الرَّضيُّ بالشعر، وكلاهما عالِمٌ فريد، وشاعرٌ مجيد، ومن شعره جوابُه للمعرّي حين قال مُنْكِرًا لعدالة الشريعة السمحاء[2]: [البسيط]

يَدٌ بِخَمْسِ مِئين عَسْجَدٍ أُوْدِيَتْ ... مَا بَالها قُطِعَتْ فِي رُبْعِ دِيْنَارِ
تَنَاقُضٌ مَا لَنَا إلّا السّكُوْتُ لَهُ ... وَأنْ نَعُوْذَ بِمَوْلانَا مِنَ النَّارِ

فأجابه المرتضى من بحره وقافيته ارتجالًا[3]: [البسيط]

عزُّ الأمانةِ أغْلاها، وأرخَصَها ... ذلُّ الخيانةِ، فافهم حكمةَ الباري

---

(١) يُنظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٨/ ٤٦٥.

(٢) يُنظر: اللزوميَّات، لأبي العلاء المعرِّي: ١/ ٣٩١. وفي رواية الديوان هناك تقديمٌ وتأخير بين البيتين، وورد في رواية البيت الأوَّل: (فُدِيَتْ) بدلًا من (أوديتْ).

(٣) لم أعثر عليه في ديوانه، وقد نُسب إلى علم الدين السخاويّ في: (معاهد التنصيص على شواهد التلخيص)، لأبي الفتح العبَّاسيّ: ١/ ١٤٣، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين الآلوسيّ: ٣/ ٣٠٤، والتحرير والتنوير، محمَّد الطاهر بن عاشور: ٦/ ١٩٣.

وقد اختطفته المنونُ ببغداد سنة ٤٣٦هـ. ودُفِنَ في داره باحتفال مهيب، وله من العمر ثمانون سنة وثمانية أشهر، وله قبر في بلدة الكاظميَّة اتخذه الناسُ مزارًا يُتبرَّكُ به، وبه قال الشاعرُ من بحر المتقارب[1]:

قَضَى المُرتَضَى المُرتَضَى فِعْلُه ... وفي موتِهِ مات كلُّ العباد
عليه بَكَتْ عينُ دين النَّبيّ ... وناح عليه التُّقى والرَّشاد
هوى العلمُ للأرضِ من بعده ... فما هو للعلمِ إلّا العماد

ووفاته بعد وفاة أخيه الرَّضيّ بنحو ثلاثين عامًا قضاها في أسًى وأحزان كادت أن تودي بحياته، وهو مع ذلك لم يحضر تشييع جنازته؛ حذارًا من أن يتعرَّض لعوامل الموت؛ لشدَّة شفقته عليه كما صرح حين سُئِلَ عن ذلك. وقد انبرى لرثائه كثيرٌ من الشعراء، منهم تلميذه مِهْيار الدَّيْلَمِيّ[2] المتوفَّى سنة ٤٢٨هـ بقصيدة بليغة من بحر الكامل، مطلعها[3]:

أقُرَيْشُ لا لِفَمٍ أراكِ وَلا يَدِ ... فَتَوَاكَلِي غَاضَ النَّدَى وَخَلا النَّدَي
خولستِ فالتفتي بأوقصَ واسْألي ... مَن بَزَّ ظَهْرَكِ؟ وَانْظُرِي مَنْ أرْمَدِ

---

(١) لم أعثر على قائله.

(٢) هو مِهْيار بن مَرْزُوَيْه الدَّيْلَميّ، أبو الحسن الكاتب الشّاعر المشهور. كان مجوسيًّا فأسلم على يد الشّريف الرّضيّ أبي الحسن الموسَويّ، وهو أستاذه في الأدب والنَّظْم، وبه تخرَّج. تنظر ترجمته في: تاريخ الإسلام، شمس الدين الذهبيّ: ٢٩/ ٢٤٦، وفيات الأعيان: ٥/ ٣٥٩، والأعلام: ٧/ ٣١٧.

(٣) يُنظر: ديوانه: ١/ ٢٤٩.

وفيها يقولُ[1]: [الكامل]

بَكَرَ النَّعِيُّ فَقَالَ: أُرْدِيَ خَيْرُهَا ... إنْ كَانَ يَصْدُقُ فَالرَّضِيُّ هُوَ الرَّدِي

عَادَتْ أرَاكَةُ هَاشِم مِنْ بَعْدِهِ ... خَوَرًا لِفَأسِ الحَاطِبِ المُتَوَقِّدِ

فُجِعَتْ بِمُعْجِزِ آيَةٍ مَشْهُوْدَةٍ ... وَلَرُبَّ آيَاتٍ لَهَا لَمْ تُشْهَدِ

وهي جيدة جدًّا، وَرَثَاهُ بغيرها كما اقتضاه له الوفاء، وتوفّي سنة ٤٠٦هـ، ودُفِنَ ببلدة الكاظميَّة، ويقال: إنَّه نُقِلَ إلى كربلاء المشرَّفة فدُفِنَ عند أبيه، وقبره ظاهر هناك.

(١) يُنظر: ديوانه: ١/ ٢٥٠.

[شَرْحُ الخُطْبَةِ الأوْلَى]

من الأصل

مِن خطبةٍ له (عليه السلام) يَذكرُ فيها ابتداءَ خَلْقِ السَّماءِ والأرضِ وخَلْقِ آدم:

«اَلْحَمْدُ للهِ اَلَّذِي لاَ يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ اَلْقَائِلُونَ ۞ وَلاَ يُحْصِي نَعْمَاءَهُ اَلْعَادُّونَ ۞ وَلاَ يُؤَدِّي حَقَّهُ اَلْمُجْتَهِدُونَ ۞ اَلَّذِي لاَ يُدْرِكُهُ بُعْدُ اَلْهِمَمِ، وَلاَ يَنَالُهُ غَوْصُ اَلْفِطَنِ ۞ اَلَّذِي لَيْسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ مَحْدُودٌ، وَلاَ نَعْتٌ مَوْجُودٌ، وَلاَ وَقْتٌ مَعْدُودٌ، وَلاَ أَجَلٌ مَمْدُودٌ ۞ فَطَرَ اَلْخَلاَئِقَ بِقُدْرَتِهِ، وَنَشَرَ اَلرِّيَاحَ بِرَحْمَتِهِ، وَوَتَّدَ بِالصُّخُورِ مَيَدَانَ أَرْضِهِ».

اللغة

(الحَمْدُ) والمدح مترادفان، فتقولُ: أحمدُك على إحسانك، أو أمدحُك على إحسانِك، لا فرقَ بينهما عند بعض علماء اللغة[1]، والصواب وجود الفرق

---

(١) قال عددٌ من اللغويّين بتقاربهما وترادفهما. يُنظر: على سبيل التمثيل: الخطّابيّ في غريب الحديث: ١/ ٣٤٦، والزمخشريُّ في الكشّاف: ١/ ٨. وقد حاول بعضُهم تأويلَ قولِ الزمخشريّ: «إنَّ الحَمْدَ والمَدْحَ أخوان» بتأويلاتٍ مختلفة، قال الطيبيُّ: «قوله: (الحمد والمدح أخوان)، أي: متشابهان لا مترادفان، فإنَّ (الأخ) يُستعمل في المشابهة». يُنظر فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبيّ على الكشّاف): ١/ ٧١٧. ونقلَ الآلوسي عددًا من التأويلات لقول الزمخشريّ، مؤكِّدًا أنَّه أراد الترادفَ بقوله: (أخوان)، قائلًا: «واحتمال أن يُرادَ من (الأخوين) ما يكون بينهما اشتقاق كبير، بأن يشتركا في الحروف الأصول من غير ترتيب، كـ(جبذ، وجذب)، وأنَّ الأدباء يجوِّزون

بينهما؛ إذ إنَّ بينهما عموم وخصوص مطلقًا، والعموم بجانب المدح، فكلُّ مدحٍ حمدٌ ولا ينعكس.

فالحمدُ أخصُّ من المدح، ومعناه: الثناء على مَنْ أحسنَ إليك كما أنَّ الحمدَ أعمُّ من الشكر، والمحمدةُ نقيضُ المذمّة.

و(أل) من (الحمد) جنسيَّة؛ لجواز وضع (كلّ) محلَّها، أو أنَّها للاستحقاق، كقولك: الكتاب لجابر. و(يُحصي) من أحصى، فعل مضارع مضموم الأوَّل؛ لأنَّه رباعيٌّ. و(العادُّون) - بتشديد الدال - جمع (عادّ)، وهو الحاسب. و(يُدركُهُ) يلحقه، و(الهِمم) بكسر الهاء وفتح الثاني جمع (همَّة)، وهي أقوى العزم، و(الغوص) مصدر (غاص) معناه: الذهاب البعيد تحت الماء لاستخراج ما في قعره، و(الغوّاص) - بفتح الغين المعجمة وتشديد الواو - مَنْ كانت صنعته الغياصة، و(الفِطَنُ) - بكسر الأوَّل وفتح الثاني - جمع (فطنة)، وهي الاستعداد النفسانيّ لتفهمّ الأمور (وصفته) تعالى عين ذاته.

و(حَدّ) - بفتح الأوَّل وتشديد الثاني - نهاية الشيء التي تفصله عن غيره، ويُجمعُ على (حدود)، ومنه حدود الإيمان، ويجمعها الشهادتان، والاعتراف بما بُعث به الرسول من عند الله تعالى، والصلاة اليوميَّة، والزكاة، وصوم شهر رمضان، وحجّ بيت الله لمن استطاع إليه سبيلًا، و(الحِداد) - بكسر

التعريفَ بالأعمِّ، والنقيض هناك بالمعنى اللغويّ، ويجوز أن يكون شيءٌ واحد نقيضًا لشيئين بينهما عموم وخصوص بهذا المعنى لا ينفي ما قلناه، بل إذا أنصفتَ تكاد تَجزِم بأنَّ الزمخشريَّ قائلٌ بالترادف». يُنظر: روح المعاني: ١/ ٧٣.

الحاء المهملة - ارتداء الألبسة السود؛ إعلانًا للحزن، ومنه قول نابغة العراق السيّد جعفر الحِلِّيّ الشاعر الكبير في مرثيَّته لأمير المؤمنين (عليه السلام)[1]: [الرَّمل]

لَبِسَ الإسلامُ أبْرَادَ الحِدَاد يومَ أردَى المرتضى سيفُ المُرادي

وفي الحديث الشريف: «لَيْسَ لِأَحَدٍ أنْ يَحُدَّ أكْثَرَ مِنْ ثَلَاثٍ، إِلَّا الْمَرْأَةُ عَلَى زَوْجِهَا حَتَّى تَنْقَضِي عِدَّتُهَا...»[2]. ووجوب حِداد المرأة في عدة وفاة زوجها، وهو عبارة عن تركها للزينة كالكحل، والأصباغ، والطيب. وأمَّا الامتشاطُ[3]، فالأصلُ فيه الجواز، وبذلك تضافرت أخبار أهل البيت (عليهم السلام)، ففي كتاب الوسائل قال: وعن حميد عن ابن سماعة عن ابن رباط عن ابن مسكان عن أبي العباس قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) - (يعني الصادق): «المتوفَّى عنها زوجُها. قال (عليه السلام): لا تكتحل لزينة، ولا تطَّيَّب، ولا تلبس ثوبًا مصبوغًا»[4]، والمراد بالثوب المصبوغ ما يُقصد به الزينة، كالثياب الحمر، وإلّا فيلزم النهي عن الأمر، أي: نقض الغرض، وهو باطل؛ إذ إن

---

(١) يُنظر: ديوانه (سحر بابل وسجع البلابل أو تراجم الأعيان والأفاضل): ١٥٤. والروايةُ فيه: (أبراد السواد) بدلًا من (أبراد الحداد).

(٢) يُنظر: هذا الحديث في: مَن لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق: ١/ ١٨٣، وقد نَسَبه إلى الإمام الصادق (عليه السلام)، وتهذيب الأحكام، الشيخ الطوسي:٨/ ١٦٠.

(٣) يُقالُ: امْتَشَطَتِ المرأةُ، ومَشَطَتْها الماشِطَةُ تَمْشِطُها مَشْطاً. والمشطة: نوع من المشط، كالركبة والجلسة. والمُشاطَةُ: ما سقط منه. والمُشْطُ بالضمِّ: واحد الأمْشاطِ التي يُمْشَطُ بها. يُنظر: الصحاح، (مشط)، لإسماعيل بن حمَّاد الجوهريّ: ٣/ ١١٦٠ - ١١٦١.

(٤) يُنظر: وسائل الشيعة، الحرُّ العامليّ: ٢٢/ ٢٣٣.

الثياب السود للحداد المأمور به مشتملة في ذاتها على الأصباغ.

الشرح

أخْبَرَ عليٌّ (عليه السلام) أنَّ مستحقَّ الحمد هو الله تعالى، وربَّما أراد بهذا الخبر الأمر، أي: قولوا الحمد لله، ومثل هذا كثير الورود في لغة العرب[1]، وإليه ذهب بعض مفسّري القرآن[2] عند تفسير هذه الكلمة في سورة الفاتحة، كما أنَّه يصحُّ إرادة نفس الإخبار بذلك، ولفظة الجلالة عَلَمٌ لذات واجب الوجود سبحانه، وقد وصفه (عليه السلام) بأنَّه تعالى لا يستطيع مَنْ يحمدُه أن يبلغَ ما يستحقّه تعالى مِنْ حمدٍ وثناء، ولو أطال في فنون المديح ما أطال، وأعقب ذلك بعجز العادّين عن إحصاء نِعَم الباري، وعدم استطاعة المجتهدين من تأدية تمام حقِّه الواجب والمندوب، وأخذ هذا المعنى أبو نؤاس، فقال وأجاد[3]: [الكامل]

---

(١) يُنظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجَّاج: ٢/ ٤٥٩، والمخصَّص، لابن سيده: ٥/ ٢٣٢، وشرح المفصَّل، لابن يعيش: ٤/ ٢٦١، والبحر المحيط، لأبي حيَّان: ١/ ٥٤.

(٢) يُنظر: جامع البيان (تفسير الطبريّ)، لمحمَّد بن جرير الطبريّ: ١/ ١٣٩، والكشف والبيان، لأحمد بن محمَّد الثعلبيّ: ١/ ١٠٨، والجامع لأحكام القرآن الكريم، لأبي عبد الله شمس الدين القرطبيّ: ١/ ١٣٥، والتحرير والتنوير، لمحمَّد الطاهر بن عاشور: ١/ ١٦٢.

(٣) يُنظر: ديوانه: ٤٢٧. وروايةُ البيت الثاني فيه (جلَّلْتني) بدلاً من (حمَّلْتني). وبيَن البيتين الأخيرين بيتٌ قال فيه:

فإلَيْكَ قَبْلَ اليَوْمِ تَقْدُمَةً ... لاقَتْكَ بالتَّصْرِيْحِ مُنْكَشِفَا

قَدْ قُلْتُ لِلْعَبَّاسِ مُعْتَذِرًا ... مِنْ ضَعْفِ شُكْرِيهِ وَمُعْتَرِفَا
أنْتَ امْرُؤٌ حَمَّلْتَنِي نِعَمًا ... أوْهَتْ قُوَى شُكْرِي فَقَدْ ضَعُفَا
لا تُسْدِيَنَّ إلَيَّ عَارِفَةً ... حَتَّى أقُوْمَ بِشُكْرِ مَا سَلَفَا

ونحو هذا ما قلتُه من أوائل نظمي على البحر البسيط:

أنّى لأنْعُمِك الغرّاءِ إحصاءُ ... والقولُ قيَّدَه عِيٌّ وإعْيَاءُ
رأيتُ نعماك مثلَ النَّجمِ خالدةً ... وهل إلى النجمِ تعدادٌ وإحصاءُ؟

ثم وصفه (عليه السلام) بقصور الهمم عن الإحاطة بكُنْهه، مهما كانت تلك الهمم بعيدة عالية، كما أنَّه لا تناله الفطنُ الغائصة في بحر التأمّلات لاستخراج ماهيَّته، وذلك ظاهر؛ لاقتضائه التركيبَ المستلزم للحدوث.

وقوله (عليه السلام): «**اَلَّذِي لَيْسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ مَحْدُودٌ**»، فالمرادُ بالصِّفةِ ههنا حقيقةُ ذاته، فنُفيَ عنها الحدُّ؛ إذ كلُّ محدودٍ مفتقرٌ لحدِّه، والمُفتقِرُ ليس بواجبِ الوجود، ومن هنا تعلم بطلانَ عقيدة إخواننا أهل السُّنَّة[1] - هداهم الله لطريق النجاة - فإنَّهم يعتقدون أنَّ اللهَ تعالى جسمٌ طوله ستّون ذراعًا[2]،

(١) ليس الكلامُ على إطلاقِه، فهناك من مذاهب أهل السنَّة مَنْ ذهبَ مذهبًا معتدلاً في تنزيه الذات الإلهيَّة.

(٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وآله وسلم) قَالَ: «خَلَقَ الله آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ، طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا». يُنظر: صحيح البخاريّ: ٨/ ٥٠. رقم (٦٢٢٧).

وله حقوٌ[1]، ينزلُ كلَّ ليلة جمعة إلى سماء الدنيا نزولاً يليق به[2]، ويأتي يوم القيامة بغير صورته، فينكره أهل المحشر[3]، وأنَّه يضحك[4]، وأنَّه يحملُ الأرضَ على إصبع.

وقد ادَّعَتْ أئمَّتُهم رؤيةَ الله تعالى، ففي (نزهة المجالس) قال الإمام أحمد ابن حنبل[5]: «رأيتُ ربَّ العزَّة في المنام»، ومثلها[6] عن أبي بكر العسقلانيّ[7]، وكذلك روى صاحب هذا الكتاب عن السّرّيّ

---

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وآله وسلم) قَالَ: «خَلَقَ الله الخَلْقَ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُ قَامَتِ الرَّحِمُ، فَأَخَذَتْ بِحَقْوِ الرَّحْمَنِ». يُنظر: صحيح البخاريّ: ٦/ ١٣٤. رقم (٤٨٣٠).

(٢) يُنظر: صحيح البخاريّ: ٢/ ٥٣. (١١٤٥)، ٩/ ١٤٣. (٧٤٩٤)، ونصُّ رواية الحديث: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ». ومسند الإمام أحمد ابن حنبل: ١٣/ ٣٥. (٧٥٩٢)، ١٣/ ٦١. (٧٦٢٢)، ١٦/ ٢١١. (١٠٣١٣).

(٣) يُنظر: صحيح البخاريّ: ١/ ١٦٠. رقم (٨٠٦)، ٨/ ١١٧. رقم (٦٥٧٣).

(٤) يُنظر: صحيح البخاريّ: ١/ ١٦٠. رقم (٨٠٦)، ٤/ ٢٤. رقم (٢٨٢٦).

(٥) يُنظر: نزهة المجالس، ومنتخب النفائس، عبد الرحمن بن عبد السلام الصفوريّ: ١/ ٤٤. وتتمّة الحكاية: « ... فقلتُ: يا ربِّ، بماذا يتقرَّبُ إليك المتقرِّبون؟ قال بكلامي يا أحمد، قلت: بفهمٍ وغير فهمٍ؟ قال: بفهمٍ وغير فهمٍ».

(٦) يُنظر: المصدر نفسه: ١/ ٤٥.

(٧) مُحَمَّد بن خلف أَبُو بكر الْعَسْقَلاَنِّي، روى عن رواد بن الجرَّاح، وضمرة بن ربيعة، وعمرو ابن أبي سلمة، والوليد بن النضر، وعبيد الله بن عبد المجيد. تنظر ترجمته في الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم: ٧/ ٢٤٥، والثقات، لابن حبَّان: ٩/ ١٤٦.

السَّقطيّ[1] نحوًا من ذلك[2]، وفي هذا الكتاب في هذه الصفحة نفسها قال[3]: «قالَ يحيى بن معاذ الرازيّ[4]: إذا نظرَ أهلُ الجنة [إلى][5] ربِّهم ذهبت عيونُهم في قلوبهم مِن لذَّة النظر».

وفي كتاب فتح الملك المجيد للشيخ أحمد الديربيّ الشافعيّ[6] قال الترمذيُّ: «رأيتُ ربَّ العزَّة في المنام ألف مرَّة»[7]. ومنه أيضًا قال: «قالَ الإمام أبو حنيفة: «رأيتُ ربَّ العزَّة في المنام تسعًا وتسعين مرَّة»[8]. وفي

---

(١) هو أبو الحسن سّريّ بن المغلس السقطيّ البغداديّ الصوفّي، أحد الزهّاد الأتقياء العبّاد. بغداديّ المولد والوفاة. وهو أوّل من تكلّم في بغداد بلسان التوحيد وأحوال الصوفيَّة. تُوفّي سنة إحدى وخمسين، وقيل ستٍّ وخمسين، وقيل سبع وخمسين ومائتين ببغداد، تنظر ترجمته في: تاريخ دمشق: ٢٠/ ١٦٥، ووفيات الأعيان: ٢/ ٣٥٩، والأعلام: ٣/ ٨٢.

(٢) يُنظر: المصدر نفسه: ١/ ٥٤.

(٣) يُنظر: المصدر نفسه: ١/ ٥٦.

(٤) أبو زكريا يحيى بن معاذ الواعظ، مِنْ كِبَارِ المَشَايِخِ، لَهُ كَلامٌ جَيِّدٌ، وَمَوَاعِظُ مَشْهُورَةٌ. تُوفّي سنة ثمان وخمسين ومائتين. يُنظر: وفيات الأعيان: ٦/ ١٦٥، وطبقات الأولياء، لابن الملقّن: ٣٢١.

(٥) زيادة يقتضيها السياق.

(٦) أحمد بن عمر الديربّي الغنيميّ الأزهريّ الشافعيّ أبو العبَّاس، فقيه، له مؤلَّفات متعدّدة. توفّي في ٢٧ شعبان عام ١١٥١ه، وله تسعون سنةً تقريبًا. يُنظر: معجم المؤلِّفين، عمر كحالة: ٢/ ٣٠.

(٧) لم أعثر على هذا القول في الكتاب المذكور في طبعته الحجريَّة.

(٨) لم أعثر على هذا القول في الكتاب المذكور. وينظر في مناقب الإمام أحمد، لابن

نزهة المجالس قال عمر بن الخطَّاب: «رَأَيْتُ رَبَّ العِزَّةِ في المَنَامِ، فَقَالَ: يا ابنَ الخَطَّابِ تمَنَّ عَلَيَّ...»[1]. وروى ابن خلِّكان[2] نحوَ هذا، وفي صحيح البخاريّ عن أبي سعيد قال: سمعتُ النبيَّ (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: «**يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ**»[3]، ومنه قال: «**فَيَأْتِيهِمُ الجَبَّارُ فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا، فَلاَ يُكَلِّمُهُ إِلَّا الأَنْبِيَاءُ، فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ تَعْرِفُونَهُ؟ فَيَقُولُونَ: السَّاقُ، فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ ومؤمنة**»[4].

وفي (منهاج السنَّة) قال[5]: «أَمَّا إِثْبَاتُ رُؤْيَةِ اللهِ (عز وجل) بِالأَبْصَارِ فِي الآخِرَةِ فَهُوَ قَوْلُ سَلَفِ الأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا، وَجَمَاهِيرِ المُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ المَذَاهِبِ الأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهَا، وَقَدْ تَوَاتَرَتْ فِيهِ الأَحَادِيثُ عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وآله وسلم) عِنْدَ عُلَمَاءِ الحَدِيثِ، وَجُمْهُورُ القَائِلِينَ بِالرُّؤْيَةِ يَقُولُونَ: يُرَى عِيَانًا مُوَاجَهَةً، كَمَا هُوَ المَعْرُوفُ بِالعَقْلِ، كما قال النبيُّ (صلى الله عليه وآله وسلم): «إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ، لا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ»[6]».

الجوزيّ: ٥٨٣.

(١) يُنظر: نزهة المجالس: ١/ ٢٠٢.

(٢) يُنظر: وفيات الأعيان: ١/ ٨٠.

(٣) يُنظر: صحيح البخاريّ: ٦/ ١٥٩. رقم (٤٩١٩).

(٤) يُنظر: المصدر نفسه: ٩/ ١٢٩. رقم (٧٤٣٩).

(٥) منهاج السنَّة النبويَّة، ابن تيمية الحرَّانيّ: ٣/ ٣٤١.

(٦) يُنظر: صحيح البخاريّ: ١/ ١١٥. رقم (٥٥٤). والروايةُ فيه مختلفة قليلاً؛ إذ جاء فيها: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ، لاَ تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ».

وانظر صحيحَ البخاريّ [في أكثر من موضع][1]، فتجده يزعم أنَّ لله قدمًا لا تمتلئ النارُ مِن العصاةِ حتَّى يضعها فيها، ثُمَّ قال: لا تمتلئ حتَّى يضعَ رِجْلَهُ[2]. وقال الآلوسيُّ[3] في تُحفته[4]: «إنَّ رؤية الله تعالى ممكنة، وَسَيراه المؤمنون بعيون رؤوسهم جزمًا، ويتشرَّفون في الجنَّة بهذه النعمة بحسب مراتبهم، والكافرون والمنافقون محرومون منها، وهذا هو مذهب أهل السنة انتهى»[5]. وفي (نزهة المجالس) عن النبيِّ (صلى الله عليه وآله وسلم) أنَّه قال: «إنَّ أهلَ الجنَّةِ ينظرون إلى ربِّهم في كلِّ جمعةٍ على كثيبٍ من كافور، فيه نهرٌ جارٍ، حافَّتاه المسك، عليه حورٌ يقرأْنَ القرآنَ بأحسن صوت ..»[6]. ويزعم البعض منهم

---

(١) زيادة يقتضيها المقام؛ لكثرة النقول التي ذكرها المؤلِّف - رحمه الله - في المتن. وتنظر هذه المواضع في صحيح البخاريّ: ١/ ١١٥. رقم (٥٥٤)، ٦/ ١٣٩. رقم (٤٨٥١)، ٩/ ١٢٧. رقم (٧٤٣٤)، و(٧٤٣٦).

(٢) يُنظر: المصدر نفسه: ٦/ ١٣٨. رقم (٤٨٥٠).

(٣) هو محمود شكري الآلوسّي، أبو المعالي: مؤرِّخ، عالم بالأدب والدين. ولد في رصافة بغداد، وأخذ العلم عن أبيه وعمِّه وغيرهما. له اثنان وخمسون مصنَّفًا، بين كتاب ورسالة، منها (بلوغ الأرب في أحوال العرب - ط) ثلاثة أجزاء. توفّي عام ١٩٢٤م. يُنظر: الأعلام: ٧/ ١٧٣، ومعجم المؤلِّفين: ١٢/ ١٦٩.

(٤) يعني مختصر التحفة الاثني عشريَّة، لشاه عبد العزيز غلام حكيم الدهلويّ، نقله من الفارسيَّة إلى العربيَّة: الشيخ الحافظ غلام محمَّد بن محيي الدين بن عمر الأسلميّ سنة ١٢٢٧ه، اختصره وهذَّبه: محمود شكري الآلوسيّ سنة ١٣٠١ه.

(٥) المصدر نفسه: ١٠٦.

(٦) نزهة المجالس: ١/ ١٣١.

أنَّ الرؤية البصريَّة لم تحصل في الدنيا إلّا لنبيِّنا محمَّد (صلى الله عليه وآله وسلم). وأمَّا في الآخرة، فيراه كلُّ مؤمن ومؤمنة بأبصارهم حتمًا.

وإلى هنا اكتفيتُ من إيراد أقوال علماء أهل السنَّة التي يروُونها بالكتب الكاذبة التي يسمّونها الصحاح، ويجب علينا أن نفنِّدها ونوقفهم على خطل أقوالهم، ولقد أجاد القائل[1]: [بحر الطويل]

عَجِبْتُ لِقَوْم يَزْعَمُوْنَ نَبِيَّهُم ... رَأَى رَبَّهُ بِالْعَيْنِ: تَبًّا لَهُمْ تَبّا
وَهَلْ تُدْرِكُ الأَبْصَارُ غَيْرَ مُكَيَّفٍ؟ ... وَكَيْفَ تُبِيْحُ العَيْنُ مَا يَمْنَعُ القَلْبَا؟
إذَا كَانَ طَرْفُ القَلْبِ عَنْ كُنْهِهِ نَبَا ... حَسِيْرًا فَطَرْفُ العَيْنِ عَنْ كُنْهِهِ أَنْبَا

ولي في الرَّدِّ عليهم من بحر الطويل أيضًا:

لقد ضلَّ نهجَ الرُّشْدِ مَنْ ظنَّ ربَّه ... له صورةٌ كالشَّمْسِ تشرقُ نيّرة
فلو كان للرحمن صورةُ حادثٍ ... فيا ليتَ شعري مَنْ بذلك صوَّره؟

وفي هذا المعنى لابن أبي الحديد[2]: [المديد]

فِيْكَ يَا أُغْلُوْطَةَ الفِكَرِ ... تَاهَ عَقْلِي وَانْقَضَى عُمُرِي
سافَرَتْ فِيْكَ العُقُوْلُ فَمَا ... رَبحَتْ إلّا أذَى السَّفَرِ
رَجَعَتْ حَسْرَى وَمَا وَقَفَتْ ... لا عَلَى عَيْنٍ وَلا أَثَرِ
فَلَحَى اللهُ الأُلَى زَعَمُوا ... أنَّكَ المَعْلُوْمُ بِالنَّظَرِ

---

(١) هو ابنُ أبي الحديد، يُنظر: شرح نهج البلاغة: ١٣/ ٥٤.

(٢) يُنظر: شرح نهج البلاغة: ١٣/ ٥١.

كَذَبُوا إنَّ الَّذِي طَلَبُوا خَارِجٌ عَنْ قُوَّةِ البَشَرِ

ولكنَّه أخطأ في البيت الثالث، حيثُ زعمَ أنَّ العقولَ رجعت وما وقفت على عين الله أو أثره، فالحقُّ أنَّ العقولَ وقفتْ على الأثر، وكيف لا والشاعر نفسُه مِن آثار الله، ولولا الأثر، لتعسَّرَ إثباتُه تعالى؛ إذ بوجود آثاره ثَبُتَ وجودُه المقدّس. ولابن أبي الحديد إثباتٌ مِن هذا القبيل في خطاب الباحثين عن كُنْهِ الله تعالى من مجزوء الكامل[1]:

هَلْ أنْتمُو إلّا الفَرَا شُ رَأَى الشِّهَابَ وَقَدْ تَوَقَّدْ

فَدَنَى فَأحْرَقَ نَفْسَهُ وَلَوِ اهْتَدَى رُشْدًا لَأبْعَدْ

فلو فرضنا أنَّ طولَ الله ستّون ذراعًا، وله حقوٌ وأصابعُ ورجلٌ وساقٌ، ويجيءُ ويضحكُ كما يعتقدُ به أهلُ السنة ويروونه في صحاح كتبهم، لكان اللهُ على ذلك محصورًا في حيِّزٍ، ومتى كان كذلك كان مُفتقِرًا إلى حيّزه الذي يشغله، والافتقار والتحيُّز من صفات الممكن لا الواجب، ثم نقول لهم: مَنْ يُشارُ إليه يلزمه التحيّز، أو يكونُ عرضًا مفتقراً إلى ما يقوم به، وكلُّ متحيِّزٍ محدود، وكلُّ محدودٍ مركَّب (بفتح الكاف)، وكلُّ مركَّبٍ يحتاجُ للمركِّبِ (بكسر الكاف)، فحينئذٍ يحتاج إلى إلهٍ ثانٍ يُركِّبُ أجزاءَه[2] غير مُفتقِرٍ إلى حيِّزٍ منعًا للدَور أو التسلسل، ويؤيِّدُ هذا قولُ أمير المؤمنين (عليه السلام): «**لاَ يُدْرِكُهُ بُعْدُ الْهِمَمِ، وَلاَ يَنَالُهُ غَوْصُ الفِطَنِ**». ولا يصحُّ أن تقول هذا بالنسبة إلى الدنيا، أمَّا

(١) يُنظر: المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٢) في الأصل: (أجزائه)، والصوابُ ما أثبتناه.

في الآخرةِ فجائزة رؤيتُه؛ إذ يَردُّك العقلُ فيما قرَّرناه أوَّلاً ثم يردُّك قولُ عليٍّ (عليه السلام): «**اَلَّذِي لَيْسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ مَحْدُودٌ، وَلاَ نَعْتٌ مَوْجُودٌ، وَلاَ وَقْتٌ مَعْدُودٌ**»، فلا وقتَ معدود لمعرفة كُنْهِهِ، لا في الآخرة ولا في الدنيا على الإطلاق، فإذا حَصَلَت الرؤيةُ حصل التشخُّصُ، وهو يستلزِمُ الجهةَ، فتجوزُ الإشارةُ إليه، وكلُّ ما يُشارُ إليه بالحسِّ إمَّا أن يكونَ عَرَضًا أو متحيِّزًا، والمتحيِّزُ مفتقرٌ إلى حيِّزه. وقد أسلفنا القولَ في إبطاله؛ لاستلزامه التركيبَ، وأطنبنا في بيان ذلك في كتابنا (ما وراء الستار)[1]، ولي نحو ذلك في أرجوزتي (ذكرى رِزيَّة الطَّفّ)[2] من ذلك: [الرَّجز]

وإنْ سألتَ عن وجودِ الرَّبِّ ... فاللهُ موجودٌ بغيرِ رَيْبِ
والقصدُ بالوجودِ للرَّحمنِ ... بأنَّه الكائنُ في الأعيانِ
لكنَّه ليس كذي الأشياءِ ... لأنَّه ما كانَ ذا أجزاءِ
فيستحيلُ أن يكونَ جسمًا ... وإنَّ مَنْ قالَ بهذا أعمى

---

(١) (ما وراء الستار) أو (الصواعق الصواقع) طُبعَ حديثًا من دون تحقيق بجزء واحد، ولعلَّ الجزء الأكبر منه مفقود، فَلَم أعثر في هذا الجزء على ما يوافق قولَ المؤلِّف - رحمه الله - في المتن.

(٢) يُنظر: مخطوطة (ذكرى رزيَّة الطَّفّ): ١٥. واختَلَفَتْ فيها روايةُ عَجْزِ البيت الثاني؛ إذ جاء فيها:

لكنَّه ليس كذي الأشياء ... لأنَّه ليس بذي أجزاء

واختلفت - أيضًا - رواية عجز البيت الثالث؛ إذ جاء فيها:

فيستحيلُ أن يكونَ جسما ... كما ادَّعى البعضُ فقالَ وهْمَا

فإنَّه لو كان جسمًا أشغَلا ... حيِّزَه وآخرٌ منه خَلا
وذاك ما يَؤُولُ للتحديدِ ... وهو خلافُ القولِ بالتوحيدِ
أو يقتضي ربًّا إلى الأكوان ... غيرَ الإلهِ الحالِّ في مكانِ

وقد نظمتُ في هذا المعنى أبياتًا مِن بحر الطويل منها:

يدَّعي ربُّ الجهالَةِ أنَّه ... رأى ربَّه بالعينِ عِندَ هجودِه
فما كان في هذي المقالة صادقًا ... وهل مدّعٍ يُرضى بدون شهودِه؟
وكيف يَرى يومًا حقيقةَ ربِّه ... ومِن جهلِهِ لَمْ يَدْرِ كُنْهَ وجودِه؟

وهذه العقيدة تنافي الإسلامَ الصحيح، ولم أدرِ مِن أين أتت إلى مذاهب أهل السنَّة فَأقَرُّوها كحقيقة مُسَلَّمة، وهي خلافُ الدِّين المحمَّديّ، وكلُّ ما يَحتَمِلُ هذا المعنى إمَّا مؤوَّل أو مُختَلَق، والمؤوَّل كقوله تعالى: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾[1]، فهنا مضافٌ محذوفٌ تقديره: (رحمة ربِّها)[2]، وأمَّا ﴿**يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾[3]، فصريحةٌ بمعنى القدرة.

وقوله (عليه السلام): «**فَطَرَ الْخَلائِقَ بِقُدْرَتِهِ**»، فمعناه أنَّه تعالى ابتدعهم بسبب قدرته البالغة، والاسم (الفطرة). وقوله (عليه السلام): «**نَشَرَ الرِّيَاحَ بِرَحْمَتِهِ**» أي: إنَّه

---

(١) سورة القيامة: الآيتان/ ٢٢ - ٢٣.

(٢) مَنْ قال بهذا التقدير نفى رؤيةَ الله سبحانه وتعالى، أمَّا مَنْ أكَّدَ رؤيةَ الله سبحانه وتعالى، فقد رفض هذا التقدير. يُنظر الهداية إلى بلوغ النهاية، مكّيّ بن أبي طالب القيسيّ: ٣/ ٢١٣٥، والمحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطيَّة الأندلسيّ: ٥/ ٤٠٥.

(٣) سورة الفتح/ من الآية ١٠.

أجراها بالمطر، فأحيا بها البلادَ، يذكّر الناسَ بقدرة الله ونعمه التي لا تُحصى، ولابن المعتزِّ في المطر من بحر المخلع[1]:

اِشْرَبْ فَقَدْ دَارَتِ الكؤوسُ ... وَفَارَقَتْ يَوْمَكَ النُّحُوْسُ
فِيْ كُلِّ يَوْمٍ جَدِيْدُ رَوْضٍ ... عَلَيْهِ دَمْعُ النَّدَى حَبِيْسُ
وَمَأتَمٌ فِي السَّمَاءِ يَبْكِي ... وَالأرْضُ مِنْ تَحْتِهِ عَرُوْسُ

وفي [شرح][2] النهج ذَكَرَ ابنُ أبي الحديد عن الراونديِّ[3] أنَّه قال في هذا المقام[4]: «سألني سائل، فقال: ههنا كلمتان: إحداهما كُفر، والأخرى ليست بكُفر، وهما: (للهّ تعالى شريك غير بصير) و(ليس شريكُ الله تعالى بصيرًا)، فأيّهما كلمة الكفر؟ فقلت له: القضيَّة الثانية، وهي (ليس شريكُ الله تعالى بصيرًا) كُفْرٌ؛ لأنَّها تتضمَّن إثباتَ الشريك. وأمَّا الكلمة الأخرى، فيكون معناها: (لله شريكٌ غيرُ بصير؟) بهمزة الاستفهام المقدّرة»، فاعترضَه ابنُ أبي الحديد - وهو يَعلَمُ صحّةَ قوله - قائلًا[5]: «فأمَّا القضيَّتان الَّلتان سأله السائلُ عنهما، فالصوابُ غير ما أجاب به فيهما، وهو أنَّ القضيةَ الأولى كُفرٌ؛ لأنَّها صريحةٌ في إثبات الشريك، والثانية لا تقتضي ذلك؛ لأنَّه قد ينفي كونَ الشريك بصيرًا على أحد وجهين: إمَّا لأنَّ هناك شريكًا، لكنَّه غيرُ بصير،

(١) يُنظر: ديوانه: ٢٧٤.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) يُنظر: قولُ الراونديّ في: منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ١/ ٣٤.

(٤) يُنظر: شرح نهج البلاغة: ١/ ٧٠.

(٥) يُنظر: المصدر نفسه: ١/ ٧١.

وإمَّا لأنَّ الشريكَ غيرُ موجود، وإذا لم يكن موجودًا لم يكن بصيرًا، فإذا كان هذا الاعتبارُ الثاني مُرادًا لم يكن كفرًا انتهى». وهو غلط، والأصحّ ما أجابَ به ابنُ الراونديّ؛ لأنَّ الجملةَ الثانيةَ وصفٌ لشريك الله بكونه غير بصير، ولا يحصل الوصفُ، إلّا بحصول ما يقوم به، وهو الموصوف؛ لأنَّ الوصفَ حكمٌ، ولا يجوزُ الحكمُ إلّا بعد تحقيقِ وجودِ المحكوم عليه، وتأويلُ ابن أبي الحديد - بكونها سالبة بانتفاء الموضوع - تعسُّفٌ ظاهرٌ لا أحبّه، وقوله: فأمَّا القضيَّةُ الأولى، فكفرٌ؛ لأنَّها صريحةٌ في إثبات الشريك، فبعد تأويل الراونديّ لها بتقدير همزة الاستفهام لا يجوزُ أن يدَّعي بعد كل ذلك أنها صريحةٌ بالكفر.

وقوله (عليه السلام): «**وَتَّدَ بِالصُّخُورِ مَيَدَانَ أَرْضِهِ**» أي أثبَتَها بالصخور، وربَّما أراد بالصخور الجبالَ، من باب تسمية الخاصّ باسم العامّ، والمَيَدَانُ: تحرُّكها وميلانُها، مِنْ قولك: مادَ الشيءُ إذا مالَ، وفيه إشارةٌ إلى حركة الأرض وإثباتها، أي جَعْلُها في محورها تدور عليه ولا تزول عنه، كما وَرَدَ في كتاب (الاحتجاج) للشيخ الطبرسيِّ، عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) أنَّه قال للزنديق[1]: «إنَّ الأشياءَ تدلُّ على حدوثها، من دوران الفلك، وتحرك الأرض»، وكقوله تعالى: ﴿**تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ**﴾[2]، وقولُ أمير المؤمنين (عليه السلام): «**فَسَكَنَتْ عَلَى حَرَكَتِهَا مِنْ أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِهَا**». ويرجع الاعتقادُ بحركة الأرض إلى عصر السلف الصالح، وليس هو من ثمرة العصر الحاضر كما يتوهَّمُ الجاهلون.

---

(١) يُنظر: الاحتجاج: ٢/ ٧٩.

(٢) سورة النمل/ من الآية ٨٨.

من الأصل

«أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ ۞ وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ ۞ وَكَمَالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ ۞ وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ الْإِخْلاصُ لَهُ ۞ وَكَمَالُ الْإِخْلاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ؛ لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ الْمَوْصُوفِ، وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ ۞ فَمَنْ وَصَفَ اللهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ، وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ ۞ وَمَنْ ثَنَّاهُ فَقَدْ جَزَّأَهُ ۞ وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ ۞ وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ ۞ وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ ۞ وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ ۞ وَمَنْ قَالَ فِيمَ؟ فَقَدْ ضَمَّنَهُ ۞ وَمَنْ قَالَ عَلامَ؟ فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ».

اللغة

الأَوَّلُ: مفتتحُ العدد، ويكون له ثانٍ، ويجيء بمعنى الواحد، كقولك في صفات الله: إنَّه الأوَّل. و(الإخلاصُ): ما تجرَّد عن كلِّ الشوائب المضادَّة، والنفيُ: سلبُ شيءٍ عن شيء، بمعنى نفي المحمول عن الموضوع، واللام في قوله: (لشهادة) للتعليل، و(قَرَنَهُ): جَمَعَهُ[1].

الشرح

يريد(عليه السلام) من قوله: «أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ» عدمَ قبول الدين من الإنسان

(١) في الأصل كلامٌ محذوف بعد قوله: (جَمَعَه). وتبقَّى من الكلام المحذوف لفظ (ضد الوجود) لا معنى له.

بدون معرفته بالله تعالى، وذلك لا إشكالَ فيه، فإنَّه إذا لم يعرِف اللهَ، فكيف يعبدُ ما لا يعرِف؟ وعبادةُ مثل هذا باطلةٌ، ولذلك كانت معرفته تعالى أوَّل الدين، فَوَجَبَ النظرُ في طريق معرفته سبحانه؛ إذ لا يخلو - جلَّ شأنُه - من أن يكون معلومًا بالبداهة، أو تحتاجُ معرفتُه للدليل، والأوَّل باطلٌ، وإلّا لتساوى أهلُ النظر في معرفته كما تساوَوا بأنَّ الشمس أضوءُ من النجوم، وأنَّ السيفَ أقطعُ من العصا، والثاني ما اخترناه، وهل أدلّ على حسن النظر من قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[1]. ووجهُ الدلالة في هذه الآية على توحيد الله تعالى أنَّ تعاقبَ الليل والنهار دليلُ حدوثهما، والحادثُ محتاجٌ إلى المحدِثِ الموجِد، وهو الله سبحانه، كما أنَّ انتظامهما دلَّ على علمه وقدرته، وحدوثَهما دلَّ على قِدَمِه؛ إذ لو كان مثلُهما حادثًا؛ لافتَقَرَ كما افتقرا إلى مُحدِث. فإمَّا أن يدور أو يتسلسل، وكلاهما ظاهرُ البطلان، فتعيَّن كونُ الصانع قديمًا.

والمراد بقوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ حصولُ معرفته أوَّلًا وبالذات؛ إذ مَن يتفكَّر فيهما يَعلَمُ بالبداهة أنَّ لهما صانعًا قادرًا، وقد قال النبيُّ (صلى الله عليه وآله وسلم): «أعْرَفكُم بِنَفْسِهِ أعْرَفكُم بِرَبِّهِ»[2]. وقال أميرُ

(١) سورة آل عمران/ الآيتان: ١٩٠ - ١٩١.

(٢) يُنظر: روضة الواعظين، الفتَّال النيسابوريّ: ٢٠، والجواهر السنيَّة، الحرّ العامليّ: ١١٦.

المؤمنين: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ»[1] ومثلُ ذلك قوله (عليه السلام): «**بِصُنعِ الله يُستَدَلُّ عَلَيهِ، وبِالعُقولِ تُثْبَتُ مَعرِفَتُهُ، وبِالفِكرِ تَثبُتُ حُجَّتُهُ، مَعْرُوفٌ بالدَّلالاتِ مَشْهُورٌ بالبياناتِ...**»[2]. فنخلص ممَّا ذكرناه لزومَ معرفةِ الله بالنظر لا بالتقليد الذي معناه اتّباع رأي الغير بلا حجَّة، فإنْ قلتَ: فكيف تقلِّدون المجتهدَ العادلَ في أمورِ دينِكم إذا كان التقليدُ باطلًا؟ فالجواب: إنَّ هذا التقليدَ غيرُ باطلٍ؛ لكونه أُخِذَ عن دليلٍ مطّردٍ على نحو الشكل الأوَّل، وتقريره: هذا ما أفتى به المفتي، وكلُّ ما أفتى به المفتي حكمُ الله، وبحذف الأوسَط يَنتُجُ هذا حكمُ الله، فهو مأخوذ عن حُجَّةٍ ودليلٍ؛ لأنَّا أُمرنا بتقليد المجتهد العادل المطيعِ لمولاه المخالفِ لهواه.

وقوله (عليه السلام): «**وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ**» أي أنَّ التصديقَ به وجهُ كمالٍ لمعرفته، فكأنَّ معرفةَ الله وحدها لا تأتي على الوجه الأكمَل بدون التصديق به سبحانه؛ إذ يجوزُ أن تعرفه ولا تصدِّق به، فهذه المعرفةُ ناقصةٌ، لا كما ذهب إليه ابنُ أبي الحديد في شرحِها؛ إذ قال[3]: «وأمَّا قولُهُ: «**وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيْقُ بِهِ**»، فلأنَّ معرفته قد تكون ناقصة، وقد تكون غير ناقصة، فالمعرفة الناقصة هي المعرفة بأنَّ للعالَم صانعًا غيرَ العالَم؛ وذلك باعتبار أنَّ الممكن لا بُدَّ له من مؤثِّر، فمَنْ عَلِمَ هذا فقط عَلِمَ الله تعالى، ولكن علمًا ناقصًا، وأمَّا المعرفةُ التي ليست ناقصة، فأنْ تَعلمَ أنَّ ذلك المؤثِّرَ خارجٌ عن سلسلة الممكنات،

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٢٠/ ٢٩٢.

(٢) يُنظر: التوحيد، الشيخ الصدوق: ٣٥، وروضة الواعظين: ٢٠،

(٣) شرح نهج البلاغة: ١/ ٧٣.

والخارجُ عن كلِّ الممكنات ليس بممكن، وما ليس بممكن، فهو واجب الوجود، فمَنْ عَلِمَ أنَّ للعالَم مؤثِّرًا واجبَ الوجود، فقد عَرَفَه عرفانًا أكمل مِن عرفان أنَّ للعالَم مؤثِّرًا فقط، وهذا الأمرُ الزائد هو المُكنَّى عنه بالتصديق به ...»، فإنَّه قال شططًا؛ لأنَّ مَنْ لم يعرف واجبَ الوجود بأنَّه خارجٌ عن سلسلة الممكنات فما حصلت له المعرفةُ، بل حصل له البعضُ منها، وبعضُ الشيء غيرُه. والعَجَب أن فسَّرَ (الغير الممكن) بالواجب، مع جواز أن يكون ممتنعًا، فإنَّ الممتنعَ ليس بممكن، كما أنَّ الواجبَ ليس بممكن.

ولَقائل أنْ يقولَ: إنَّ المعرفةَ الناقصةَ هي أن تعرفَ أنَّ للعالَم مؤثِّرًا خارجًا عن سلسلة الممكنات، وهو واجبُ الوجود. وأمَّا المعرفة الغير ناقصة هي أن تعرفه كذلك، مع إضافة صفاته الإيجابيَّة والسلبيَّة إليه، فينتقضُ بذلك ما ذهب إليه ابنُ أبي الحديد، ونستريحُ من تكلُّفه بدعوى أنَّ التصديقَ به كنايةٌ عن أمرٍ زائد على معرفة الله، كما أنَّه يجوز أن تفسَّر المعرفةُ بمطلَق تصوُّر واجبِ الوجود. و(التصديقُ به): الجزم والاعتقاد، وهو أمرٌ زائدٌ على التصوّر، ومِن العجبِ أيضًا أنْ جَعَلَ الواجبَ خارجًا عن الممكن، مع أنَّ الواجبَ قِسمٌ من الممكن العام.

وقوله (عليه السلام): «**وَكَمَالُ اَلتَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ**..» أراد بيان نقص التصديق به بعدم التوحيد، فمَنْ عَلِمَ بوجود الله وجَزَم بوجوده وَحَّدَه؛ إذ ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا**﴾[1] أي السموات والأرض، فالتصديقُ بالله بدون

(١) سورة الأنبياء/ من الآية: ٢٢.

توحيده تصديقٌ ناقصٌ، تمامُه التوحيدُ، فبانتفاء التوحيد تُقتضى الشِّركة، فإمَّا يحصل فرقٌ ومائز أوْ لا، والثاني يُبيِّن عدم الشركة وكونه واحدًا، وعلى الأوَّل يلزم التركيب؛ لاشتمال الشركاء على ما به الافتراق وما به الاشتراك، وهذا يستلزم الحدوث؛ لاحتياجه إلى المركِّب (بكسر الكاف)، فمَنْ عَرفَ اللهَ بكونه واحدًا كانت معرفتُه أكمل مِمَّن عَرَفَه بدون توحيده، كمعرفة النصارى.

وقوله (عليه السلام): «**وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ اَلْإِخْلاَصُ لَهُ..**» المراد به: أنَّ مَنْ وحَّده ثُمَّ لم يُخلِص له في أعماله كان توحيدُهُ ناقصًا، فإذا أخلَصَ له تمَّ وكَمُلَ توحيدُه. أمَّا قولُ ابن أبي الحديد[1]: «إنَّ المرادَ بالإخلاص له ههنا نفيُ الجسميَّة والعَرَضِيَّة ولوازمهما عنه»، فغير صحيح؛ لأنَّ ذلك صفةُ كمالٍ للإخلاصِ، لا نفسُ الإخلاص، بدليل قوله (عليه السلام): «**وَكَمَالُ الإِخْلاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ**».

وقوله (عليه السلام): «**وَكَمَالُ الإِخْلاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ**» لشهادة كلِّ صفة أنَّها غيرُ الموصوف، وشهادة كلِّ موصوف أنَّه غير الصفة، فالمراد بـ(نفي الصفات) العَرَضِيَّة، أي: التي فسَّرها بقوله (عليه السلام): «إنَّها غيرُ الموصوف»؛ لأنَّ صفاته سبحانه عينُ ذاته، وإلّا لتعدَّدت القدماء، وذلك كَنَفِي الجسميَّة والعَرَضِيَّة ولوازمهما عنه تعالى.

وسُئِلَ[2] رجلٌ - كان قد تزوَّج بزوجتين - عن شريك الله تعالى، فقال

---

(١) يُنظر: شرح نهج البلاغة: ١/ ٧٤.

(٢) أشار المؤلف هنا بإشارةٍ تدلُّ على أنَّ ما سيذكره هنا غرضه الاستئناس بهذه الحكاية.

الرجلُ: ليس لله شريكٌ أبدًا، فقيل له: ما الدليل على قولك؟ قال: لأنِّي قد جرَّبتُ ذلك، حيث تزوَّجتُ بامرأتين، وكلّ واحدةٍ منهما تسرق من بيتي لأتَّهمَ صاحبتَها، حتَّى خرب بيتي وأصبحتُ فقيرًا مُعْدَمًا، فلو كان لله شريكٌ لخرب هذا العالم.

وقوله (عليه السلام): «**لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ الْمَوْصُوفِ** ..» أراد ملاحظة المرء للصفة، فتكون شاهدةً أنَّها غيرُ الموصوف؛ لأنَّ الموصوفَ هو الذاتُ التي تقومُ بها الصفةُ.

وقوله (عليه السلام): «**وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ**..» أراد ملاحظة المرء للموصوف لا للصفة، كما في بادئ قوله. **فَمَن لاحظَ الموصوفَ عَرفَ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ.**

وقوله (عليه السلام): «**فَمَنْ وَصَفَ الله سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ**...» أي: جَمَعَهُ إلى تلك الصفات.

وقوله (عليه السلام): «**وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ**...» أراد بالتثنية هو وصفته.

وقوله (عليه السلام): «**وَمَنْ ثَنَّاهُ فَقَدْ جَزَّأَهُ** ...» فقصد (عليه السلام) أنَّه لو كان الله غير صفته لكان مُمكِنًا؛ لافتقاره إليها، والافتقارُ من خواصِّ الممكن، وكلُّ ممكنٍ متحيِّز، وكلّ متحيِّز متجزِّئ، وهذا جهلٌ في معرفة الخالق؛ لاقتضائه وجودَ المركَّب، وهو المراد بقوله: «فَقَدْ جَزَّأَهُ»، والمركَّبُ حادثٌ، وهو يحتاجُ إلى المُحْدِث، كالكتابة تحتاجُ إلى الكاتب، فإن كان مُحْدِثُهُ قديمًا فهو الله، وإلّا لزمه التسلسل إلى ما لا نهاية له، وذلك باطلٌ بالضرورة، أو يدور،

وهو مثله في البطلان، ولذلك قال (عليه السلام): «**وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ**»؛ إذ لم يعرف حقيقة الله، وذلك كأهل السُّنَّة الذين ينسبون لله تعالى جسمًا، فإنَّهم جهلوا الله، وهذا الدليلُ ينفي الجسميَّةَ سواءٌ في الدنيا أو الآخرة، فكلُّ ما يذكرونَه في صحاح كتبهم دليلٌ على فسادِها وفسادِ عقيدتهم. ومِن هنا تعرف قيمة صحيح البخاريّ، وكثرة أكاذيبه وبطلانه، وقد مرَّ في أوَّل هذا الكتاب منه شيءٌ.

وقوله (عليه السلام): «**وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ...**» المرادُ بالجهل القولُ: إنَّه متجزِّئ، لا مطلق الجهل، فإنَّ المادّيَّ الذي يُنكِرُ وجودَهُ المقدَّس لا يُشير إليه، وكيف يشيرُ إلى معدومٍ في نظره القاصر، ولكن مَنْ يشيرُ إليه يقول بوجوده إلّا أنَّه لم يعرف اللهَ تعالى كما ينبغي أن يعرفَه، فيزعمُه جسمًا يروحُ ويجيء، ووجهُه كالقمر ليس دونه سحاب، ومَنْ كان كذلك تصحُّ الإشارة إليه، ومَنْ يُشار إليه لا يخلو مِن الجهة والحيِّز، وقد أفسدنا ذلك باقتضائه الافتقارَ والتركيبَ، وهذا معنى قوله (عليه السلام): «**وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ**».

وقوله (عليه السلام): «**وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ**» أي: مَنْ جَعَلَهُ محدودًا جَعَلَهُ جسمًا مركَّبًا مُحتاجًا إلى المركِّب، فتعدَّدَ الواجبُ.

وقوله (عليه السلام): «**وَمَنْ قَالَ فِيمَ فَقَدْ ضَمَّنَهُ**» أي: مَنْ تصوَّر أنَّه كائنٌ في شيء فقد جَعَلَه في ضمن ذلك الشيء، فلا يخلو مِنْ أن يكونَ إمَّا عَرَضًا فيحتاجُ إلى ما يَعرِضُ عليه، أو جسمًا فيحتاج إلى محلِّه، والمحتاج إلى محلِّه باطل، وقد أسلفنا القولَ فيه.

وأمّا قولُـــهُ (عليه السلام): «وَمَنْ قَالَ عَلاَمَ فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ» أي: إنَّ مَنْ تصوَّره على شيء فقد أخلى منه غيرَه، وحَصَرَهُ في جهة، والجهةُ من خصائص الأجسام، واللهُ مُنَزَّهٌ عن الجسميَّة كما بَيَّنَّاه آنفًا.

من الأصل

«كَائِنٌ لا عَنْ حَدَثٍ ۞ مَوْجُودٌ لا عَنْ عَدَمٍ ۞ مَعَ كُلِّ شَيْءٍ لا بِمُقَارَنَةٍ ۞ وَغَيْرُ كُلِّ شَيْءٍ لا بِمُزَايَلَةٍ ۞ فَاعِلٌ لا بِمَعْنَى الْحَرَكَاتِ وَالآلَةِ ۞ بَصِيرٌ إِذْ لا مَنْظُورَ إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ ۞ مُتَوَحِّدٌ إِذْ لا سَكَنَ يَسْتَأْنِسُ بِهِ وَلا يَسْتَوْحِشُ لِفَقْدِهِ ۞ أَنْشَأَ الْخَلْقَ إِنْشَاءً ۞ وَ ابْتَدَأَهُ ابْتِدَاءً ۞ بِلاَ رَوِيَّةٍ أَجَالَهَا ۞ وَلا تَجْرِبَةٍ اسْتَفَادَهَا ۞ وَلا حَرَكَةٍ أَحْدَثَهَا ۞ وَلا هَمَامَةِ نَفْسٍ اضْطَرَبَ فِيهَا ۞ أَحَالَ الْأَشْيَاءَ لِأَوْقَاتِهَا ۞ وَلَأَمَ بَيْنَ مُخْتَلِفَاتِهَا ۞ وَغَرَّزَ غَرَائِزَهَا ۞ وَأَلْزَمَهَا أَشْبَاحَهَا ۞ عَالِمًا بِهَا قَبْلَ ابْتِدَائِهَا مُحِيطًا بِحُدُودِهَا وَانْتِهَائِهَا ۞ عَارِفًا بِقَرَائِنِهَا وَأَحْنَائِهَا».

اللغة

الحَدَث: التجدّد، وقد يُطلق على ما ينقض الوضوءَ، والمرادُ به هنا ما سُبِقَ بالعدم، والمزايلة: ضد المقارنة، أعني المفارقة، والسَّكَن – بالتحريك –: كلُّ ما يُسكَنُ إليه من مالٍ أو وَلَدٍ ونحوهما. والرويَّةُ: الفِكْر، والهَمامَةُ: التردُّد في الأمر، ولَأَمَ بمعنى وافقَ، والغريزةُ: الطبيعةُ، والأشباح: جمع شَبَح – بالتحريك – وهو الشخص، وجمعُه أشخاص، والأحناء: الجوانب، وهي تُرادِفُ الأنحاء وزنًا ومعنى.

الشرح

قال (عليه السلام): «**كَائِنٌ لا عَنْ حَدَثٍ**» أي: لم يكن وجودُه عن تجدّدٍ وحدوث. وقوله (عليه السلام): «**مَوْجُودٌ لا عَنْ عَدَمٍ**» أي: إنَّه لم يكن بعد عَدَمٍ سابقٍ عليه، ولربَّما أرادَ بالأولى نَفيَ كونه حادثًا في زمانٍ ما، وبالثانية نَفيَ كونه حادثًا في ذاته، ومتى كان كذلك لم يكن مسبوقَ الوجودِ بالعدم.

وقوله (عليه السلام): «**مَعَ كُلِّ شَيْءٍ لا بِمُقَارَنَةٍ**» أي: إنَّه مع الأشياء، ولكن لم يكن مثلَها، ولا يُقارَن بها، وليس كما ذهبَ إليه ابنُ أبي الحديد[1] في تفسيرها، بأنَّ معناها أنَّه تعالى يعلم الجزئيَّات والكلّيَّات؛ إذ اللفظ لم يحتَمِل هذا التفسيرَ الغريب، ولم يمرَّ ذِكْرُ الجزئيَّات والكلّيَّات، ولا ما يدلُّ عليهما، وأمَّا استشهادُهُ على هذا بقوله تعالى: ﴿**مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ**﴾[2]، فلا ينطبقُ على ما ذَهَبَ إليه؛ لوجود القرينة وهي لفظ (نجوى).

وقوله (عليه السلام): «**وَغَيْرُ كُلِّ شَيْءٍ لا بِمُزَايَلَةٍ**» أي: إنَّه لا يُبايِنُ غيرَه في زمانٍ أو مكان؛ لأنَّ مُبَايَنَتَهُ لِغيرِه بهذا المعنى يلزم تشخيصَه، وهذا نظيرُ قوله (عليه السلام)[3] في غير هذا الموضع في أنَّه تعالى داخلٌ في الأشياء لا كدخول شيء في شيء، خارج عن الأشياء لا كخروج شيء عن شيء.

وقوله (عليه السلام): «**فَاعِلٌ لا بِمَعْنَى الْحَرَكَاتِ وَالآلَةِ..**» أنَّه أوجَدَ الكائنات

---

(١) يُنظر: شرح نهج البلاغة: ١/ ٧٩.

(٢) سورة المجادلة/ من الآية: ٧.

(٣) يُنظر: هذا القول في الكافي، للكليني: ١/ ٨٦، والأمالي، للشيخ الصدوق: ٤٢٣.

بعد عدمها بمجرَّد تعلُّق مشيئته في إيجادها؛ إذ الحركة والسكون حادثان، وما لا ينفكُّ عن الحادِثِ حادِثٌ، فلو كان فاعلًا بهذا المعنى، لكان حادثًا مفتقرًا إلى الموجِدِ.

وقوله (عليه السلام): «**بَصِيرٌ إِذْ لا مَنْظُورَ إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ..**»، فيحتملُ أنَّه أرادَ قِدَمَه، فإنَّ خَلْقَه متأخرُ الوجود، أعني كونه حادثًا، فقبل وجوده لا منظورَ إليه منهم؛ لأنَّهم حينئذ عدمٌ، والعَدَمُ لا يصحُّ أن يُنْظَر إليه، ويُحتملُ أنَّه أراد نفيَ الرؤيةِ البصريَّة.

وقوله (عليه السلام): «**مُتَوَحِّدٌ إِذْ لاَ سَكَنَ يَسْتَأْنِسُ بِهِ وَلاَ يَسْتَوْحِشُ لِفَقْدِهِ..**»، فإنَّه أراد أنَّه تعالى متوحِّدٌ بلا سَكَنٍ انزوى عنه، كما يُعْرَفُ مِن العُرْف. وقوله (عليه السلام): «**أَنْشَأَ الْخَلْقَ إِنْشَاءً**» أي: أبدَعَهم إبداعًا، وأوجَدَهم إيجادًا.

وقوله (عليه السلام): «**وَابْتَدَأَهُ ابْتِدَاءً**» أي: إنَّه أوجَدَه بعد عَدَمِ وجودِه، كقولك: ابتدأتُ بكذا، وهذا كناية عن حدوثه.

وقوله (عليه السلام): «**بِلا رَوِيَّةٍ أَجَالَهَا**» أي: إنَّ إيجادَه لهذا الخَلْق المتقَنِ كان بلا إجالَة فِكرٍ، كَمَن يُريدُ اختراعَ شيءٍ، فإنَّه يُجيلُ فكرَه قبل اختراعه. أمَّا الله، فغيرُ ذلك، فإنَّه كما قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾[1]. وقد يُفهَمُ من هذه الآية الدلالة على قدرة الله تعالى أيضًا.

وقوله (عليه السلام): «**وَلا تَجْرِبَةٍ اِسْتَفَادَهَا**» أي: إنَّه أوجد الخلق بدون تجربة يطبّق عليها إنشاء الخلق، يريد أنَّه أوجدَ الخلقَ اختراعاً لا أحد سبقه في مثل

(١) سورة يس/ الآية: ٨٢.

ذلك، فجرَّبه في إيجاد خلقه وحذا حذوه. وقوله (عليه السلام): «**وَلاَ حَرَكَةٍ أَحْدَثَهَا**» أي: إنشاءُ الخَلقِ بدون حركةٍ شأنُ مَن يريدُ إيجادَ شيءٍ؛ إذ تلزمه الحركة، فلو كان تعالى متحرِّكًا، لكان محلًّا للحوادث.

وقوله (عليه السلام): «**وَلا هَمَامَةِ نَفْسٍ اضْطَرَبَ فِيهَا**» أراد نَفيَ ما دونَ الحركة، كهمامة النفس، وهو تردُّدها في الأمر، بل إنَّه خَلَقَ الخلقَ بلا تردّد[1]؛ إذ لا يتردَّد في الفعل إلّا مَنْ يجهلُ عواقبَه، واللهُ عالمٌ بكلِّ شيءٍ، ومَن كان كذلك لا يتردَّد. وقوله (عليه السلام): «**أَحَالَ الْأَشْيَاءَ لِأَوْقَاتِهَا**» أي: أرجعَ الأشياء لأزمانِها.

وقوله (عليه السلام): «**وَلَأَمَ بَيْنَ مُخْتَلِفَاتِهَا**» أي وافق بين مختلفات الأشياء، كموافقة الروح للجسد، وكلٌّ منهما مِنْ مقولةِ غيرِ الثاني، أو كالماء للشجر، أو كَنُورِ الشمس والحرارة، أو كوجود السكَّر الأبيض الشديد الحلاوة في الفحم الحجريّ الأسود، وكأملاح بعض المعادن في المعادن، أو كالجراثيم الزلاليَّة في كافَّة الأجسام الحيَّة، وغير ذلك من ملاءمة الأشياء المختلِفة لبعضها، أو أنَّه أراد موافَقَتَها لبعضها في الوجود والعدم، وإن كانت مختلِفة في الماهيَّات.

وقوله (عليه السلام): «**وَغَرَّزَ غَرَائِزَهَا**» أي: ركَّبَ طبائِعَها فيها. وقوله (عليه السلام): «**وَأَلْزَمَهَا أَشْبَاحَهَا**» أي ألْزَمَ تلك الطبائعَ أشخاصَها.

وقوله (عليه السلام): «**عَالِمًا بِهَا قَبْلَ ابْتِدَائِهَا**» أي: إنَّه تعالى عالِمٌ بالأشياء قبل إيجادِها؛ لأنَّ الأشياءَ حادثةٌ، وعِلْمه قديمٌ، والقديمُ سابقٌ على الحادِث، فلذلك كان تعالى عالمًا بالأشياء قبل ابتدائها.

---

(١) في الأصل: (لا يترد)، والصواب ما أثبتناه.

وقوله (عليه السلام): «**مُحِيطًا بِحُدُودِهَا وَانْتِهَائِهَا**» أي: إنَّ عِلْمَهُ بَلَغَ منتهى كلِّ شيء، والمرادُ بحدودها أطرافها، والمراد بانتهائها انتهاء إيجادها، وغَلَطَ مَنْ جَعَلَ (الواوَ) مِنْ قوله (عليه السلام): (وانتهائها) عطفَ تفسير، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿**وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾[1].

وقوله (عليه السلام): «**عَارِفًا بِقَرَائِنِهَا وَأَحْنَائِهَا**» أراد أنَّه تعالى يعرفُ الأشياءَ ويعرفُ قرائنها[2]، أي علاماتها. وأمَّا الأحناء: كالأنحاء وزنًا ومعنًى، وقد مرَّ ذكرُها.

من الأصل

«ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ فَتْقَ الْأَجْوَاءِ ۞ وَشَقَّ الْأَرْجَاءِ وَسَكَائِكَ الْهَوَاءِ ۞ فَأَجْرَى فِيهَا مَاءً مُتَلاطِمًا تَيَّارُهُ مُتَرَاكِمًا زَخَّارُهُ ۞ حَمَلَهُ عَلَى مَتْنِ الرِّيحِ الْعَاصِفَةِ وَالزَّعْزَعِ الْقَاصِفَةِ ۞ فَأَمَرَهَا بِرَدِّهِ ۞ وَسَلَّطَهَا عَلَى شَدِّهِ ۞ وَقَرَنَهَا إِلَى حَدِّهِ ۞ الْهَوَاءُ مِنْ تَحْتِهَا فَتِيقٌ ۞ وَالْمَاءُ مِنْ فَوْقِهَا دَفِيقٌ ۞ ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ رِيحًا اعْتَقَمَ مَهَبَّهَا ۞ وَأَدَامَ مُرَبَّهَا، وَأَعْصَفَ مَجْرَاهَا، وَأَبْعَدَ مَنْشَأَهَا ۞ فَأَمَرَهَا بِتَصْفِيقِ الْمَاءِ الزَّخَّارِ، وَإِثَارَةِ مَوْجِ الْبِحَارِ ۞ فَمَخَضَتْهُ مَخْضَ السِّقَاءِ ۞ وَعَصَفَتْ بِهِ عَصْفَهَا بِالْفَضَاءِ ۞ تَرُدُّ أَوَّلَهُ إِلَى آخِرِهِ ۞ وَسَاجِيَهُ إِلَى مَائِرِهِ ۞ حَتَّى عَبَّ عُبَابُهُ ۞ وَرَمَى بِالزَّبَدِ رُكَامُهُ ۞ فَرَفَعَهُ فِي هَوَاءٍ مُنْفَتِقٍ ۞ وَجَوٍّ مُنْفَهِقٍ ۞ فَسَوَّى مِنْهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ جَعَلَ سُفْلاهُنَّ مَوْجًا مَكْفُوفًا ۞ وَعُلْيَاهُنَّ سَقْفًا مَحْفُوظًا ۞ وَسَمْكًا

---

(١) سورة الطلاق/ من الآية: ١٢.

(٢) في الأصل: (قرأنها)، والصواب ما أثبتناه.

مَرْفُوعًا ۞ بِغَيْرِ عَمَدٍ يَدْعَمُهَا ۞ وَلا دِسَارٍ يَنْظِمُهَا ۞ ثُمَّ زَيَّنَهَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ۞ وَضِيَاءِ الثَّوَاقِبِ ۞ وَأَجْرَى فِيهَا سِرَاجًا مُسْتَطِيرًا ۞ وَقَمَرًا مُنِيرًا ۞ فِي فَلَكٍ دَائِرٍ ۞ وَسَقْفٍ سَائِرٍ ۞ وَرَقِيمٍ مَائِرٍ».

اللغة

(الأجواء): جمع (جوّ)، وهو الفضاء الكائن بين السماء والأرض، و(الجوّ) أيضًا ما اتّسَعَ من الأودية، وجمعه (جِواء)، كسهم وسِهام، و(الأرجاء) كالأنحاء وزنًا معنى. و(السكائك) جمعٌ مفردُه (سكاكة)، وهي ما بين السماء والأرض، وقيل أعلى الفضاء. و(المتلاطم) الذي يلطم بعضُه بعضًا؛ لكثرته وتحرّكه. و(التيّار) موجُ البحر، و(المتراكم) المتراكب وزنًا ومعنى، و(الزَّخَّار) المرتفعُ الأمواج، و(المتن) الظهر، و(الريح) الهواء المسخَّر بين السماء والأرض، وجمعُه (أرواح) و(رياح)، و(العاصفة) صفة للريح معناها الشديدة، وجمع عاصفة (عواصف).

و(الزعزع) ترادِفُ العاصفة، و(القاصفة) التي لها[1] دويٌّ وصوتٌ عظيم، أو أنَّها الكاسِرة ما يعرض لها من الأشجار، و(الفتيق): المنبسط، و(الدفيق): المدفوق أي: المصبوب، وقيل الذي يسيل بقوَّة، و(اعْتَقَمَ مَهَبَّهَا): أي جَعلَه عقيمًا، و(مُرَبِّهَا): ملازمتها، و(الساجي): الراكد، و(المائر): المضطرب، و(العُباب) - بضم العين المهملة -: كثرة الماء، و(الركام): ما كان بعضُه فوقَ بعض، و(زَبَد البحر) بالتحريك: رغوتُهُ، و(الدِّسار) بكسر

(١) في الأصل: (له)، والصواب ما أثبتناه.

الدال المهمَلة: هي الشُّرَطُ التي تُشَدُّ بها السفينةُ، أي: الحبال، والدِّسارُ أيضًا قيل المسامير، و(الثواقب): جمع ثاقب، وهو الذي يثقبُ الظلامَ كناية عن إضاءته، و(المستطير): المنتشرُ الضوء، و(الفَلَك) بالتحريك: مُفرد الأفلاك، سُمِّيَ فَلَكًا؛ لاستدارته؛ إذ كلُّ مستديرٍ يُسمَّى فَلَكًا، و(الرُّقم): اللوح، و(المائر): غير الساكن.

الشرح

قوله :(عليه السلام) «**ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ فَتْقَ الْأَجْوَاءِ**» يريد (عليه السلام) أنَّه تعالى أبدعَ الأجواءَ، وهي جمع (جوّ)، وهو الفضاء المتَّسِع، ولم يُرِد أنَّ ذلك حاصل بعد خَلقِ جميع الأشياء، وإن كانت (ثُمَّ) - بضمِّ الثاء - للترتيب والتراخي، فإنَّهما واقعان حسب كلامه (عليه السلام) لا حسب الخَلقِ والإبداع، وجملة: (سبحانه) جملةٌ اعتراضيةٌ، وهو من نوع الاطناب؛ لفائدة التنزيه.

وقوله (عليه السلام): «**وَشَقَّ الْأَرْجَاءِ وَسَكَائِكَ الْهَوَاءِ**» فإنَّه أراد (عليه السلام) أنَّه تعالى خَلَقَ الجهاتِ الأربع وفرعياتها لهذه الكائنات، وخَلَقَ ظَرفَ الهواء وهو الفضاءُ القائمُ بين السماء والأرض، والهواءُ: جسمٌ غازيٌّ لطيف يُحيط بالكرة الأرضيَّة كلِّها بارتفاع (٣١٣) كيلو مترًا عن سطح البحر، وهو فاقدٌ للأوصافِ الثلاثةِ. أمَّا إذا كان كثيفًا، فيظهر لونه أزرَقًا كما نشاهدهُ في لون السماء، وإنَّ فيه غازَيْن (الأكسجين والأوزون)، والأوَّل هو السببُ المساعدُ على الاحتراق، بخلاف الحالة في الأوزون. أمَّا مقدارُ الأوكسجين في الهواء،

فَخُمْسٌ، وللأوزون الباقي، ومِن أرجوزتي (خُلاصة الأشياء)[1] في هذا الموضوع ما يُناسب المقام، منه:

كثيرةٌ منافعُ الهواء النقي ... بدونه لستَ ترى حيًّا بقي

وحاجةُ الحياةِ للهواءِ ... أشدُّ إلزامًا مِن الغذاءِ

يومين قد نكابدُ المجاعة ... ونَنْفَني دون الهواء في ساعة

فمِن الأوكسجين والأوزون يتكوَّن هذا الهواءُ الذي هو أهمُّ وسائل الحياة، وهما غازان متخالفان في الماهيَّة والمفعول، فهما مصداقُ قول أمير المؤمنين (عليه السلام) آنفًا: «**إنَّ اللهَ تعالى أحالَ الأشياءَ لأوقاتِها، ولاءَمَ بين مختلفاتها**»، وعلى هذا تُقاسُ جميعُ المركَّبات، بل كلُّ جسم يتركَّبُ من ذرَّات دقيقة، إلى أدقّ منها، إلى ما يُسمَّى بالجزء الذي لا يتجزأُ، فكلُّ ذرَّةٍ منه مخالِفةٌ لغيرِها بمشخّصاتها، أعني بخاصِّيَّات الأجسام العامَّة، وإنِ اتَّحدَتْ بماهيَّتها، ولكنَّ اللهَ تعالى لاءَمَ بين هذه المختلِفات في الجسم، فكوَّنَ مجموعُها جِسمًا واحدًا.

وقوله (عليه السلام): «**فَأَجْرَى فِيهَا مَاءً مُتَلاطِمًا تَيَّارُهُ**» أرادَ به (عليه السلام) أنَّ اللهَ تعالى بعد أنْ خَلَقَ الفضاءَ القائم بين السماء والأرض، وهو المعبَّرُ عنه في كلام أمير المؤمنين بـ(سكائك الهواء) أجرى فيها المطرَ الغزيرَ الذي يحملُه الهواءُ فيجري به، وغَلَطَ مَنْ فسَّره بالبحر الموجود تحت العرش[2]؛ إذ مَنْ يقولُ بوجود البحر يقول بركودِهِ. وأمَّا المطرُ، فهو الذي يصحُّ أن يوصَفَ بالجري

(١) كتاب للمؤلِّف - رحمه الله - لم يُطبع إلى الآن.

(٢) يُنظر: العرش، للذهبيّ: ١/ ٣١٨، وفتح الباري، لابن رجب: ٩/ ٢٣٥.

كما يعينُ على هذا التفسير ما يأتي من كلامه (عليه السلام)، كقوله: «**فَأَمَرَهَا بِرَدِّهِ**»، وهذه الفقرة تشيرُ إلى أنَّ المطرَ مِن الأرض، فكنَّى عن المطر بقوله: «**أَمَرَهَا بِرَدِّهِ**» أي: برجوعه مطرًا إلى الأرض التي ذَهَبَ منها بسبب تبخُّره، وقد نظمتُ في أرجوزتي (خُلاصة الأشياء) نحو هذا الموضوع، فقلتُ[1]:

الغيثُ في بحثِ المياهِ سَلَفا ... وهو بخارٌ مثلما قد عُرِفا
قد قالَ فيه الأقدمونَ قولا ... بأنَّه مِن معجزاتِ المَوْلى
يُرسله للموتِ أو للعيشِ ... مِنْ ماءِ بحرٍ كان تحتَ العرشِ
أمستْ له الرياحُ كالغربالِ ... وأمرُهُ لها لدى الإنزالِ
والحاضرونَ قالوا غير هذي ... وزعموا مَنْ قال هذا هاذي[2]
وهو بخارٌ للفضاءِ قد صَعَدْ ... فمسَّه بردٌ هناك فَجَمَدْ
وذابَ لمَّا لامسَ الحرارة ... فتارةً وبلًا وطلًّا تارة

فلو كان المطرُ من ماء بحرٍ كائنٍ تحت العرش، لما صحَّ قوله (عليه السلام): «**أَمَرَهَا بِرَدِّهِ**»؛ إذ لا يُطْلَقُ هذا اللفظ إلّا على من كان في موضعٍ، فعاد إليه، كما يَعرفُ هذا مَنْ وَقَفَ على لغة العرب.

وقوله (عليه السلام): «**مُتَرَاكِمًا زَخَّارُهُ**» فكناية عن كثرته، وقوله (عليه السلام): «**حَمَلَهُ عَلَى مَتْنِ الرِّيحِ الْعَاصِفَةِ وَالزَّعْزَعِ الْقَاصِفَةِ ۞ فَأَمَرَهَا بِرَدِّهِ ۞ وَسَلَّطَهَا عَلَى شَدِّهِ ۞ وَقَرَنَهَا إِلَى حَدِّهِ**»، و(الزعزع القاصفة) عطفُ تفسيرٍ على قوله: (متن الريح العاصفة)، واشتبه الشيخ محمَّد عبده مفتي الديار المصريَّة، إذ فسَّرها

(١) من مخطوطات المؤلِّف التي لم تُطبع إلى الآن.

(٢) من الهَذَيان.

بتفسير ابن أبي الحديد[1]، إذ قال[2]: «(أَمَرَهَا بِرَدِّهِ) أي: منعه من الهبوط؛ لأنَّ الماءَ ثقيلٌ، وشأنُ الثقيل الهوي والسقوط»؛ إذ صريح كلام الأمير يخالف هذا التفسير الغريب، فإنَّه (عليه السلام) يُصرِّح أنَّ اللهَ أَمَرَ الرياحَ بِرَدِّ ذلك الماءَ، وردُّه إلى الأرض معناه الهبوط، فَمِنْ أينَ استنبطَ أنَّ المرادَ بقوله (عليه السلام) (أَمَرَها بردِّه) مَنْعَ الماءِ من الهبوط؟!

وقوله (عليه السلام): «**وَسَلَّطَهَا عَلَى شَدِّهِ**» أي: سَلَّطَ الرِّيحَ على جري المطر ونزوله إلى الأرض، ويُقالُ: شدَّ فلانٌ إذا جرى.

وقوله (عليه السلام): «**وَقَرَنَهَا إِلَى حَدِّهِ**» أي: جَمَعَ الرِّيْحَ إلى حدِّ المطر، فلا يرتفعُ المطرُ أعلى منها، بل هو مقترنٌ بها.

وقوله (عليه السلام): «**الْهَوَاءُ مِنْ تَحْتِهَا فَتِيقٌ ۞ وَالْمَاءُ مِنْ فَوْقِهَا دَفِيقٌ**» المراد به أنَّ الهواءَ - وهو ذلك الجسم الرقيق - مفتوقٌ مِنْ تحت تلك الريح العاصفة والزعزع القاصفة، كما أنَّ الماءَ دفيقٌ مِن فوق هذا الهواء الرقيق، ينزلُ بتدفُّقٍ وشدَّةٍ، فالضميرُ في (تحتها) يرجع إلى الريح العاصفة والزعزع القاصفة.

وقوله (عليه السلام): «**ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ رِيحاً اعْتَقَمَ مَهَبَّهَا ۞ وَأَدَامَ مُرَبَّهَا، وَأَعْصَفَ مَجْرَاهَا، وَأَبْعَدَ مَنْشَأَهَا**» فإنَّه أراد أنَّه تعالى خَلَقَ ريحًا ثانيةً بعد تلك الريح العاصفة، ووصفها بالسكون وعقم الهبوب تارةً، وأوكل اللهُ إليها تمويج ماء البحار وإثارة أمواجه تارةً أخرى؛ ليرفعه ثانية للفضاء وينزله إلى الأرض

(١) يُنظر: تفسير ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة: ١/ ٨٨.

(٢) يُنظر: هامش نهج البلاغة (شرح الشيخ محمَّد عبده): ٢٤.

مطرًا يُحيي به البلادَ، ويجعل منه كلَّ شيءٍ حيًّا، وعندما أوكَلَ اللهُ إليها ذلك مخَّضَته موجُ البحار، أي: هزَّته كما يُهزُّ اللبنُ في الممخضة والسقاء هزًّا عنيفًا، كأنَّها تعصف في الفضاء الذي لا مانع لها فيه من الأجسام.

وقوله (عليه السلام): «**تَرُدُّ أَوَّلَهُ إِلَى آخِرِهِ**» كناية عن شِدَّة العصف، وقوله (عليه السلام): «**وَسَاجِيَهُ إِلَى مَائِرِهِ**» أي: تردُّ راكِدَهُ إلى مضطرِبهِ، أي: كلَّما أخْلَدَ الماءُ إلى السكون في بعض المنعَطَفات ردَّتهُ الرِّيحُ إلى الماء المضطرب الذي لم يركد؛ بسبب تعرضه إليها.

وقوله (عليه السلام): «**حَتَّى عَبَّ عُبَابُهُ ۞ وَرَمَى بِالزَّبَدِ رُكَامُهُ**» أي إلى أن ارتَفَعَ أعلى ذلك الماءِ المضطرِبِ، وحَصَلَتْ رغوتُه بسبب تلاطمه واضطرابه الشديد.

وقوله (عليه السلام): «فَرَفَعَهُ فِي هَوَاءٍ مُنْفَتِقٍ ۞ وَجَوٍّ مُنْفَهِقٍ» أي: رَفَعَ اللهُ ماءَ البحرِ في الهواء إلى الفضاء الواسع البعيد.

وقوله (عليه السلام): «فَسَوَّى مِنْهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ» أي: خَلَقَ من ذلك الماء سبع سمواتٍ، والسَّماءُ: كلُّ عالٍ[1]، ولعلَّ المرادَ بها الكواكب السبعة السيَّارة، ويُقال لها سيَّارة لسيرها في أفلاكها، وإلى مثل هذا ذهب بعضُ الفلاسفة، فزَعَمَ أنَّ الماءَ أصلُ كلِّ الكائنات[2]، منهم تاليس أو تاليسين الأسكندريّ[3].

---

(١) في الأصل: (عالي)، والصواب ما أثبتناه.

(٢) يُنظر: الملل والنحل: ٢/ ١٢١.

(٣) المعلِّم الأوَّل أرسطاطاليس، أو تاليس، ويقال أرسطو طاليس بن نيقوماخس

وقوله (عليه السلام): «**جَعَلَ سُفْلاهُنَّ مَوْجًا مَكْفُوفاً**» أي: إنَّ أسفلَ تلك السماوات كان من الموج الراكد الذي لا يجري إلى محلٍّ ثانٍ كما تجري الأنهر.

وقوله (عليه السلام): «**وَعُلْيَاهُنَّ سَقْفًا مَحْفُوظًا**» أي إنَّه تعالى جَعَل أعلى تلك السماوات سقفًا محفوظًا من الشياطين، والسماء: هو الفضاء الذي نشاهده، وقيل: إنَّه ينتهي بجسمٍ شفافٍ، وتفسيرُ السماوات السبع بالكواكب السيَّارة تفسيرٌ بعيد عن الحقيقة، فإنَّه تعالى يقول في مُحْكَم كتابه المجيد: ﴿**وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ**﴾[1]، وقال عزَّ من قائل: ﴿**إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ . وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ**﴾[2]، وهذه الكواكب السبعة السيَّارة هي بعضُ تلك الكواكب التي زَيَّن اللهُ بها السماءَ الدنيا، وهنا إشكالٌ، تقريره: أنَّ ظاهرَ كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) ينافي القرآن، فقد ذهب أميرُ المؤمنين إلى أنَّ الكواكبَ في السماء العليا، والقرآن يصرِّح بأنَّ السماء الدنيا هي التي زيَّنها اللهُ بزينةِ الكواكب، فكيف الجمعُ بين كلام أمير المؤمنين والقرآن المجيد؟ والجواب: جوازُ أن تكون السماءُ العُليا التي وصفَها الأميرُ (عليه السلام) بأنَّ اللهَ زيَّنها بزينةِ الكواكب وضياءِ الثواقب مشارِكَةً للسماء الدنيا بهذه الزينة، فَلَمْ يكن تناقضٌ أو تنافٍ،

الهجراسي الفيثاغوريّ، فيلسوف الروم، أحد السبعة الذين كانوا يُدْعَوْنَ أساطينَ الحكمة، المتوفَّى سنة ثلاث وتسعين ومائتين وخمسة آلاف من الهبوط. يُنظر: الملل والنحل: ٢/ ١١٩، وسُلَّم الوصول إلى طبقات الفحول، لحاجي خليفة: ١/ ٢٨٠.

(١) سورة الملك/ من الآية: ٥.

(٢) سورة الصافات/ الآيتان: ٦ - ٧.

أو أنَّ زينةَ السماء الدنيا لا مِن حيثُ الواقع، بل بالنسبة للناظر، فإنَّا نرى زُحَلًا وهو في السماء السابعة، ونرى المشتري وهو في السماء السادسة، وهذا القولُ ينافي تفسيرَ السماوات السبعة بهذه الكواكب؛ لاقتضائه اتحاد الظرف والمظروف؛ إذ إنَّ هذه الكواكب موجودة في تلك السماوات، وإذا أخذنا بهذا التفسير يجب أن يؤوَّلَ كلامُ أمير المؤمنين في تزيين السماء العليا بأنَّ المرادَ منه في نفس الأمر، والمراد من القرآن بالنسبة للظاهر كما فُسِّرَ غروبُ الشمس في عينٍ حَمِئَةٍ[1] بأنَّ المراد في ذلك ما يبين للرائي، وإن كانت الحقيقة تخالِفُه.

وقوله (عليه السلام): «**وَسَمْكًا مَرْفُوعًا**» أي جعلها بناءً مرفوعًا بقدرته تعالى.

وقوله (عليه السلام): «**بِغَيْرِ عَمَدٍ يَدْعَمُهَا**» أي بغير عَمَدٍ يسندُها فيمنعُها من السقوط، تبيّنها للناس على قدرته تعالى، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿**بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا**﴾[2]، ثُمَّ نفى (عليه السلام) رَفْعَ السماء بدِسارٍ[3] ينظِمُها، وهو الحَبلُ، فتكونُ معلَّقةً في الفضاء لانتظامِها بدِسارٍ ونحوِه، بل جَعَلَ السببَ الوحيدَ تعلُّق قدرة الله في رفعها، وهو الأبلَغُ في وصفِ قدرتِه تعالى، ومن هنا ننفي كونَ الأرض على قرن ثور، والثور على سمكة، والسمكة في بحر؛

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ**﴾. [سورة الكهف/ من الآية: ٨٦].

(٢) سورة الرعد/ من الآية: ٢.

(٣) الدِّسارُ: واحد الدُسُرِ، وهي خيوطٌ تُشَدُّ بها أَلْواحُ السفينة، ويقال هي المَساميرُ. يُنظر: الصحاح، (دسر): ٢/ ٦٥٧.

لأن هذه خرافة لا أصلَ لها في الكتب الصحيحة[1]؛ إذ وجودُ الأرض بدون الثور الذي يحمِلُها أعظم دليلٍ على قدرة الله تعالى، كما أشارَ أمير المؤمنين إلى السماء بنحوِ ما مَرَّ.

وبقوله (عليه السلام): «ثُمَّ زَيَّنَهَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ۞ وَضِيَاءِ الثَّوَاقِبِ ۞ وَأَجْرَى فِيهَا سِرَاجًا مُسْتَطِيرًا ۞ وَقَمَرًا مُنِيرًا» (ثُمَّ) للترتيب، يريد أنَّه بعد أن خَلَقَ اللهُ السماءَ بلا عَمَدٍ يدعمُها، ولا دِسارٍ ينظِمُها، زيَّنها اللهُ تعالى بزينةِ الكواكب وضياءِ النجوم التي تثقبُ الظلامَ بنورِها، وأجرى فيها سراجًا مستطيرًا وهو الشمس، و(المستطيرُ) المنتشر الضوء، وأجرى فيها قمرًا منيرًا في فَلَك، وكلُّ فَلَكٍ مستدير، ويُريدُ بالرُّقُم المائر تشبيهَ الفَلَك باللَّوحِ المتحرِّك؛ وذلك أنَّ الفَلَكَ الأعظَمَ الذي يعبَّرُ عنه بالعرش في العُرفِ الشرعيّ محيطٌ بكلِّ الكواكب، وهو يتحرَّكُ في انتظام مِن المشرق إلى المغرب في كلِّ أربعةٍ وعشرين

---

(١) وردت مثل هذه الرواية - بطُرقٍ ضعيفة - عن ابنِ عبَّاس في تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ [سورة طه/ الآية: ٦]، ومضمونها: «الأَرْضُ عَلَى نُونٍ وَالنُّونُ عَلَى البَحْرِ وَأَنَّ طَرَفَي النُّونِ رَأْسُهُ وَذَنَبُهُ يَلْتَقِيَانِ تَحْتَ العَرْشِ، وَالبَحْرُ عَلَى صخرة خضراء خضرة السَّمَاء مِنْهَا، وَهِيَ الَّتِي قَالَ الله تَعَالَى فِيهَا: ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة لقمان/ من الآية: ٦]، وَالصَّخْرَةُ عَلَى قَرْنِ ثَوْرٍ، والثورُ على الثرى، ولا يَعْلَمُ مَا تَحْتَ الثَّرَى إِلَّا الله تَعَالَى». يُنظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن (تفسير الثعلبيّ): ٦/ ٢٣٨، والهداية إلى بلوغ النهاية، مكّيّ بن أبي طالب القيسيّ: ٧/ ٤٦١٢، والجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبيّ): ١١/ ١٦٩.

ساعة، وهو الذي كنَّى عنه بالسقف السائر.

وقوله: «وَرَقِيْمٍ مَائِرٍ» عطفُ تفسير، ومَنْ تفكَّرَ في هذه الكواكب عَرفَ عظيمَ قدرة الله تعالى، كما قُلتُ من الكامل:

إنَّ السماءَ صحيفةٌ كُتِبَتْ لنا ... وبها الكواكبُ في المساء سطورُ

فقرأتُها وإذا بها مكتوبةٌ ... لذوي الحِجى: أنَّ الإله قديرُ

بل كما قال الشاعر من المتقارب[1]:

وَفِي كُلِّ شَيءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أنَّهُ وَاحِدُ

خلقها الله زينةً للسماء ودليلًا للحائر، ولتعلموا عدد السنين والحساب، ومنافع لا تحصى، كلّها تشهد بقدرة هذا المبدع جَلَّ وعلا.

من الأصل

«ثُمَّ فَتَقَ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ العُلاَ ۞ فَمَلَأَهُنَّ أَطْوَارًا مِنْ مَلاَئِكَتِهِ مِنْهُمْ سُجُودٌ لا يَرْكَعُونَ ۞ وَرُكُوعٌ لا يَنْتَصِبُونَ ۞ وَصَافُّونَ لا يَتَزَايَلُونَ ۞ وَمُسَبِّحُونَ لا يَسْأَمُونَ ۞ لا يَغْشَاهُمْ نَوْمُ الْعُيُونِ ۞ وَلا سَهْوُ العُقُولِ ۞ وَلا فَتْرَةُ الأَبْدَانِ ۞ وَلا غَفْلَةُ النِّسْيَانِ ۞ وَمِنْهُمْ أُمَنَاءُ عَلَى وَحْيِهِ ۞ وَأَلْسِنَةٌ إِلَى رُسُلِهِ ۞ وَمُخْتَلِفُونَ بِقَضَائِهِ وَأَمْرِهِ ۞ وَمِنْهُمُ الحَفَظَةُ لِعِبَادِهِ ۞ وَالسَّدَنَةُ لِأَبْوَابِ جِنَانِهِ ۞ وَمِنْهُمُ الثَّابِتَةُ فِي الأَرَضِينَ السُّفْلَى أَقْدَامُهُمْ ۞ وَالمَارِقَةُ مِنَ السَّمَاءِ العُلْيَا أَعْنَاقُهُمْ ۞ وَالخَارِجَةُ مِنَ الأَقْطَارِ أَرْكَانُهُمْ ۞ وَالمُنَاسِبَةُ لِقَوَائِمِ العَرْشِ أَكْتَافُهُمْ ۞ نَاكِسَةٌ

---

(١) هو أبو العتاهية، يُنظر: ديوانه: ١٢٢. والروايةُ فيه: (الواحدُ) بدلاً من (واحد).

دُونَـهُ أَبْصَارُهُـمْ ۞ مُتَلَفِّعُـونَ تَحْتَـهُ بِأَجْنِحَتِهِـمْ ۞ مَضْرُوبَـةٌ بَيْنَهُـمْ وَبَـيْنَ مَـنْ دُونَهُـمْ حُجُـبُ العِـزَّةِ وَأَسْـتَارُ القُـدْرَةِ ۞ لا يَتَوَهَّمُـونَ رَبَّهُـمْ بِالتَّصْوِيـرِ ۞ وَلا يُجْـرُونَ عَلَيْـهِ صِفَـاتِ المَصْنُوعِـينَ ۞ وَ لا يَحُدُّونَـهُ بِالْأَمَاكِـنِ ۞ وَلا يُشِـيرُونَ إِلَيْـهِ بِالنَّظَائِـرِ».

اللغة

(الأطـوار) الأصنـاف، و(يسـأمون) يملُّـون، و(يغشـاهم) يلحقهـم، و(السَّـهو) زوالُ الـشيء عـن الذاكـرة فقـط، والنسـيان زوالـه عـن الذاكـرة والحافظـة[1]، و(السَّـدنة) جمـع سـادن، وهـو الخـادم، و(المتلفّـع) الملتحـف، و(النظائـر) الأشـباه والأمثـال.

الشرح

قولـه (عليه السلام): «أَطْـوَارًا مِـنْ مَلائِكَتِـهِ ..» الملائكـةُ: أجسـام نورانيَّـة تظهـر بكلِّ هيئة، وتتشكَّل بكلِّ صورة إلّا الكلب والخنزير، مسكنُهم في السماوات، ومنهـم رُسُـلُ الله إلى الأنبيـاء، لا يعصـون اللهَ مـا أمرَهـم، وهـم بأمـره يعملـون، وقـد جعلهـم أميرُ المؤمنـين في كلامـه هـذا عـلى أربعـة أقسـام[2]:

أوَّلهـم: المكلفـون بالعبـادة، وقـول ابـن أبي الحديـد[3]: إنَّ التكليـفَ مبنـيٌّ

---

(١) جـاء في كتـاب (الفـروق اللغويَّـة)، لأبي هـلال العسـكريّ، في الفـرق بـين النسـيان والسَّـهو: «أَن الْإِنْسَـان إِنَّـمَا ينسـى مَـا كَانَ ذَاكِـرًا لَـهُ والسَّـهو يكـون عَـن ذكـر وَعَـن غـير ذكـر؛ لِأَنَّـهُ خَفَـاءُ الْمَعْنـى بِـمَا يمْتَنـع بِـهِ إِدْرَاكـه». ينظـر: ص ٩٧.

(٢) تارةً يعبِّرُ عنها (أقسام)، وأخرى (أنواع).

(٣) يُنظر: شرح نهج البلاغة: ١/ ٩٢.

على الشهوة خطأٌ ظاهر، ومُنافٍ لتصريح القرآن، لقوله تعالى: ﴿**وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**﴾[1]، فهم إذن مأمورون مثلنا، وكذلك ينافي قولَه تعالى: ﴿**فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾[2]، والأمرُ للوجوب على الأصحِّ، وهذا القِسْمُ على أقسام أيضًا، منهم: سجودٌ لا يركعون، ومنهم ركوعٌ لا ينتَصِبون، ومنهم الصافّون أقدامَهم عند أداء صلاتهم للخالِق، لا يتزايلون ويفترقون، ومنهم المسبِّحون لله بلا سَأمٍ ومَلَل.

وأمَّا النوعُ الثاني، فهم أمناءُ اللهِ على ما يوحيهِ لرُسُلِه مِن أوامرَ ونواهي، فَلَمْ يخونوا بعضَ ما اؤتُمِنوا عليه.

والقسم الثالث: الحفظة الذين قال فيهم تعالى: ﴿**إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ**﴾[3] أي: مِن الملائكة يحفظها من النوازل والمكاره حتَّى يحين أجلُ ذلك، فيخلّون بينها وبين النوازل فتقع. ومنهم حَفَظَةُ الجنان الذين عبَّر عنهم (عليهم السلام) بالسَّدَنة.

والقسم الرابع: الذين كُلِّفوا بحَمْلِ العرش فوقَ السماوات السبع، واللهُ لا يجوزُ أن يوصَفَ بالكون عليه كما ذَهَب إليه أهلُ السُّنَّة؛ لأنَّه يستَلزِمُ التجسيمَ المحال، وقد بيَّنَّا بطلانَه؛ لأنَّ الجسم ما احتوى على الأبعاد الثلاثة

---

(١) سورة الأنبياء/ من الآية: ٢٧.

(٢) سورة الحجر/ من الآية: ٢٩. وسورة ص/ من الآية: ٧٢.

(٣) سورة الطارق/ الآية: ٤.

كما يعرِّفُهُ المتكلِّمون[1]، ومتى كان كذلك انقَسَم إليها، وكلُّ مُنقَسِمٍ غيرُ واجِبٍ؛ لأنَّه مركَّبٌ حادِثٌ؛ لافتقاره إلى ما تركَّبَ منه، فالواجبُ غيرُ جِسمٍ، ثُمَّ نقولُ: إنَّه إذا كان جالسًا على العرش بالمعنى اللغويّ يلزَمُ سِبْقَ العرشِ عليه تعالى، بل يلزمُ افتقارَه إليه، والافتقارُ مِن صفاتِ الممكنِ، ولا يصحُّ أن يكونَ عَرَضًا أو جوهرًا، فالعَرَضُ والجوهرُ ما صحَّتِ الإشارةُ الحسِّيَّةُ إليه، وما يُشار إليه إشارة حِسِّيَّة يَفْتَقِرُ إلى الجهة التي يُشار إليه بها، وقد قُلنا: إنَّ الافتقارَ من صفاتِ الممكنِ لا الواجب، ثُمَّ إنَّ العَرَضَ مُفتقِرٌ لِما يقومُ به، وقد عَلِمتَ امتناعَ الافتقارِ على واجبِ الوجود؛ لأنَّه وَصَفَ نفسَه المقدَّسةَ بالغنيّ، ولاستلزام سِبقِ ما يَفْتَقِرُ إليه عليه، فثَبَتَ أنَّ اللهَ غيرُ مُفْتَقِرٍ، ومن كان كذلك كان واجبَ الوجودِ، فاللهُ واجبُ الوجود.

وقد ذهبت أهلُ السُّنَّةِ[2] إلى إمكانِ رؤيتِهِ جزمًا في الآخرة والدنيا، إلاّ أنَّهم خَصَّصوا رؤيتَه في الدنيا للنبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) فقط. وأمَّا في الأحلام، فقد أكثروا من دعوى رؤيته، وإذا امتنعت شرائطُ الرؤية في الدنيا عليه تعالى كان ذلك حاصلًا أيضًا في الآخرة؛ لأنَّ اللهَ لا يتغيَّرُ؛ إذ كلُّ متغيِّرٍ حادثٌ مُحتاجٌ إلى مَنْ يُحدِثُه، ولوجوبِ حصولِ ما يميِّزُ ذاتَه عن غيرها عند رؤيته، والمميِّزُ هذا

---

(١) يُنظر: الملل والنحل: ٢/ ١٣٦، وشرح المقاصد في علم الكلام، للتفتازانيّ: ١/ ٣١٨.

(٢) نقل عضد الدين الإيجيّ عن الآمِدِيّ قوله: «اجْتمعت الْأَئِمَّة من أَصْحَابنَا على أَن رُؤْيَته تَعَالَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة جَائِزَة عقلا. وَاخْتلفُوا فِي جَوَازهَا سمعًا فِي الدُّنْيَا فأثبته بَعضهم ونفاه آخَرُونَ. وَهل يجوز أَن يرى فِي الْمَنَام فَقيل لَا، وَقيل نعم». يُنظر: المواقف: ٣/ ١٧٢.

زائدٌ عن الذاتِ، فلَزِمَ بالقول به القولُ بالتركيب ممَّا به الاشتراك، وممَّا به الامتياز، وكلُّ مركَّبٍ حادثٌ؛ لاحتياجه للمركِّب كما مرَّ، وهو محالٌ عليه، كقوله تعالى: ﴿**لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾[1]، فأخْرَجَهُ مخرَجَ التمدُّح، وهذا يفيدُ عموم السلب؛ منعًا لِمَن يقولُ: إنَّ هذا السَّلبَ سلبُ العموم لا عموم السلب، ويُعضِّدُهُ قولُه تعالى لموسى كليم الله: ﴿**لَنْ تَرَانِي**﴾[2]، ويمنعُ تجويزُها وقوعَ العذاب على بني إسرائيل عند سؤالهم الرؤية، ولو كانت أمرًا مُمكِنًا في ذاته، لما استحقّوا العذابَ على أمرٍ جائز.

وأمَّا ما يَروُونَهُ عن النبيِّ (صلى الله عليه وآله وسلم) أنَّه قال: «**سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَا تُضَامُونَ**»[3]. فأوَّلاً نناقشهم بصحَّة الرواية، وعلى فرض صحَّتها، فمعنى الرؤيةِ المشاهدةُ، سواءٌ كانت المشاهدةُ بالبصر، كقولك: رأيتُ زيدًا، أو بالبصيرة وهي العلم، كقول الشاعر[4]: [من الوافر]

---

(١) سورة الأنعام/ الآية: ١٠٣.

(٢) سورة الأعراف/ من الآية: ١٤٢.

(٣) ورد هذا الحديث بروايات مختلفة في صحيح البخاري: ١/ ١١٥، ١١٩، ٦/ ١٣٩، ٩/ ١٢٧، وصحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج النيسابوري: ١/ ٤٣٩، وسنن الترمذي، لمحمد بن عيسى الترمذي: ٤/ ٦٨٨.

(٤) البيت لِخداش بن زهير العامريّ، يُنظر: شعره: ٤١. والروايةُ فيه: (أكثرَ) كلِّ شيءٍ بدلًا من (أكبر). وهذا البيت من شواهد النَّحو العربيّ في باب الأفعال المتعدِّية؛ إذ جاءت «رأى» بمعنى «عَلِمَ» تنصب مفعولين، أوَّلهما كلمة «الله» وثانيهما كلمة «أكبر». يُنظر: المقتضَب، للمبرِّد: ٤/ ٩٧، وشرح التسهيل، لابن مالك: ٢/ ٨١،

رَأيْتُ اللهَ أكْبَرَ كُلِّ شَيْءٍ مُحَاوَلَةً وَأكْثَرَهُمْ جُنُوْدَا

ومن البديهيّ أنَّ الشاعرَ لم يَرَ اللهَ ببصرِه مع قرينة نصب المفعولين؛ لأنَّ (رأى) البصريَّة تتعدَّى لمفعولٍ واحدٍ[1]، وليست الرؤية كما فسرَّها البعضُ بأنَّها لفظةٌ مشتركَةٌ بالاشتراك اللفظيِّ بين المشاهَدَةِ بالبصر، والمشاهَدَةِ بالبصيرة، فليس ثمَّة معنًى آخرَ غير المشاهدة، ولم يعدِّد هذا القولُ معنى الرؤيةِ، ولكنَّه عدَّدَ الواسطةَ للرؤية، وهي تارةً البصر، وتارةً البصيرة، ولمَّا امتنعتْ رؤيتُهُ بالبصر؛ للدلالةِ المارَّة وَجَبَ حملُها على العِلمِ، كقول الشاعر[2]: [من الوافر]

رَأيْتُ اللهَ إذْ سَمَّى نِزَارًا وَأَسْكَنَهُمْ بِمَكَّةَ قَاطِنِيْنَا

وقد وَرَدَ في القرآن الكريم قولُهُ تعالى مخاطِبًا محمَّدًا (صلى الله عليه وآله وسلم): ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾[3] مع أنَّه قد وُلِدَ في ذلك العام، فأراد تعالى: ألَمْ تَعلَم كيفَ فَعَلَ ربُّك بأصحاب الفيل حين جاؤوا لهدمِ الكعبةِ

وشرح الأشمونيّ، لعليّ بن محَّمد: ١/ ٣٤٩.

(١) يُنظر: المقتضَب: ٣/ ٢٧٧، وشرح المفصَّل، لابن يعيش: ٤/ ٣٢٤، وشرح التصريح، لخالد الأزهريِّ: ١/ ٣٦٤.

(٢) هو الكميت بن زيد الأسديّ، يُنظر: ديوانُه: ٤٣٦. والروايةُ فيه:

وَجَدْتُ اللهَ إذ سمَّى نِزارًا وأنْزَلَهم بِمَكَّةَ قاطنينا

(٣) سورة الفيل/ الآية:١.

مع أبرهة بن الصباح الأشرَم[1]، أحدِ ملوك اليمن، ويعضُدُ هذا قولُ أمير المؤمنين (عليه السلام) في هذه الخطبة البليغة عند صفة الملائكة: إنَّهم «**لا يَتَوَهَّمُونَ رَبَّهُمْ بِالتَّصْوِيرِ ۞ وَلا يُجْرُونَ عَلَيْهِ صِفَاتِ المَخْلُوقِينَ كالجِسْمِيَّة والعَرَضِيَّة ۞ وَلا يَحُدُّونَهُ بِالأَمَاكِنِ**»؛ لأنَّه غيرُ جسمٍ، منزَّهٌ عن الحركات والسكون، فكلُّ ما جازَت عليه الحركةُ والسكونُ كان حادِثًا؛ لأنَّهما حادثان، وما لا ينفكُّ عنهما مثلُهما في الحدوث، وقلتُ في هذا المعنى من الرَّجَز:

لقد رَآكَ العقلُ يا ربَّ الورى ... لكنَّما عن بصري احتجبتا

إن قُلْتُ جسمٌ، كلُّ جِسْمٍ حادِثٌ ... أو جوهرٌ أو عَرَضٌ باينتا

أمَّا الصوابُ أن أُقِرَّ عاجزًا ... لم يَدْرِ كيفَ أنت إلّا أنتا

وقلتُ من بحر الكامل:

بك يا إلهي ظلَّ عقلي حائرًا ... دومًا وأنَّك حيرةُ الألبابِ

فبعثتُ عقلي نحوَ كُنْهِكَ مرَّةً ... فأتى وقدْ لاقاهُ ألفُ حِجابِ

فسألتُه عن كُنْهِ ذاتِك مُذ أتى ... فأجابني في لَهجَةِ المُرتابِ

لَمَّا ذهبتُ وجدتُه في قُبَّةٍ ... فَوَقَفْتُ أنظُرُه وراءَ البابِ

---

(١) أبرهة بن الصباح الأشرم أبو يكسوم، كان عاملاً للنجاشيِّ ملك الحبشة على اليمن، وهو صاحبُ يوم الفيل؛ إذ حَلَفَ لَيَسِيرَنَّ إِلَى الكَعْبَةِ حَتَّى يَهْدِمَهَا، وَلكنَّ اللهَ سبحانه وتعالى أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ من البحر طَيْرًا أَبابِيلَ كثيرةً متفرقةً تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُول... يُنظر: تفسير مقاتل: ٤/ ٨٤٧، والكشَّاف: ٤/ ٧٩٧، وشفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، لمحمَّد بن أحمد الفاسيّ: ١/ ٢٥٢.

ولي من مجزوء الكامل:

هيهات يُدرِكُكَ النَّظر ... إذ قد علوْتَ على الفِكَر
كالشَّمسِ يزهو نورُها ... واليوم يعجزُها النَّظَر
فالعقلُ غابَ لكشفِ كُنْهِـ ... ـك ما أتى حتَّى عَثَر
لم يَلْقَ كُنْهَكَ مُذْ مَضَى ... لكنَّه وَجَدَ الأثَر

ولي من مجزوء الرجز أيضًا:

يا جاهلًا تنبَّه ... فاللهُ لن يُشبَّه
مَنْ قالَ بالتَّجسيمِ ما ... أبانَ إلّا كَذِبَه
إذ كُنْهُهُ السرُّ الذي ... ألقى عليه حُجُبَه
قد سألَ الرؤيةَ مو ... سى وأتى بالتوبه
مَنْ نفسُه يجهلُها ... فكيف يدري ربَّه

ولي من هذا البحر أيضًا:

مَنْ قال أنت (بعل)[1] أو ... مَنْ قالَ عقلٌ أوَّلُ
أو قال أنت مادَّة ... منها الوجودُ يحصلُ
أو مَنْ دعاك (هُرمُزًا)[2] ... أو قالَ أنتَ (هُبَلُ)[3]
فكلُّهم لك مشيـ ... ـيرٌ وعليك اتَّكَلُوا
يا عِلَّةً بدونِها ... لم تكُ هذي العِلَلُ
يُدْرِكُكَ العقلُ ولكـ ... ـن لك ليس يَصِلُ
مالَكَ مِثْلٌ أبدًا ... حتَّى به أُمثِّلُ

---

(١) البَعْلُ: صَنَمٌ كان لقومِ إلياس. قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً﴾ [سورة الصافّات/ من الآية: ١٢٥]، وإلياس بُعِثَ إلى أهل بعلبك، وكان ملكُهم اسمه (أجَبْ) وامرأته (أزبيل)، وكان يستخلفها على مُلكه، وهي بنتُ مَلِكِ سبأ، وعمَّرت عُمُرًا طويلًا، وتزوَّجها سبعةُ من ملوك بني إسرائيل، وهي التي قتلتْ يحيى بن زكريَّا (عليه السلام) ثم رفع اللهُ تعالى إلياس رحمهما الله يُنظر: العين: ٢/ ١٥٠، وأعلام النبوة، أبو الحسن علي بن محمد البصري البغدادي، الشهير بالماوردي: ٦٦.

(٢) وهو اسمٌ أطلقَته جماعةٌ تدعى (البارسي) - أي الفُرس - على الله، وهذه الديانة لا تُجيز عبادةَ الأصنام أو احترام الأوثان مُطلقًا، ولا تقرُّ إلّا بإلهٍ واحدٍ أزليّ سرمديّ أبديّ، ليس له شريكٌ في الملك ومنه الأمر وإليه يرجع، ويسمُّون «الله»: «أورمزيد، أو -هرمز أو هرمس» والإله «إيزد»، ويعتقدون بخلود النفس، وبعالَمٍ آخر بعد الموت يكونُ فيه العقابُ والثوابُ، ولكن يعتقدون بأنَّ الله خَلَقَ مع الخَلْقِ قوَّتين عظيمتين: اسم أولاهما (يزدان) مصدر الخير، واسم الثانية (أهرمن) مصدر الشر. يُنظر: تاريخ الفكر الديني الجاهلي، محمد إبراهيم الفيومي: ٣٤٠.

(٣) هُبَل: اسْمُ صَنَم كَانَ فِي الْكَعْبَةِ لِقُرَيْشٍ. يُنظرُ لِسَانُ العَرَب، ابن منظور: ١١/ ٦٨٨.

ويجبُ تأويلُ كلِّ ما يُخالِفُ العقلَ ممَّا ظاهرُه يفيد الجسميَّة، كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ﴾[1]، وقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[2] و﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[3]، ونحو ذلك، فليس المرادُ من (يأتيهم) أن يأتيَ بنفسِه بمعنى المجيء المعروف، بل المرادُ أن يبعثَ نحوَهم الظُّلَلَ مِن الغَمام، كما تكتبُ لمن طَلَبَ منك كتابًا، وهو بعيدٌ عنك: لقد أتيتُكَ بما تريد، وأنت في الواقع لم تأتِه، وإنَّما بعثتَ إليه الكتابَ، كقول الشاعر من المتقارب[4]:

وإنِّي أتيتُك فيما تُحِبُّ ... على رَغْمِ ما بيننا مِن بعاد

ولو رُمْتَ روحي لجدتُ بها ... ولستُ بمانعٍ أهلَ الوداد

من الأصل

ومنها في صِفَةِ خَلْقِ آدم: «ثُمَّ جَمَعَ اللهُ سُبْحَانَهُ مِنْ حَزْنِ الأَرْضِ وَسَهْلِهَا ۞ وَعَذْبِهَا وَسَبَخِهَا ۞ تُرْبَةً سَنَّهَا بِالمَاءِ حَتَّى خَلَصَتْ ۞ وَلاَطَهَا بِالْبِلَّةِ حَتَّى لَزَبَتْ ۞ فَجَبَلَ مِنْهَا صُورَةً ذَاتَ أَحْنَاءٍ وَوُصُولٍ ۞ وَأَعْضَاءٍ وَفُصُولٍ ۞ أَجْمَدَهَا حَتَّى اسْتَمْسَكَتْ ۞ وَأَصْلَدَهَا حَتَّى صَلْصَلَتْ ۞ لِوَقْتٍ مَعْدُودٍ ۞ وَأَمَدٍ مَعْلُومٍ ۞ ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ فَمَثُلَتْ إِنْسَانًا ذَا أَذْهَانٍ يُجِيلُهَا ۞ وَفِكَرٍ

---

(١) سورة البقرة/ من الآية: ٢١٠.

(٢) سورة القيامة/ الآيتان: ٢٢ - ٢٣.

(٣) سورة الفتح/ من الآية: ١٠.

(٤) لم أعثر على قائله.

يَتَصَرَّفُ بِهَا ۞ وَجَوَارِحَ يَخْتَدِمُهَا ۞ وَأَدَوَاتٍ يُقَلِّبُهَا ۞ وَمَعْرِفَةٍ يَفْرُقُ بِهَا بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ وَالأَذْوَاقِ وَالمَشَامِّ وَالأَلْوَانِ وَالأَجْنَاسِ ۞ مَعْجُونًا بِطِينَةِ الأَلْوَانِ المُخْتَلِفَةِ وَالأَشْبَاهِ المُؤْتَلِفَةِ ۞ وَالأَضْدَادِ المُتَعَادِيَةِ ۞ وَالأَخْلاَطِ المُتَبَايِنَةِ ۞ مِنَ الحَرِّ وَالبَرْدِ ۞ وَالبِلَّةِ وَ الجُمُودِ ۞ وَالمَسَاءَةِ وَالسُّرُورِ ۞ وَاسْتَأْدَى اللهُ سُبْحَانَهُ المَلاَئِكَةَ وَدِيعَتَهُ لَدَيْهِمْ وَعَهْدَ وَصِيَّتِهِ إِلَيْهِمْ ۞ فِي الإِذْعَانِ بِالسُّجُودِ لَهُ وَالخُنُوعِ لِتَكْرِمَتِهِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: اُسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ اعْتَرَتْهُ الحَمِيَّةُ ۞ وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ الشِّقْوَةُ ۞ وَتَعَزَّزَ بِخِلْقَةِ النَّارِ وَاسْتَوْهَنَ خَلْقَ الصَّلْصَالِ ۞ فَأَعْطَاهُ اللهُ النَّظِرَةَ اسْتِحْقَاقًا لِلسَّخْطَةِ ۞ وَاسْتِتْمَامًا لِلْبَلِيَّةِ وَإِنْجَازًا لِلْعِدَةِ ۞ فَقَالَ: إِنَّكَ مِنَ المُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الوَقْتِ المَعْلُومِ».

اللغة

(الحَزَنْ) بالفتح والسكون: ما غَلُظَ مِن الأرض، و(السَّهْل): ضدُّه، وهو ما سَهُلَ منها، و(التساهل): التسامح في الأمر، و(العَذْب): الحلو، و(السَّبَخ) بالتحريك: ملوحةُ الأرضِ، وأرضٌ سبخةٌ أي: مالحةٌ، جمعها (سِبَاخ) بلا تشديد، على وزنِ (سِهَام)، و(سنَّ) بمعنى حسب وزنًا ومعنى، و(لاطَ) بمعنى مَزَجَ وخَلَطَ، و(اللازب): الممتَزِج، و(جَبَلَ): أي كوَّن وفَطَر، والاسم منه الجِبِلَّة بالكسر والتشديد، و(الأحْنَاء): جمعٌ مفردُه حنو، وهو الجانب، و(أصْلَدَ): بمعنى جمَّد بالتشديد، و(الصَّلصال): الطين اليابس، و(الأمَد): نهاية البلوغ، تقول: بَلَغَ أمَدَهُ أي: نالَ غايتَهُ، و(الروح) قيل: مُشتقَّةٌ من الريح، وهي قوامُ البَدَن ما دامت فيه، لا يعرفُ ماهيَّتها إلّا خالقها، قال

تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[1]، وهي غيرُ فانيةٍ بفناء الجسد، و(الأذْهانُ): مفردُها: ذِهْن، وهو الفَهْم، و(الأدواتُ): جمعٌ، مفردُه: أداة، وهي الآلة، و(اسْتَأدَى): طَلَبَ أداءَها.

الشرح

قوله (عليه السلام): «**ثُمَّ جَمَعَ اللهُ سُبْحَانَهُ مِنْ حَزْنِ الأَرْضِ وَسَهْلِهَا ۞ وَعَذْبِهَا وَسَبَخِهَا**» إشارة إلى اختلاف البشر في طباعه، واستعداده لقبول الخير والشر، والحُسنِ والقُبح، فمن كانت أفعالُهُ سَمِجةً غيرَ صالحة دلَّ على أنَّ طينتَه مجبولةٌ مِن سبخ الأرض، ومَنْ كانت أعمالُهُ صالحةً كانت طينتُهُ من عَذْبها، ومَنْ كانت فيه خشونةٌ دلَّ على أنَّ طينته تكوَّنتْ من أرضٍ صُلبةٍ، وهَلُمَّ جرًّا.

وقد أخْبَرَ - سلامُ الله عليه - أنَّ الطينةَ التي خَلَقَ اللهُ منها أبانا آدم (عليه السلام) سنّها اللهُ بالماء حتَّى صارت خالصةً، ومَن رواها (خَضِلَت) يريدُ حتَّى ابتلَّت - بتشديد اللام - مِن البَلَل، ومَزَجَها بالبِلَّة حتَّى تداخلت أجزاؤها بعضها في بعض، فخَلَقَ اللهُ منها صورةَ آدم ذاتَ جوانبَ وأطراف. والوصول: الأوصال والأجزاء التي يتكوَّن منها الجسمُ الإنسانيُّ الأوَّل، فجعلَ اللهُ تلك الصورةَ الطينيةَ جامدةً إلى زمانٍ معلوم بعد إنشائها، ثُمَّ خَلَقَ اللهُ فيها الروحَ، فقام إنسانًا له فَهْمٌ وبصيرةٌ، وبَصَرٌ وجوارحُ وأعضاءٌ يستخدمُها فيما يريدُه مِن قضاء لوازمه وحاجيَّاته كيفَ شاءَ، وأعطاه العقلَ يميزُ به بين الحقّ الباطل، وهو الذي أشارَ إليه الأميرُ (عليه السلام) بـ(المعرفة) أي: المعرفة التامَّة، فلا يُشاركُه

(١) سورة الإسراء/ من الآية: ٨٥.

الحيوانُ الأعجمُ مهما بَلَغَ من الذكاء، فإنَّه لا يميزُ بين الحقِّ والباطل، وإنَّما هذه من صفات الإنسان الخاصَّة التي بها يمتازُ عن غيره من الحيوانات التي تشاركه في الجنسيَّة، وتفارقُه في النوعيَّة، كما أعطاه صفاتٍ أخرى توجد عندَ غيره من الحيوان، كالأذواقِ والمشامِّ والألوانِ والأجناس.

ومَنْ تدبَّرَ في عجيب خَلْق الإنسان وما احتوى عليه من حِكَم، لاعتَقَدَ عظيمَ قُدرةِ مُبدعِهِ، وحكمتِه المتقنة، قال تعالى في سورة المؤمنين: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ..**﴾[1]، فأوَّلُ ما يكونُ الإنسانُ نطفةً مِن ماءٍ دافِقٍ يخرُج من بين صلبِ الرجل وعظام صدر المرأة، ويمكثُ في الرَّحم أربعينَ يومًا، ثُمَّ يصيرُ عَلَقةً إلى أربعينَ يومًا، فيصيرُ مضغةً إلى أربعينَ يومًا، فتصيرُ عِظامًا إلى أربعينَ يومًا، فتكتسي العظامُ لحمًا، وتكمُلُ صورتُه وتَلِجُ إليه الروحُ في عشرينَ يومًا، وهو لا يملكُ لنفسه ضَرًّا ولا نفعًا، يتغذَّى مِن دمِ الحَيْضِ، وبعد أن يمكثَ في بطنِ المرأة مدَّةَ حملِهِ يخرجُ إلى عالَم الوجود، كما قال تعالى: ﴿**وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا**﴾[2]، فهو ضعيفُ الشعورِ، ضعيفُ الجسمِ، يُسخِّرُ اللهُ له أمَّه، فتحنو عليه وتطعمه حيث لا يطعمُ أحدٌ أحدًا، وتسهرُ الليالِيَ في سبيله، وتجوعُ ليشبَعَ، وتَعرى ليكتسي، وتظمَأُ ليرتوي، فيا ليت شعري ما حَمَلَها على ذلك لولا اللهُ تعالى الذي أجرى وجودَ البشر على هذا القانون العادل والميزان المستقيم، ثم بَعَثَ بالرَّحمةِ والحَنو في قلبِ والده،

(١) سورة المؤمنون/ الآيتان: ١٢ - ١٣.

(٢) سورة النحل/ من الآية: ٧٨.

فذهبَ هذا بدوره يكِدُّ ويتعبُ ويسهرُ ويصرفُ الأموالَ الطائلةَ، كلَّ ذلك لتأمين حياة مولودِه، فلو لم تكنْ قوَّة خفيَّة تديرُ هذا العالَم على مركز الإتقان، لَما بقي منتظِمًا، وانحلَّت عُراه.

أمَّا لو نظرتَ إلى جسمِ الإنسانِ من حيثُ تركيبُ أجزائه، وقيامها بوظائفها، لاستولَتْ عليك الدهشةُ، وملكتك الحيرةُ، فَخَلَقَ له عينَين في مقدَّمِ وجهِهِ؛ لينظر بهما الأشياء، فيأخذُ المفيدَ وينبذُ الضارَّ، ويهتدي بهما إلى سبيله، وبهما انتظامُ أمورِه، وحِفظ وجودِه عند إدراك المبصَرات التي تحصَل عند المقابلة للمرئي، ولها أجزاءٌ ثلاثةٌ: أوَّلها: المُقلةُ، وهي أهمُّها، وثانيها: ما أحاطَ بها من اللحم، وثالثها: الأجفان التي جُعِلَت زينةً لها ومانعًا لِما يسيلُ مِن العَرَق إليها. قد جعل لها المبدعُ سبعَ طبقاتٍ على وضعٍ هندسيٍّ، وجعل لكلِّ طبقةٍ شغلًا[1]، فالصلبةُ مهمَّتُها كأن تحصر رطوبات العين، والشبكيَّة تحفظُ قوَّةَ البصر، وتنطبع فيها صور المرئيَّات، فتُوصِلها لمركز الإحساس بواسطة العصب البصريِّ، والعنبيّة[2] تكون حاجزًا بين الرطوبات والطبقة القرنيَّة، وتدفعُ ما يقعُ في العينِ من جسمٍ غريبٍ بواسطة إفراز الدمع إلى آخر تفصيل تركيبها من أعاجيب وغرائب، ويضلُّ رشدُك عند تفكيرك في كيفيَّة

---

(١) في الأصل: (شغل)، والصواب ما أثبتناه.

(٢) وهي الطبقة الرابعة من طبقات العين، وتكون ثخينةَ الجِرْم، ظاهرها صلب؛ لأنهَّا تلاقي الطبقة القرنيَّة، وباطنها ألين وكأنَّه لحمٌ إسفنجي، والمشهور أنَّ فائدة ذلك أن يجدَ الماءُ المقدوحُ خشونةً يتعلَّقُ بها ولا يعود إلى الحدقة. يُنظر: شرح تشريح القانون لابن سينا، لابن النفيس: ١٢٧.

الإبصار وحدَه!، ولماذا لا تبصرُ الأُذُن ما تبصره العين؟ ومَنْ خصَّصَ العينَ بهذه الوظيفة دون سائر الأعضاء؟

ثم شقَّ اللهُ له فمًا، وجعل به الأسنانَ اثنين وثلاثين سنًّا إذا تجاوز العشرين، وثمانيةً وعشرين إذا لم يتجاوزها، وجُعِلَت سببًا لهضم غذائه، فمنها الطاحنُ للغذاء، وهي الأضراسُ، ومنها القاطعُ كالأنياب والقواطع، وجعل له شفتين تمنعُ اللقمةَ من سقوطها عندما تقوم الأسنانُ واللسان بوظيفتيهما، وخَلَقَ فيه غُدَدًا لعابيَّةً تفرزُ اللعابَ، فيكثرُ في الفم؛ ليحلِّلَ الغذاءَ حتَّى يكون أشبه بالعجين؛ كي لا تَتعَب المعدةُ وحدَها بهضمِه فتتعرَّض للأمراض إذا دامت على هذا زمانًا طويلًا، وجعل وراءَ حلقه أنبوبَين، ولكلٍّ واحدٍ منهما وظيفةٌ، فالذي في الأمام فإنَّه طريقٌ لمرورِ الهواءِ عند التنفّس، والذي خَلفه به يذهبُ الطعامُ إلى المعدةِ، يجري كلُّ ذلك وهو لا يشعرُ به، حتَّى يأخذَ الجسمُ منه ما يغذِّيه، ويخرجُ الباقي من سبيله إلى الخارج، وكذلك الحالة في السمع واللمس، فكلُّ عضوٍ معجزةٌ ودليلٌ على وجودِ خالقه الحكيم، ولقد أجاد القائلُ من الخفيف[1]:

---

(١) من الشعر المنسوب إلى أبي الفتح البُسْتِي، يُنظر: ديوانه: ٢٢١ - ٢٢٢. والروايةُ فيه:

كُلُّ مَا يُرتَقَى إلَيْهِ بِوَهْمٍ ... مِنْ جَلالٍ وَقُدْرَةٍ وَسَنَاء

فَالَّذِيْ أبْدَعَ البَرِيَّةَ أعْلَى ... مِنْهُ، سُبْحَانَ خالِقِ الأشْيَاء

والذي نسبه إليه بهذه الرواية أبو منصور الثعالبيّ في كتابه التمثيل والمحاضرة: ١٢. وبلا نسبة في المستطرَف في كلِّ فنٍّ مستظرف، شهاب الدين محمَّد الأبشيهيّ: ١٢، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذِكْرِ وزيرها لسان الدين بن الخطيب،

كُلُّ حسنٍ يُرتَقَى إلَيْهِ بِوَهْمٍ مِنْ جَلالٍ وَقُدْرَةٍ وَسَنَاء
فَالَّذِيْ أبْدَعَ البَرِيَّةَ أوْلَى مِنْهُ، سُبْحَانَ مُبْدِعِ الأشْيَاء

ولي من بحر السريع:

لم يكنِ الكونُ سوى حكمة يُسهد فيها الشاهد العقلي
وجودُ مَنْ صوَّره لازمٌ له لزوم النور للظلِّ

ولي من هذا البحر أيضًا:

فلو رأيتَ شملةً مرَّةً حَكَمْتَ في وجودِ خيَّاطِها
وصانعُ الأكوانِ أنكرتَهُ تُقلِّدُ الغَرْبَ بأغلاطِها

ولي من مجزوء الرجز في ذمِّ الملحدين:

تبًّا لداروين ويا قبحًا لوجه بخنر
قد أنكروا من جهلهم حقيقةً لم تُنكَر
ولفَّقُوا أدلَّةً بعيدةً في النَّظر
لم يكفروا لم يؤمنوا فهم على تحيُّر

أمَّا لو نظرت إلى الروح وتدبيرها الجسد، لكنتَ مبهوتًا متحيِّرًا، فهي الفارقُ بين الأحياء والأموات، جلَّ خالقُها وتعالى صانعُها ﴿صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1]. ولو نظرتَ في تمامِ خِلقةِ الإنسان، ووقفتَ على

شهاب الدين أحمد بن محمَّد المقري التلمسانيّ: ٥/ ٢٨٦.

(١) سورة النمل/ من الآية: ٨٨.

أسرارها وحكمها، لخفتَ على نفسك من الجنون، وأنّى لك ذلك وفيها خَرط القتاد[1]، بل لا تستطيع أن تحيطَ بمنافع بعض أعضائك وإن أذهبت كلَّ أوقاتك. وأعجب من كتلة لحمٍ صغيرةٍ أصبحت حاكمًا لمملكة الجسد ومستشارًا أمينًا تُورِدُ إليه شكوكَها، فَيَسْتَحسِنُ لها الحَسَنَ ويَستَقبِحُ لها القبيحَ، ولولاه لكان الإنسانُ متخبِّطًا في ظلامٍ من الشكوك، وتلك الكتلةُ هي القلبُ كما قال تعالى: ﴿**فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾[2]، وقال (صلى الله عليه وآله وسلم): «فِي الإِنْسَانِ مُضْغَةٌ إِذَا هِي سَلِمَتْ وَصَحَّتْ سَلِمَ بِها سائر الجَسَد، وَإِذَا سَقِمَتْ سَقِمَ لها سائِرُ الجَسَد وَفَسَدَ، وَهِيَ الْقَلْبُ»[3]، وقال أميرُ المؤمنين (عليه السلام): «إنَّ هذِهِ القُلوبَ تَمَلُّ كما تَمَلُّ الأَبدانُ، فَابتَغوا لَها طَرائِفَ الحِكَمِ، وإنَّ للقلوبِ إقبالًا وإدبارًا، فإذا أقْبَلَتْ فاحملوها على النَّوَافِلِ، وإذا أدْبَرَتْ فاقتصروا بها على الفَرائِض»[4]، وقال بعضُهم[5]: «قَلْبٌ نَقِيٌّ فِي ثِيَابٍ دَنِسَةٍ، أفْضَلُ مِنْ قَلْبٍ دَنِسٍ فِي ثِيَابٍ نَقِيَّةٍ»،

---

(١) يُقالُ: خرطتُ العودَ وَغَيرَه أخرُطه وأخرطه خَرْطًا إذا قَشرَّت عَنهُ نجبه وَهُوَ لحاؤه. وَمثلٌ من أمثالهم: دون ذَلِك خرط القتاد؛ وَذَلِكَ أَنَّ القتادَ متظاهِرُ الشوكِ لَا يُسْتَطَاعُ لمسُه وَلَا خرطُه. يُنظر: جمهرة اللغة، لابن دريد: ١/ ٥٨٧.

(٢) سورة الحجّ/ من الآية: ٤٦. وفي الأصل: (إنهَّا لا تعمي....) من دون الفاء.

(٣) يُنظر: مسند أحمد: ٣٠/ ٣٢٤، رقم (١٨٣٧٤)، والخصال، للشيخ الصدوق: ٣١، وروضة الواعظين: ٤١٣.

(٤) يُنظر: شرح نهج البلاغة: ١٨/ ٢٤٦، وروضة الواعظين: ٤١٤.

(٥) نُسبَ هذا القول إلى أبي إدريس الخَوْلانّي في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهانيّ: ٥/ ١٢٢، والبداية والنهاية: ٩/ ٤٢. وإلى أويس

وبه استدلَّ أحدُ علماء الشيعة على وجوب الإمام، وهو هشام بن الحكم[1] [قال: دخلتُ][2] على عمرو بن عبيد[3] في البصرة، وكان هشام صبيًّا صغيرًا أتاه يوم الجمعة، وهو يخطبُ في الجامع الكبير، والناس عنده مجتمعة، فسأله قائلًا: يا شيخ عندي مسألة، وأنا رجلٌ غريبٌ، فقال: سَلْ يا بُنيَّ، فقال: هل لك عين؟ فقال: يا بنيَّ أيّ شيء هذا من السؤال؟ وبشيء تراه كيف تسأل عنه؟ فقال: هكذا مسألتي. فقال: أجل، إنَّ لي عينًا، فقال هشام: ما تصنع بها؟ فقال: أبصِر بها الأشياء، وأميّز بها الألوان، فقال هشام: ألك أذُنٌ؟ فقال: نعم، فقال: ما تصنع بها؟ فقال: أسمع بها الأصوات، وقد أميّز بها بين الناس حسب أصواتهم، فقال: ألك أنفٌ؟ فقال: نعم. فقال: ما تصنع به؟ فقال: به أتنفَّسُ، وأميّز بين الروائح الكريهة والروائح الشذيَّة، إلى أن قال له: ألك قلبٌ؟ فقال: نعم. فقال هشام: ما تصنع به؟ فقال: اعلم يا بنيَّ

الخولاني - وربما هو تصحيف عن أبي إدريس المذكور آنفًا - في محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء: ٢/ ٣٧٦.

(١) المُتكَلِّمُ البَارِعُ هِشَامُ بنُ الحَكَمِ الكُوْفِيُّ الشيعيّ، مِنْ أَصْحَابِ الإمام جَعْفَرٍ الصَّادِقِ (عليه السلام) هَذَّبَ المَذْهَبَ، وَفَتَقَ الكَلاَمَ فِي الإِمَامَةِ، وَكَانَ حَاذِقًا حَاضِرَ الجَوَابِ. توفّي فِي حُدُود الثَّلاَثِينَ والمائتين من الهجرة. يُنظر: سِيَر أعلام النبلاء: ٨/ ٥٣٠، والوافي بالوفيات: ٢٦/ ٥٧.

(٢) زيادة يقتضيها السياق، مُقتبسَة من متن الرواية.

(٣) هو عمرو بْن عبيد بْن باب، أَبُو عثمان. مولى بني عقيل، كان يسكن البصرة، وجالَسَ الحسنَ البصريَّ وحفظ عنه، وكان له سمت، وإظهار زهد. يُنظر: تاريخ بغداد: ١٤/ ٦٣، ووفيات الأعيان: ٣/ ٤٦٠، وسِيَر أعلام النبلاء: ٦/ ٢٥٩.

أنَّ الجوارحَ إذا شَكَّت في شيء رأته، أو لمسته، أو ذاقته، أو سمعته، راجَعَت القلبَ فيستيقنُ لها اليقينَ، ويُبطِلُ لها الشكَّ، فقال هشام: أليس للجوارح غنًى عن القلب وهي صحيحة سليمة؟ فأجاب بالسلب. فقال هشام: جسمٌ واحدٌ لم يتركه الله بلا إمام يرشده عند التباس الشكّ عليه، فأقام له القلب إمامًا يستيقنُ له اليقينَ، ويُبطِلُ له الشكَّ، ويترك هذا العالم، وهذه الناس الكثرة بلا إمام يرشدهم عند حيرتهم، والتباس الشكِّ عليهم، فبَهُتَ عمرو بن عبيد، ولم يحرِ جوابًا. هكذا نقلناه بالمعنى[1].

وقوله (عليه السلام) في هذه الخطبة: «**ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ فَمَثُلَتْ إِنْسَاناً**» أي: إنَّه تعالى بعد أن سنَّ تربة آدم بالماء حتَّى استمسكت، خَلَقَ فيها الروح، فصار إنسانًا ذا أذهان بعد أن كان جمادًا، فاستخدم جوارحَه بعد إدخال الروح فيه في مصالحه ومآربه.

وقوله (عليه السلام): «**مَعْجُوناً بِطِينَةِ اَلْأَلْوَانِ اَلْمُخْتَلِفَةِ**» يريد بها التنبيه في اختلاف هذه الألوان التي تكوَّنت منها صورة الإنسان الأوَّل، على أنَّ ذلك مبدأُ اختلافِ الناسِ في أذواقهم وطبائعهم، ويُطلقُ لفظُ الألوان على العَرَض اللاحق للجسم، كالحُمرة، والصُّفرة، والبياض، إلى غير ذلك من الهيئات العديدة، وليس كما فسَّرها ابنُ أبي الحديد[2]، وتابَعَهُ محمَّد عبده[3]، بأنَّ

---

(١) تنظر الرواية في: الأمالي، الشيخ الصدوق: ٦٨٦ - ٦٨٧، والاحتجاج، الشيخ الطبرسيّ: ٢/ ١٢٥.

(٢) يُنظر: شرح نهج البلاغة: ١/ ٩٩.

(٣) يُنظر: هامش نهج البلاغة (شرح الشيخ محمَّد عبده): ٢٦.

الألوان المختلفة كما فسَّرها (عليه السلام) بقوله: «**مِنَ الحَرِّ وَالبَرْدِ وَالبِلَّةِ وَالجُمُوْدِ**»، فإنَّ هذا التفسير للأخلاط المتباينة لا للألوان المختلفة؛ لوجود الفاصل بين التفسير والمفسَّر، وهو قوله: (الأشباه المؤتلِفة)، وقد يُريدُ بالألوان الأنواع وزنًا ومعنًى، فيشير إلى أصل أجزاء طينته، أعني ما أخذه من حَزْن الأرض وسهلها وعذبها وسَبَخها، ويريد (عليه السلام) في قوله: «**وَالأَشْبَاهِ المُؤْتَلِفَةِ**» أي: الأمثال المجتمعة المتقاربة، ولعلَّه أراد مشابهة الناس لبعضهم في النُّطفة.

وقوله: «**وَالأَضْدَادِ المُتَعَادِيَةِ**» أي: الغرائز المتفاوتة، كالجبن، والشجاعة، والكرم، والبخل، والوفاء، والغدر، ولين العريكة، والشراسة، والتبذير والاقتصاد، ونحوها، وكنَّى عن عدم تقاربها بالتعادي.

وقوله (عليه السلام): «**وَالأَخْلاَطِ المُتَبَايِنَةِ**» أي: ما تخالطُ الإنسان، أي: تجتمعُ بهم من الحرِّ والبرد، والرطوبة واليبوسة، والحزن والفرح، لا يريد أنَّها تحصل في آنٍ واحدٍ كلِّها، بل يريدُ أنَّها تحصل للإنسان على سبيل التناوب، إشارةً إلى حدوث الإنسان لتغيّرِهِ من الحرِّ إلى البردِ، ومن السرور إلى الفرح، وبالعكس، وكلُّ متغيِّرٍ حادث، فالإنسانُ حادثٌ، وكلُّ حادثٍ يحتاجُ للمُحْدِث، فأثبتَ (عليه السلام) بذلك وجودَ الله تعالى، ولو بالتلميح لا بالتصريح.

وقوله (عليه السلام): «**وَاسْتَأْدَى اللهُ سُبْحَانَهُ المَلاَئِكَةَ وَدِيعَتَهُ لَدَيْهِمْ وَعَهْدَ وَصِيَّتِهِ إِلَيْهِمْ..**» أي: إنَّ اللهَ أراد من الملائكةِ أداءَ وديعته لديهم، وعَهْدَ وصيَّتِه بالسجود إلى آدم إذا سوَّاه ونَفَخَ فيه الروحَ، كما قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ**

اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ﴾[1]، وهذا السجود لا لآدم حقيقةً، بل لله تعالى، كالسجود للكعبة جاء على وجه التعظيم والتكريم لآدم (عليه السلام)، والأمرُ يُرادُ به العموم بقرينة قوله: (كلّهم أجمعون) الذي جاء تأكيدًا له، وبهذه الآية يُستدلُّ على أفضليَّة الأنبياء على الملائكة، ولهذا امتنعَ إبليسُ عن السجود قائلًا: «خلقتني مِن نارٍ وخَلَقْتَهُ مِن طين»، حين داخله الكِبَر والحسد. ونَظَمَ ذلك بعضُ المعاصرين - وقد هذى في قوله - من الكامل[2]:

إبْلِيْسُ أشْرَفُ مِنْ أبِيْكُم آدَمٍ ... فَتَنَبَّهُوا يَا مَعْشَرَ الأشْرَارِ
النَّارُ جَوْهَرَةٌ وَآدَمُ طِيْنَةٌ ... وَالطِّيْن لا يَسْمُو سُمُوَّ النَّارِ

فأجبته من البحر السريع:

أرى ضراطَ العنزِ يا ذا العمى ... أشرفَ مِن إبليسَ ربِّ الدهاء

---

(١) سورة البقرة/ الآية: ٣٤.

(٢) وَهَم المؤلِّفُ - رحمه الله - في نسبة البيتين إلى بعض المعاصرين، والصوابُ نسبتهما إلى بشَّار بن برد. يُنظر: رسالة الغفران، أبو العلاء المعرِّي: ٣١٠، والروايةُ فيها: (النَّارُ عنصره) بدلًا من: (النَّارُ جوهرةٌ)، وينظر أيضًا ديوان بشَّار بن برد (الملحقات): ٤/ ٧٨. والروايةُ فيه:

إبْلِيْسُ خَيْرٌ مِنْ أبِيْكُم آدَم ... فَتَنَبَّهُوا يَا مَعْشَرَ الفُجَّارِ
إبْلِيْسُ مِنْ نارٍ وَآدَمُ طِيْنَةٌ ... وَالأرْضُ لا تَسْمُو سُمُوَّ النَّارِ

وقد شكَّك محقِّقُ الديوان محمَّد الطاهر ابن عاشور في هذه النسبة، قائلًا: إنَّه ممَّا وضعه أعداؤه ليشيع بين العامَّة، والعامَّة لا يتبصَّرون في البحث والتبيين.

إذا أصله النارُ وهذي هوًا ... والنَّارُ لا تسمو سموَّ الهواء

وقلتُ من بحر الكامل:

إبليسُ من نارٍ وآدمُ طينةٌ ... والنار يخمدُ ضوؤها في الطِّينِ

فلأجلِ هذا كان آدمُ أفضلًا ... إن رمتموا بالحقِّ كَشْفَ ظنونِ

حيثُ المؤثِّرُ دونه آثاره ... في رتبة التكريم والتكوينِ

فلـمَّا امتنع إبليسُ من السجود لآدم تكبّرًا وحسدًا طردَهُ اللهُ من المنزلة الرفيعة التي كان بها قائلًا: ﴿**فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ . وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ**﴾[1].

وممَّا أذكرُهُ في هذا المقام من القصص الخياليَّة اللطيفة قول بعضهم: إنَّ إبليسَ بعد أن امتنع من السجود ندم على مخالفة الله حتَّى إذ بَعَثَ اللهُ محمَّدًا بالرسالة أتاه يريدُ التوبةَ، فقال له الرسول: ذلك آدم، اُسجد له وأنا أشفعُ لك عند الله، فذهبَ إبليسُ ليسجُدَ إلى آدم وإذا بعمر بن الخطَّاب قد عارضه في بعض الطريق، فقال: إلى أين يا أبا مرَّةَ، فذكر له عزمَهُ على السجود لآدم وما تداخله من الندم على العصيان، فقال له عمرُ ابن الخطَّاب: أنت لم تسجد لآدم وهو في الجنَّة، وفي تلك الصولة والعظم، وكلُّ الملائكة سَجَدَت له: وقد قيل: (الحشرُ مع الناس عيد)، والآن تريدُ أن تسجدَ له وهو رميم، فقال إبليس بعد أن تفكَّرَ قليلًا: أظنُّ ذلك صحيحًا يا أخي، ورجع عن

(١) سورة الحجر/ الآيتان: ٣٤ - ٣٥.

توبته، فقال الشاعر من البسيط[1]:

إنْ كانَ إبْلِيْسُ أغوَى النَّاسَ فِي خُدَعٍ ... فَأنْتَ يَا عُمَر أغْوَيْتَ إبْليسا

ولكن قد كَفَرَ بعضُ علماء أهل السُّنَّة[2] حيثُ زَعَمَ أنَّ إبليسَ سيِّد الموحِّدين قائلًا: «لأنَّه أُمِرَ أن يسجدَ لغير سيِّده فامتنع»؛ لأنَّه مخالفٌ لصريح القرآن الذي لعنه بقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾[3]؛ ولأنَّ سببَ عدم سجودِهِ لا التوحيد، بل ادّعاؤه أفضليَّته على آدم بقوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[4]، ولم يقل: إنِّي لا أسجدُ لغيرك، حتَّى يكون كلامُ هذا الجاهل مستقيمًا بعضَ الاستقامة، بل حتَّى لو كان على هذا الوجه، فهو كافرٌ؛ لأنَّه - والحالة هذه - رادٌّ على الله، والرَّدُّ على الله على حدِّ الشرك بالله، وقد قيل: الامتثالُ خيرٌ من الأدب.

---

(١) لم أعثر على قائله، وهو بلا نسبة في إحقاق الحق، للشهيد نور الله التستري: ٢٣٣. وجاء صدر البيت فيه:

إنْ كانَ إبْلِيْسُ أغوَى النَّاسَ كلَّهُمُ ...

(٢) قال ابن أبي الحديد: «كان أبو الفتوح أحمد بن محمَّد الغزاليّ الواعظ، أخو أبي حامد محمَّد بن محمَّد الغزاليّ الفقيه الشافعيّ.. وسَلَكَ في وعظه مسلكًا مُنْكَرًا؛ لأنَّه كان يتعصَّب لإبليس، ويقول: إنَّه سيِّد الموحّدين، وقال يومًا على المنبر: مَنْ لم يتعلَّم التوحيدَ مِن إبليس فهو زنديق، أُمِرَ أن يَسجُدَ لغير سيِّده فأبى». يُنظر: شرح نهج البلاغة: ١/ ١٠٧.

(٣) سورة ص/ من الآية: ٧٨.

(٤) سورة الأعراف/ من الآية: ١٢. وسورة ص/ من الآية: ٧٦.

أمَّا حقيقةُ إبليس، فإنَّه لا إشكال من الجنِّ؛ لقوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ﴾، وأمَّا الملائكةُ، فَهُم أجسامٌ نورانيَّةٌ لا ناريَّة؛ ولأنَّه عصى، والملائكة معصومون، لا يعصونَ اللهَ ما أمَرَهم، وهم بأمره يعملون، وقوله: (إلّا إبليس) استثناءٌ منقطع[1]، كقولك: ذهب الأولاد إلاّ الفرس الأشقر، ولقوله تعالى: ﴿إِلاَّ إِبْلِيْسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ﴾[2]؛ ولأنَّ الملائكةَ لا تتناسَل كالحيوان والجنِّ، وقد قال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾[3]، وأمَّا قولُ المُسْتَدِلّ أنَّه من الملائكة بِلَوْمِهِ في تَرْكِ السجود، فيُجابُ بأن أُطلِقَ لفظُ (الملائكة) عليه مِن جهة التغليب، كقولك: ضاء القمرانِ، تقصد الشمس والقمر، فحينئذٍ يجوزُ لومُه في ترك ما كان مأمورًا به، يؤيِّدُ هذا قولُهُ تعالى لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾[4]، ومن قال: إنَّ الجنَّ قسمٌ من الملائكة، فقد تنكَّب طريق الحقّ لِما مرَّ؛ ولأنَّهم يأكلون ويشربون، والملائكةُ لا تأكل ولا تشرب، واستدلال بعضهم على عدم أكل الجنّ وشربهم في أشعار العرب، كقول بعضهم من الوافر[5]:

---

(١) هو استثناءُ الشيء من غيرِ جنسهِ. وما وَرَدَ مِن ذلك فليست فيه «إلّا» للاستثناء على سبيل الأصل، وإنَّما هي بمعنى «لكنْ». يُنظر: جامع الدروس العربيَّة، مصطفى الغلاييني: ٣/ ١٢٩.

(٢) سورة الكهف/ من الآية: ٥٠.

(٣) سورة الكهف/ من الآية: ٥٠.

(٤) سورة الأعراف/ من الآية: ١٢.

(٥) نُسبت هذه الأبيات إلى شمر بن الحارث الضَّبي كما في: كتاب الحيوان، أبو عمرو الجاحظ: ٦/ ٤١٨، وشرح ديوان المتنبّي، أبو البقاء العكبريّ: ٢/ ١٨٥، والحماسة

أَتَـوْا نَـارِي فَقُلْـتُ مَنُـوْنَ أَنْتُـمْ؟ فقالـوا الجِـنُّ لا نَخْشَـى الظَّلامـا
فقُلْـتُ إِلَى الطَّعـامِ فقـالَ مِنْهُـمْ زَعيـمٌ نَحْسُـدُ الأَنَـسَ الطَّعامـا
لقَـدْ فُضِّلْتُمـوا بـالأكْلِ فِينَـا وَلَكـنْ ذَاكَ يُعْقِبُكُـمْ سَـقامَا

ومثله قول بعضهم من الوافر أيضًا[1]:

دعـوتُ الجـنَّ خُلّانـي لأكلٍ فَلَـم يرضَـوْا وعابونـي بفِعلـي
وقالـوا: الجـنُّ لم تـأكلْ طعامًـا فكيـف الآن تدعونـا لأكلِ؟
وإنَّ الجَّـن تحسُـدكم عليـه لأنَّ الأكلَ فضْـل أيّ فضـلِ
وفي هـذا الطعـامِ لكـم سـقامُ تجنُّبُـه عليكـم غيـرُ سـهلِ

فذلـك خرافـةٌ لا وزنَ لهـا، فـإنَّ الشـاعرَ يجـوزُ لـه أن ينظـمَ كلَّ مـا يوحيـه إليـه خيالُـه، كقـول الشـاعر مـن الطويـل[2]:

أنـا الطمـعُ الممقـوتُ عِنْـدَ ذَوِي النُّهـى وبي عندكم يُسْتَحسَنُ الظُّلمُ والجَوْرُ

مع أنَّ الطمعَ لم يقُل ذلك، وكقول الآخر من الطويل[3]:

البصريَّـة، عـليّ بـن أبي الفـرج البـصريّ: ٢/ ٢٤٦. ونُسِـبَ إلى جـذع بـن سـنان في: خزانـة الأدب، عبـد القـادر بـن عمـر البغـداديّ: ٦/ ١٧٧. وهـو مـن شـواهد أهـل اللغـة والنحـو، ووَرَدَ في معظـم مصادرهـم بـلا نسـبة، يُنظـر: الكتـاب، لسـيبويه: ٢/ ٤١١، والمقتضـب: ٢/ ٣٠٧، وشرح الأشـمونيّ: ٤/ ٢٢.

(١) لم أعثر على قائله.

(٢) لم أعثر على قائله.

(٣) البيت مجهول القائل، وهو بلا نسبة في العقد الفريد، لابن عبد ربّه الأندلسّي: ١/

سألتُ النَّدى هل أنت حرٌّ؟ فقال: لا ... ولكنَّني عبدٌ ليحيى بن خالدِ
فقلتُ: شراءً جئتَهُ اليومَ؟ قال: بل ... تَوَرَّثَني مِن والدٍ بعد والدِ

بل الأبيات متناقضة المعنى فتارةً يزعم أنَّه يحسدُ الناسَ على الأكل والشرب، وتارةً يزعم أنَّ الأكلَ والشرب داعية السقام، وتارةً يزعم أنَّ الفضلَ بالأكلِ، ولو كان هذا وجهٌ للتفضيل، لكان الحمارُ أفضل من الملائكة، وهو خُلْفٌ.

ويظهرُ أنَّ هذا الجنِّيَّ المزعوم همُّهُ بطنُه، فلا يَرى فضلًا إلّا بالأكل والشرب، وهذه الآيةُ هدَّمتْ مذهبَ أهلِ السُّنَّة القائلين[1] بأنَّ الخيرَ والشرَّ مِن الله، فإنَّ اللهَ أراد من إبليس أن يسجدَ لآدمَ، وأمَرَه بذلك، ولكنَّه أبى واستكبر ولم يسجُد لآدم، فلو كان عدمُ سجودِ إبليس مِن الله أيضًا لزم نقض الغرض، ونقضُ الغرضِ لا يفعلُه الحكيم، واللهُ قد ذمَّه على ترك السجود، فلو كان تركُ السجود من اللهِ، لكان اللهُ هو الذامَّ لنفسه؛ لإتيانه ما يستوجبُ

٢٢٦، وهناك اختلافٌ طفيفٌ في رواية البيت الثاني؛ إذ قال:

فقلتُ شراءً؟ قال: لا، بل وراثة ... تَوَارَثَني عن والدٍ بعد والدِ

وينظر أيضًا: البديع في نقد الشعر، لابن منقذ: ٢٣٦، والمستطرف في كلِّ فنٍّ مستظرف، لمحمَّد بن أحمد الأبشيهيّ: ١٧٢.

(١) يقول ابن بطَّة العكبري: «فَالْوَاجِب علينا علمه والتصديق بِهِ وَالإِقْرَار بِجَمِيعِهِ أَن نعلم أَن الْخَيْر وَالشَّر من الله». يُنظر: الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة: ١/ ٢٢٧.

الذمَّ، واللهُ منزَّهٌ عن الذمِّ، مع أنَّه مدحَ الملائكةَ بالسجود، فلو كان سجودُ الملائكةِ منه قسرًا، للزم بشيء واحد بآنٍ واحد أن يكون مادحًا لنفسه؛ لإتيانه ما يستَوْجِبُ المدحَ، والمدحُ والذمُّ نقيضان لا يجتمعان.

وقوله (عليه السلام): «**فَأَعْطَاهُ اللهُ النَّظِرَةَ اسْتِحْقَاقًا لِلسَّخْطَةِ ۞ وَاسْتِتْمَامًا لِلْبَلِيَّةِ وَإِنْجَازًا لِلْعِدَةِ ۞ فَقَالَ: إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الوَقْتِ المَعْلُومِ**»، وهذا الوقتُ مجملٌ غيرُ مبيَّن، ويريدُ بالمعلوم: المعلومَ عنده تعالى لا عند إبليس؛ ليُقال: إنَّ هذا إغراءٌ بالقبيح، ومثله قوله :(عليه السلام) (إنجازًا للعِدَةِ) أي: تحصيلًا لِما وَعَدَهُ اللهُ من المُهلَةِ المجمَلَةِ التي لم تُحدَّد بوقتٍ معلوم، كمثل آجالِنا المعلومة مِن وجه. وابنُ أبي الحديد[1] سَألَ نفسَه عند تفسير ذلك، فقال: «إنْ قُلتُ: فما معنى قوله (عليه السلام): «إنجازًا للعِدَةِ»؟ أليس معنى ذلك أنَّه قد كان وَعَدَه أن يبقيه إلى يوم القيامة! فأجابَ بما معناه: إنَّما وَعَدَهُ الإنظار مجملًا، فيحتملُ دلالته على القيامة، كما يحتمل أن يدلَّ على غيرها من الأوقات، ولم يخصِّص له أحدهما، فهو تعالى أنجزَ له وَعْدَهُ في الإنظار المطلَق، فلا يحصلُ الإغراء بالقبيح ..

وهذا الكلامُ - كما قال - هو كلامٌ ضعيفٌ، فكأنَّه تعالى إذا بيَّن كونَ الإنظار إلى يوم القيامة يكون إغراءً، فما يفعل في قوله تعالى: ﴿**لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا . قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا..**﴾[2]، فعلى قوله هذا يقتضي حصول الإغراء، وهو باطلٌ، ولكنَّ الجوابَ حتَّى لو بيَّنَ اللهُ تعالى له يوم القيامة

(١) شرح نهج البلاغة: ١/ ١٠١.

(٢) سورة الإسراء/ من الآيتين: ٦٢ - ٦٣.

لا يكون إغراءً؛ لأنَّ عِلْمَ الساعةِ ممَّا استأثر اللهُ به، فلا يعلمُ إبليسُ متى حصولُها، فلا يكون إغراءً له .

من الأصل

«ثُمَّ أَسْكَنَ سُبْحَانَهُ آدَمَ دَارًا أَرْغَدَ فِيهَا عِيشَتَهُ ۞ وَآمَنَ فِيهَا مَحَلَّتَهُ ۞ وَحَذَّرَهُ إِبْلِيسَ وَعَدَاوَتَهُ ۞ فَاغْتَرَّهُ عَدُوُّهُ نَفَاسَةً عَلَيْهِ بِدَارِ الْمُقَامِ وَمُرَافَقَةِ الأَبْرَارِ ۞ فَبَاعَ الْيَقِينَ بِشَكِّهِ ۞ وَالعَزِيمَةَ بِوَهْنِهِ وَاسْتَبْدَلَ بِالْجَذَلِ وَجَلًا ۞ وَبِالإِغْتِرَارِ نَدَمًا ۞ ثُمَّ بَسَطَ اللهُ سُبْحَانَهُ لَهُ تَوْبَتَهُ ۞ وَلَقَّاهُ كَلِمَةَ رَحْمَتِهِ ۞ وَوَعَدَهُ الْمَرَدَّ إِلَى جَنَّتِهِ ۞ وَأَهْبَطَهُ إِلَى دَارِ الْبَلِيَّةِ ۞ وَتَنَاسُلِ الذُّرِّيَّةِ».

اللغة

(الرَّغَدُ): الكثير الواسع أو الطيِّب، و(الحذر): الاحتياط في الأمر والاستعداد له، و(النفاسة): المرغوب فيه، و(الأبرار): أولياء الله الأتقياء، و(الشك): الارتياب في الأمر، وهو ضدُّ اليقين، و(الوهن): الضعف، و(الجذل): الفرح، و(الوجل): الخوف، و(أهبطه): أنزله.

الشرح

قوله (عليه السلام): «ثُمَّ أَسْكَنَ سُبْحَانَهُ آدَمَ دَاراً أَرْغَدَ فِيهَا عِيشَتَهُ ..» موافقٌ لقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا..﴾[1]. وقوله :(عليه السلام) «وَحَذَّرَهُ إِبْلِيسَ وَعَدَاوَتَهُ» يُشيرُ إلى قوله تعالى:

(١) سورة البقرة/ من الآية: ٣٥.

﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾[1].

وقوله (عليه السلام): «فَاغْتَرَّهُ عَدُوُّهُ نَفَاسَةً عَلَيْهِ بِدَارِ الْمُقَامِ ..» أي: غرَّهُ إبليسُ لمنافسته على الآخرة التي هي دار المُقام، وهذا يفيدُ أنَّ الجنةَ المشار إليها الجنةُ الحقيقيَّةُ لا البستان والحدائق الأرضيَّة، يُسْتَشَفُّ[2] ذلك من قرينة قوله: (دار المُقام)، فإنَّ الدنيا لا توصف إلّا بالفناء والزوال، وأمَّا رأيُ العلّامة السيِّد هبة الدين الشهرستانيّ[3] - في مجلَّة (المرشِد) ص٣٧٤ مِن الجزء الثامن، المجلَّد الرابع لسنة ١٣٤٨ هـ - إنَّ هذه الجنَّةَ كانت أرضيَّةً مرتفعةً، فهو مناقضٌ لوصف أمير المؤمنين لها بـ(دار المُقام)، وأنَّ اللهَ أهبطَهُ إلى دار البليَّة وتناسل الذّريَّة، يُريدُ الدنيا، فلو كانت الجنةُ أرضيَّةً، فهي[4] دارُ تناسل الذّريَّة، والذي حدا بالسيِّد إلى هذا الافتراض شبهةُ كونِ إبليس في الجنَّة وَوَسْوَسَ لآدمَ بعد أن طُرِدَ منها، فأجاب بقوله: فعلى افتراض جنَّة أبينا آدم أرضيَّة يسهلُ عليكم افتراضُ دخولِ إبليس فيها، وهذا الجوابُ غيرُ صحيحٍ، فإنَّ الإشكالَ في دخوله في الجنَّة بعد أن طُرِدَ منها سواءً كانت أرضيَّة أو جنَّة الخُلد؛ إذ الإشكال يدورُ مدارَ دخوله بعد طرده.

وأمَّا ما نقله عن البعض بأنْ لا محذورَ من كون إبليس في الجنَّة قبل

---

(١) سورة طه/ الآية: ١١٧.

(٢) في الأصل: (يشيف)، ولعلَّه تصحيف.

(٣) سورة طه/ الآية: ١١٧.

(٤) الأصل ألاّ يقترن جواب (لو) بالفاء، وقد وَرَدَ في الاستعمال - على قلَّة - اقترانه بالفاء.

صدور العصيان منه، فجوابٌ باردٌ أيضًا؛ لأنَّ دخوله الجنَّة ووسوسته لآدم بعد طرده منها، ونحن لا نستشكل أنَّ إبليس قبل عصيانه كان من زمرة الملائكة الموحِّدين، والجوابُ الصحيحُ أنَّ إبليسَ وَسْوَسَ لآدم بالقرب من الجنَّة بحيث يسمعُ وسوَسَتَه ولم يكن فيها، أو أنَّه طُرِدَ منها عن السكنى والمقام. أمَّا الاجتيازُ والمرور، فلم يُطرد منه.

أمَّا فضيلةُ والدي[1]، فقد أجابني على هذا الإشكال بأنَّ قوله تعالى: ﴿**اخرُجْ مِنْهَا**﴾[2] تكليفٌ لإبليس كتكليفه بالسجود لآدم، وقد عصى فيه كما عصى في السجود، ولكن يجوزُ ردُّ هذا الجواب بأنَّ إبليس لو فرضنا خروجَه من الجنَّة ولم يرجع لها يلزم أن يكون مستحقًّا للجنَّة، والثواب لامتثاله لواجب، ولا قائلَ بجوازِ رجوعِ إبليس للجنَّة، بل آية ﴿**اخرُجْ مِنْهَا**﴾ جزاءٌ لعدمِ سجودِه، لا تكليف مستقلّ يستحقُّ فاعلُه الثوابَ وتاركُه العقابَ، وهو مِثْلُ قولِهِ تعالى لامرأة نوحٍ ولوط: ﴿**ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ**﴾[3] فليس ذلك تكليف قطعًا.

---

(١) هو السيِّد حمد بن السيِّد فاضل، كمال الدين الحسينيّ الحلّيّ (١٢٩٥هـ - ١٣٨٣هـ) حضر أبحاث العَلَمَين: محمَّد كاظم الخراسانيّ، والسيِّد محمَّد كاظم اليزديّ في النجف، ورجع إلى الحلَّة مرشدًا ومبلّغًا. له مؤلَّفات متعدِّدة، منها: وسيلة التفهّم لمسوّغات التيمّم، وتنبيه الغافل لما ينجيه في الآجل، وغيرهما. يُنظر: طبقات أعلام الشيعة، آغا بُزرُك الطهرانيّ: ١٤/ ٦٨١، موسوعة طبقات الفقهاء، الشيخ جعفر السبحانيّ: ١٤/ ٣٤٥. وجاءت ترجمته مع ترجمة شقيقه عبد الرسول كمال الدين.

(٢) سورة الأعراف/ من الآية: ١٨.

(٣) سورة التحريم/ من الآية: ١٠.

وقوله (عليه السلام): «فَبَاعَ اليَقِينَ بِشَكِّهِ» كنايةٌ عن تركه الأمرَ المعلومَ لمجرَّد اعتراض الشكّ له، كما باعَ قوَّةَ الإرادةِ بالضَّعف، ففرّع على هذا الأمر كونه استبدل بالجذل والأفراح وجلًا من الله، كما استبدل بالاغترار ندمًا على تركه الأَوْلى. وأمَّا قولُ ابن أبي الحديد[1]: «وأمَّا الإماميَّةُ، فيقولون: إنَّ النهيَ كان نهيَ تنزيهٍ لا نهي تحريم؛ لأنَّهم لا يجوِّزون على الأنبياء الغَلَطَ والخطأ، لا كبيرًا ولا صغيرًا، وظواهر هذه الألفاظ تشهَدُ بخلاف قولهم». هذا قولٌ باطلٌ، ووجهُ بطلانه عدم إشعار ظواهر هذه الألفاظ بمخالفة رأي الشيعة، فغايةُ ما في الباب تُشيرُ تارةً إلى اغتراره، وتارةً إلى نَدَمِه، ونحو ذلك، وكلُّ هذا لا ينافي مذهبَ شيعةِ أهل البيت القائلين بأنَّ العصيانَ كما يُطلَقُ على المخالَفَةِ المحرَّمَةِ يُطلَقُ على المكروهةِ والمباحةِ أيضًا، وليس في هذه الفقرات الجليلة ما يُشيرُ إلى المخالَفَة المحرَّمة، بل ممَّا يدلُّ على أنَّها ليست محرَّمة عدمُ التكليف في الجنَّة بإجماع المسلمين، وللحديث القائل: «اليَوْم عَمَلٌ ولا حِسَاب، وَغَدًا حِسَابٌ ولا عمل»[2]، فلمَّا لم يكن في الجنَّة تكليفٌ، ثَبَتَ عدمُ العصيان المحرَّم مِن أبينا آدم، وغَلَطَ القائلُ[3]:

وأبو الخطيئةِ آدَمُ وتعذَّبتْ أولادُه

فالخطيئةُ الإتيانُ بالذنب متعمَّدًا، مأخوذة من الخطأ، وآدم لم يُخطِئ، بل تَرَكَ الأَوْلى، وَتَرْكُ الأَوْلَى له أن يفعلَهُ على وجه الكراهة، وأمَّا الإشكالُ في

(١) شرح نهج البلاغة: ١/ ١٠٣.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٣١٨.

(٣) لم أعثر على قائله.

نفس النهي عن أكلِ ثَمَرِ الشجرة، فالنهيُ له أطلاقات متعدِّدة ومدلولات كثيرة، فمنهم يحمله على التحريم حقيقةً، وفي غيره مجازًا لقرينه حاليَّة أو لفظيَّة، مستَدِلًّا بقوله تعالى: ﴿وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[1] يعني الرسول، ولكنَّ ذلك مبنيٌّ على أنَّ الأمرَ للوجوبِ، وهو معركةٌ بين الأصوليِّين[2] لم تُسْفِر عن نتيجة؛ إذ كلُّ حِزبٍ بما لديهم فرحون، ومنهم من يحمله على الإرشاد حقيقةً، وفي غيره مجازًا، ومنهم من يقول: إنَّ المطلوبَ بالنهي المجرَّد هو الكفُّ عمَّا لا يستلزم العُسرَ والحَرَجَ، وغيرهم يقول: المطلوب بالنهي نفسُ أن لا تفعلَ الفعلَ، والفرقُ بين أن لا تفعلَ وبين الكفِّ، أنَّ الأوَّلَ - أعني: (أن لا تفعلَ) - يقارن الكفَّ، بخلاف الكفِّ، فإنَّه لا يلزم أن يقارِنَ (أن لا تفعل)، والأوَّلُ أعمُّ والكفُّ أخصُّ؛ ولذلك يستحقُّ المدحَ مَنْ تَرَكَ شربَ الخمرِ، وهو غيرُ مُلتَفِتٍ للكفِّ عن شربِهِ كما ذُكِرَ في مضانِّه، فاطلبه من الكتب المفصَّلَة، فإذا عرفتَ هذا علمتَ أنَّ النهيَ الموجَّه لآدم يجوزُ أن يكونَ نهيًا إرشاديًّا لا يستحقُّ العقابَ، وإنِ استَحَقَّ اللومَ والعتابَ كنواهي الطبيبِ للمريض بتجنّبِهِ أكلَ شيءٍ، فلا يترتَّب على مخالفته غيرُ التعرُّضِ للمشقَّات التي حذَّره الطبيبُ مِن الوقوعِ فيها إذا أكلَ ذلك الشيءَ المنهيَّ عنه، وعلى هذا عَلِمْتَ أنَّ النهيَ لفظٌ مشتَرَكٌ بين عِدَّة معاني، فَلَكَ أن تمنَعَني

---

(١) سورة الحشر/ من الآية: ٧.

(٢) يُنظرُ الخلافُ في هذه المسألة في: البحر المحيط في أصول الفقه، للزركشّي: ٢/ ١٦٠ -١٦١، وقوانين الأصول، للميرزا القميّ: ١٣٧، ومنتهى الأصول، حسن بن علي أصغر الموسويّ: ١/ ٣٧٦ - ٣٧٧.

مِن استعمالِهِ بالإرشاد أو غيرِه مِن المعاني بدون قرينة مخصِّصة، والجوابُ وجود القرينة، وهي عدمُ التكليف في الجنَّة، وعصمة الأنبياء التي تصرِّح بأنَّ المرادَ بالنهي النهيُ الإرشاديّ، كما بيّن نوعَ عقابِ المخالَفَةِ بقوله تعالى: ﴿يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى. إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى. وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾[1]، فكأنَّه حذَّره من مقاساة النَّصَبِ والشقاءِ والجوعِ والظَّمَأ إذا خَرَجَ مِن الجنَّة، فلو كانت هذه المخالفةُ محرَّمةً، وأنَّه وقعَ في غضبِ الله، لكان ذكرُه أحرى في هذا المقام وأنسَب من ذِكْرِ الظمأ والجوع ونحوهما، وقد صرَّح اللهُ للناس في عاقبة هذه المخالفة في قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾[2]؛ إذ لو كانت عاقبةُ هذه الزلَّة قبحَ المخالَفَة، أو الغضبِ، أو غيرهما، لذَكَرَهُ اللهُ تعالى، وليس في هذه المخالفة ما يُسقطُ آدم من رتبة التفضيل والعصمة، وكيف لا يكونُ معصومًا وهو أحدُ الأنبياء العِظام؟! وما الفائدةُ في النبيِّ إذا يزني وينهاني عن الزنا؟ وكيف يحصلُ امتناعي عن الزنا إذا رأيتُه يزني؟ ومتى احتَفَلَ في قوله: (إذا أمَرَني بالصَّلاةِ) وهو لا يصلِّي؟ فيصحُّ فيه ما قلتُه من بحر الكامل:

إنْ رُمْتَ مَنْفَعَةَ الأنامِ فلا تَعِظ ... بالقولِ قَبلَ الوَعْظِ بالأفعالِ

وكقول الآخر من الكامل[3]:

---

(١) سورة طه/ الآيات: (١١٧ - ١١٩).

(٢) سورة البقرة/ من الآية: ٣٦.

(٣) هذا بيتٌ من الكامل، وهو لأبي الأسود الدُّؤَلِّي، وقيل: للأخطل، وقيل للطِّرِمّاح،

لا تنهَ عن خُلُقٍ وتأتِيَ مثلَهُ عارٌ عليك إذا فَعَلْتَ عظيمُ

فلزم القولُ بالعصمةِ لِما مرَّ، فالمعصومُ ممَّن تمتنعُ عليه فِعلُ القبائح والإخلال بالواجبات، ولو مرَّةً واحدةً في العُمُر، لا سهوًا، ولا نسيانًا، ولا عمدًا، ولا خطأً، ولو كان قادرًا عليها. وأمَّا تعريفُ العصمة: فهي لطفٌ من الله تعالى، يُعطيه لِمَنْ يختارُه من الناس، يمنعه عمَّا ذكرناه، مع وجود القدرة والاختيار، وهي تختلفُ بالنسبة لصدورها، فمنها ما هو من المعصوم، كامتناعه عن المحرَّمات، أو قيامه بالواجبات مثلًا، ومنها ما هو من الله، كاستحالة السهو والنسيان عليه، وهي شرطٌ في النبوَّة والإمامة؛ إذ غيرُ المعصوم يجوزُ عليه الكذب، وإذا جاز ذلك عليه لم يبقَ للوثوق به وجهٌ، فينتقضُ الغَرَضُ مِنْ بَعْثِهِ، ونقضُ الغَرَضِ لا يفعلُه الحكيمُ كما بيَّنَّاه آنفًا.

ومَنْ قال بعدم عصمته تردُّه الغايةُ من المعجِزات التي تجري على يديه؛ إذ ما أجراها اللهُ على يديه إلّا لتصديقِهِ، فلو كان غيرُ معصومٍ جازَ عليه الكَذِبُ، وهو ينافي المرادَ مِن تصديقِه بإعطائه المعجِز، ولأنَّا نَعلَمُ أنَّ اللهَ لم يخلق الناسَ إلّا لغرضٍ، فوَجَبَ عليه أن يعرِّفَهم بالغَرَض، فأرسلَ الأنبياءَ

وقيل: لغيرهم. وهو من شواهد النَّحو العربيّ في مسألة نصب الفعل المضارع بـ (أنْ) المضمَرة وُجوبًا بعد واو المعيّة الواقعة في جواب النّهي. يُنظر: في: الكتاب، لسيبويه: ٣/ ٤٢، والمقتضب: ٢/ ٢٦، والأصول في النحو، لابن السراج: ٢/ ١٥٤، وشرح التصريح: ٢/ ٣٧٦، وديوان أبي الأسود الدؤليّ (الشعر المشكوك)، صنعة أبي سعيد الحسن السُكَّريّ: ٤٠٤.

لهذه الغاية، فوَجَبَتْ عصمتُهم؛ لحصول الاطمئنان بدعواهم النبوَّةَ؛ إذ غيرُ المعصوم لم يَحْصَل به الوثوقُ المطلوبُ، فتبطل فائدة بعثِه، فإن قيل يحصلُ الوثوقُ به بسبب المعاجِز التي يُبدِيها للناس، قلنا: انحطاطُ مرتبته في النفوس بسبب كذبه مثلًا يحملُ الناسَ على عدمِ الوثوق به، مع أنَّ النبيَّ أو الإمامَ يلزمُ أن يكونَ أكملَ أهلِ زمانِه، فلو كان كاذبًا، أو زانيًا مثلًا يلزمُ انحطاط رُتبَتِهِ عن غيرِه؛ لارتكابه الأمورَ التي تحطُّ من كرامته، أو تثلمُ مهابَتَه.

ومَنْ أقامَ نفسَه حاكمًا للناس يجبُ عليه التجنّبُ عن كلِّ ما فيه سوءُ السمعة، أو يُوجِبُ الظنَّ السيِّئَ، وعن كلِّ رذيلة وتهمة، ثُمَّ إنَّ النَّبيَّ أو الإمام إذا لم يكن أحدهما معصومًا وأمَرَ بمعصية، فإمَّا أن يُطاعَ أو يُعصى، والأوَّل ينافي حكمةَ الله من النهي عن المعصية، وهو نقضٌ لغرضه، والثاني فيه إيذاءُ الرسول، وقد نهى اللهُ عنه، ثُمَّ أمَرَنا بإطاعته، لقوله تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**﴾[1] أو قوله: ﴿**أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾[2]، فلو أمَرَنا بمعصيةٍ يلزمُ إطاعته فيها، وإطاعتُهُ في المعصية نقضٌ لغرض الله، وهو خُلْفٌ ومحال، وقد عرفتَ وجوبَ عصمةِ الأنبياء، فلذلك يلزمك تأويل كلِّ ما يخالف العصمة؛ لأنَّ الأمرَ الضروريَّ المعلوم إذا نافاه أمرٌ ذو وجوه يُحمَلُ على ما يوافقُه منها، فقولُ آدم: ﴿**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ**

(١) سورة الحشر/ من الآية: ٧.

(٢) سورة النساء/ من الآية: ٥٩.

الْخَاسِرِينَ﴾[1]، فالمرادُ من ظُلمه هذا ظُلمُه لنفسه بسبب إخراجها ممَّا كان فيه من نعيم الجنَّة إلى شظف العيش وشقائه، وأمَّا طلبُهُ للغفران وذكره الخسران والندم والغواية والشقاء يتصادم مع ما بَيَّنَّاه، وقول صاحب تعليم العلماء[2]: «إنَّ العاصي اسمٌ للذمِّ» باطلٌ، وعلى تقدير كونه للذمِّ فليس بالذَّمِّ المانِع من العصمة، بل هو كَذَمِّ الإنسان في قصر القامة أو طولها، أو سمنه أو هزاله أو فقره، أو ذمِّه لكونه ابن أَمَة، أو أنَّ فيه دعابة إلى نحو ذلك.

وقد بيَّنَّا معنى العصيان فليس بذمٍّ، وفي (مجمع البحرين)[3] في مادة (عصى) قال: «وفي حديث عليّ بن محمَّد[4] عن الرضا (عليه السلام) وقد سأله: يا ابن رسول الله أتقولُ بعصمة الأنبياء؟ قال (عليه السلام): نعم، قال: فما تعمل في قول الله تعالى: **﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾**[5] وفي قوله: **﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾**[6]، وفي قوله في يوسف: **﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ**

---

(١) سورة الأعراف/ من الآية: ٢٣.

(٢) هو المستر إبسون، وسيأتي ذكره.

(٣) يُنظر: مجمع البحرين، الشيخ فخر الدين الطريحي: ١/ ٢٩٤ - ٢٩٥.

(٤) هو عليّ بن مُحَمَّد بن أَحْمَد بن الجهم، أَبُو طالب الكاتب، يُعرف بابن الورَّاق، كان فقيهًا، أُصوليًّا. توفّي يوم الجمعة في النصف من ذي الحجَّة سنة ستٍّ وعشرين وثلاث مائة. يُنظر: تاريخ بغداد: ١٣/ ٥٤١، وموسوعة طبقات الفقهاء: ٤/ ٣٤٩.

(٥) سورة طه/ من الآية: ١٢١.

(٦) سورة الأنبياء/ من الآية: ٨٧.

بِـهِ وَهَـمَّ بِهَـا﴾[1]، وقولـه تعـالى في داود: ﴿وَظَـنَّ دَاوُودُ أَنَّمَـا فَتَنَّـاهُ﴾[2]، وقولـه في نبيِّـه محمَّـد (صلى الله عليه وآله وسلم): ﴿وَتُخْـفِي فِي نَفْسِـكَ مَـا اللهُ مُبْدِيـهِ﴾[3]؟ فقـال الرضـا (عليه السلام): «وَيْحَك يـا عَـليّ، اتَّـقِ اللهَ، ولا تَنسِـب إلى أنبيـاء الله الفواحـشَ، ولا تتـأوَّل كتـابَ الله برأيـك، فـإنَّ اللهَ عـزَّ وجـلَّ يقـول: ﴿وَمَـا يَعْلَـمُ تَأْوِيلَـهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِـخُونَ فِي الْعِلْـمِ﴾[4].

أمَّـا قولـه: ﴿وَعَـصَى آدَمُ رَبَّـهُ فَغَـوَى﴾، فـإنَّ الله تعـالى خَلَـقَ آدمَ حُجَّـةً في أرضـه وخليفـةً في بـلاده، ولم يخلقـه للجنَّـة - أي في ذلـك الوقـت - وكانـت المعصيـةُ مـن آدم في الجنَّـة لا في الأرض، لِتُتِـمَّ مقاديـرُ أمـرِ الله تعـالى، فلـمَّا أُهبِـطَ إلى الأرض وجُعِـلَ حجَّـةً وخليفـةً عُصِـمَ بقولـه تعـالى: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَـفَى آدَمَ وَنُوحًـا وَآلَ إِبْرَاهِيـمَ وَآلَ عِمْـرَانَ عَلَى الْعَالَمِـينَ﴾[5].

وأمَّـا قولـه تعـالى: ﴿وَذَا النُّـونِ إِذْ ذَهَـبَ مُغَاضِبًـا فَظَـنَّ أَنْ لَـنْ نَقْـدِرَ عَلَيْـهِ﴾ إنَّـما (ظـنَّ) بمعنـى استيقَـنَ أنَّ اللهَ لـن يضيِّـق عليـه رزقـه، ألا تسـمع قـول الله تعـالى: ﴿وَأَمَّـا إِذَا مَـا ابْتَـلَاهُ فَقَـدَرَ عَلَيْـهِ رِزْقَـهُ﴾[6] أي ضيَّـق عليـه، ولـو ظـنَّ أنَّ اللهَ لا يقـدر عليـه لـكان قـد كفـر.

---

(١) سورة يوسف/ من الآية: ٢٤.

(٢) سورة ص/ من الآية: ٢٤.

(٣) سورة الأحزاب/ من الآية: ٣٧.

(٤) سورة آل عمران/ من الآية: ٧.

(٥) سورة آل عمران/ الآية: ٣٣.

(٦) سورة الفجر/ من الآية: ١٦.

وأمَّا قوله في يوسف: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾[1] فإنهَّا همَّت بالمعصية، وهمَّ يوسف (عليه السلام) بقتلها؛ إذ أجبرته لعِظَمِ ما تداخله، فصرفَ اللهُ عنه قَتْلَها والفاحشةَ، وهو قول الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾[2] يعني القتلَ، والفحشاءُ الزنا.

وأمَّا خطيئة داود (عليه السلام)، فإنَّ داود إنَّما ظنَّ أنَّ ما خَلَقَ اللهُ أعلَمَ منه، فبعثَ اللهُ تعالى المَلَكَيْن فتسوَّرا المحرابَ، فقالا: ﴿خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ . إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾[3]، فقال داود (عليه السلام) للمدَّعى عليه: لقد ظَلَمَك بسؤال نعجتك إلى نِعاجه، ولم يسأل المدَّعي البيّنة على ذلك، ولم يقبل على المدَّعَى عليه، فيقول له ما تقول، فكان هذا خطيئته لا ما ذهبتم إليه[4].

وأمَّا محمَّد (صلى الله عليه وآله وسلم) [و][5] قوله تعالى له: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾[6]، فإنَّ اللهَ تعالى عرَّفَ نبيَّه أسماءَ أزواجه في دار الدنيا، وأسماء أزواجه في الآخرة، وأنهنَّ أمَّهات

---

(١) سورة يوسف/ من الآية: ٢٤.

(٢) سورة يوسف/ من الآية: ٢٤.

(٣) سورة ص/ من الآية: ٢٢، والآية: ٢٣.

(٤) في الأصل: (لا ما ذهبتم عليه)، والصواب ما أثبتناه.

(٥) سورة الأحزاب/ من الآية: ٣٧.

(٦) زيادة يقتضيها السياق.

المؤمنين، وإحدى من سمَّى له زينب بنت جحش[1]، وهي يومئذٍ تحت زيد بن حارثة[2]، فأخفى (صلى الله عليه وآله وسلم) اسمَها في نفسه، ولم يُبدِ؛ لكيلا يقول أحدٌ من المنافقين إنَّه قال في امرأة في بيت رَجُلٍ إنَّها إحدى أزواجه من أمَّهات المؤمنين، وخَشِيَ قولَ المنافقين، قال الله تعالى: ﴿**وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ**﴾[3] يعني في نفسك..»[4].

وقول المستر إبسون[5] في كتابه (تعليم العلماء في عصمة الأنبياء) ص١٧: «لأنَّ الغيَّ خلافُ الرشد..» باطلٌ؛ لأنَّ الغيَّ لفظٌ مشترَكٌ يُطلقُ على عدَّة معاني، منها خلاف الرشد، ومنها الجهل، ومنها الخيبة، وقد يُطلق ويُرادُ به أحدُ أودية جهنَّم، فتفسيره الغيَّ بما يخالفُ الرُّشدَ تفسيرٌ خالٍ من أمانة النقل وشَرَف المحاججة.

---

(١) زَيْنَب بنت جحش بن رِئَاب، زَوْجَ رَسُول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وَأمّهَا أُمَيْمَة بنت عبد المطَّلب، مَاتَت سنة عشْرين للهجرة بِالْمَدِينَةِ. يُنظر: الثقات: ٣/ ١٤٥، وأسد الغابة: ٧/ ١٢٦، وسِيَر أعلام النبلاء: ٣/ ٤٧٣.

(٢) زيد بن حارثة بن شراحيل بن عَبْد العزَّى، مولى النَّبِيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)، وكنيته أَبُو أُسَامَة، يُقَالُ: إنَّهُ مِن كلب مِن اليمن، قُتِلَ فِي معركة مؤتة. يُنظر: التاريخ الكبير، للبخاريِّ: ٣/ ٣٧٩، والجرح والتعديل: ٣/ ٥٥٩، والثقات: ٣/ ١٣٥.

(٣) سورة الأحزاب/ من الآية: ٣٧.

(٤) إلى هنا انتهى كلام الطريحي المنقول من مجمع البحرين.

(٥) لم أعثر على ترجمته.

من الأصل

«وَاصْطَفَى سُبْحَانَهُ مِنْ وَلَدِهِ أَنْبِيَاءَ أَخَذَ عَلَى الوَحْيِ مِيثَاقَهُمْ ۞ وَعَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ أَمَانَتَهُمْ لَمَّا بَدَّلَ أَكْثَرُ خَلْقِهِ عَهْدَ الله إِلَيْهِمْ ۞ فَجَهِلُوا حَقَّهُ ۞ وَاتَّخَذُوا الأَنْدَادَ مَعَهُ ۞ وَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ ۞ وَاقْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عِبَادَتِهِ ۞ فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ ۞ لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ ۞ وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ ۞ وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ ۞ وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ اَلْعُقُولِ ۞ وَيُرُوهُمْ الآيَاتِ[1] المُقَدَّرَة، مِنْ سَقْفٍ فَوْقَهُمْ مَرْفُوعٍ ۞ وَمِهَادٍ تَحْتَهُمْ مَوْضُوعٍ ۞ وَمَعَايِشَ تُحْيِيهِمْ، وَآجَالٍ تُفْنِيهِمْ، وَأَوْصَابٍ تُهْرِمُهُمْ ۞ وَأَحْدَاثٍ تَتَابَعُ عَلَيْهِمْ ۞ وَلَمْ يُخْلِ الله سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ أَوْ كِتَابٍ مُنْزَلٍ ۞ أَوْ حُجَّةٍ لازِمَةٍ ۞ أَوْ مَحَجَّةٍ قَائِمَةٍ ۞ رُسُلٌ لا تُقَصِّرُ بِهِمْ قِلَّةُ عَدَدِهِمْ ۞ وَ لا كَثْرَةُ المُكَذِّبِينَ لَهُمْ ۞ مِنْ سَابِقٍ سُمِّيَ لَهُ مَنْ بَعْدَهُ أَوْ غَابِرٍ عَرَّفَهُ مَنْ قَبْلَهُ».

اللغة

(اصطفى) أي: اختار، و(الميثاق): اليمين المؤكّدة من الوثيقة، والأصل مِوْثاق، فانقلبت الواو ياءً؛ لانكسار ما قبلها، وتُجمع على مواثيق، و(الأنداد): جمعٌ مفردُه النِّد بالكسر والتشديد، وهو المثيل، والشبيهُ مثلُه، و(اجتاله): حوّله وصرفه، و(التواتر): التتابع، وفي العُرف: هو إخبارُ جماعة يمنع تواطؤهم على الكذب عند العقل، وهو لفظيّ إذا كان النقل واحدًا، ومعنويّ إذا اختلفت الألفاظُ واتَّحدَ المعنى، و(يستأدونهم) أي يطلبون منهم أداء الميثاق، و(الفِطرة)

(١) في أكثر نسخ النَّهج: (آياتِ المَقدِرَة).

بكسر الفاء: الخِلْقَة وزنًا ومعنًى، وعلى هذا خُرِّجَ الحديثُ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ..»[1]، و(النِّعمة): اليَدُ والصنيعة والمِنَّة، وكذلك النعيم والنَّعمى والنَّعماء مقصورة وممدودة، وفُلانٌ واسعُ النعمة، أي: واسعُ المال، ونعم وبئس فعلان ماضيان، وفي (نَعِمَ) أربعُ لغاتٍ[2] نَعِمَ، ونِعِمَ، ونِعْمَ، ونَعْمَ، والنِّعمةُ: التنعُّم، والناعم: خلافُ الخشن، ورجل مِنعام، أي: رجلٌ مِفضال وزنًا ومعنًى، وتقولُ: أنْعَمَ فلانٌ أي قال: نَعَم، بفتح النون والعين، وكنانة تكسِرُها، وهي حرفُ تصديقٍ ووعد وإعلام حسب مواضع استعمالها، فإن قلت: هل تعطيني القلم؟ فتكون: نعم للوعد، وإذا قلت: جاء الرجل، فتكون للتصديق، وهلُمَّ جَرًّا.

والأنعامُ أكثرُ ما يقع على الإبل تُذكَّر وتُؤنَّث، والنِّعام: اسمُ جنسٍ، والنعامة باطن القَدَم، وعليه قول عنترة: (.. وَابْنُ النَّعَامَة يَوْمَ ذَلِكَ مَرْكَبِي)[3]، كما قيل[4]: إنَّه أراد فرسه، والنعامة والنعام اسمُ عَلَمٍ من

(١) الحديث: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ...». يُنظر: صحيح البخاري: ٢/ ١٠٠. رقم (١٣٨٥)، وصحيح مسلم: ٤/ ٢٠٤٧. رقم (٢٦٥٨).

(٢) يُنظر: الأصول في النحو: ١/ ١١١، والمفصَّل: ٣٦١.

(٣) عجزُ بيتٍ صدرُهُ:

وَيَكُونُ مَرْكَبُكِ القَعُودَ وَرَحْلَهُ ...

يُنظر: ديوان عنترة، تحقيق ودراسة: محمَّد سعيد مولويّ: ٢٧٤.

(٤) نُسب هذا القولُ إلى الأصمعيّ في: معجم الصحاح، (نعم): ٥/ ٢٠٤٣. وينظر أيضًا في: المعاني الكبير في أبيات المعاني، لابن قتيبة: ١/ ٩٠، والمُحكَم والمحيط

أعلام المفاوز، كما أنَّه أحدُ منازِل القمر، ونعمى العين: قوَّتُها، بضمِّ القاف والتشديد، والنعامى: ريحُ الجنوب، وهي أرطبُ الرياح، و(الأوصاب): المتاعب، و(الأحداث): الأمور الغير معهودة، من أسقام ومِحَن، و(المحجَّة): الطريق، و(الغابر): من الأضداد، يُرادُ بها السابق واللّاحق .

الشرح

قوله عليه أفضل الصلاة والسلام: «**وَاصْطَفَى سُبْحَانَهُ مِنْ وَلَدِهِ أَنْبِيَاءَ..**» الضمير في (وَلَدِه) يعودُ إلى آدم (عليه السلام)، أي: إنَّ اللهَ تعالى بعد أنْ أخرجَ آدمَ من نعيم الجنَّة إلى دار البليَّة وتناسل الذرِّيَّة، أعني الدنيا، اختار من أبنائه أنبياءَ يهدون الناسَ إلى عبادة ربِّهم الغرض من إيجادهم، فإنَّ ذلك لا يتمُّ إلّا بإرسال الأنبياء، فإنَّ معرفةَ الخالق وإن تكن وجدانيَّةً مرتكزة في العقول، إلّا أنَّ الطريق إلى نوع عبادته مجهول، والعقلُ لا يُدركُ منه إلّا وجودَه، وكذلك نعته بما يستحقُّ، ومحجوب عن العقل، ولهذا اختلفَ البشرُ في صفاته تعالى، فمنهم من ينسِبُ له جسمًا كأهل السُّنَّة واليهود والنصارى ونحوهم، وبعضهم يقول: إنَّه أوجَدَ العالَمَ وانعدم، وبعضهم يقول: إنَّه حلَّ بأجسام أخرى، وبعضهم يقول بتوحيده، والبعض يقول بتكثُّرِه، فَلِدَفْعِ هذا الخلاف وَجَبَ أيضًا بعثُ الأنبياء؛ لتنزيهه عمَّا لا يليقُ به، والنَّبيُّ: هو الإنسانُ المُخبِرُ عن الله بلا واسطةِ أحدٍ من البشر، والرسول أخصُّ منه، فكلُّ رسولٍ نبيّ ولا ينعكس، وبين الرسول والنبيِّ عموم وخصوص مُطلَق.

الأعظم، مادَّة (نعم)، لابن سِيدَه: ٢/ ١٩٨.

أمَّا عددُ الأنبياء، فمائة وأربعة وعشرون ألف، أفضلهم خمسة، وهم أهل العزم الذين أتوا بالشرائع، وأفضلُ أولي العزم نبيّنا محمَّد (صلى الله عليه وآله وسلم)؛ لأنَّه ادَّعى الأفضليَّةَ، وأتى بالمُعجِز، فلو كان كاذبًا، لاستحال إجراء المعجِز على يديه كما مرَّ سابقًا من امتناع إرسال الكذَّاب؛ لنقض الغرض؛ ولقبح ترجيح المرجوح على الراجح، فلزم صدقه. وهنا قضيَّة منطقيَّة مِن نوع الشكل الأوَّل، تقريرها: أنَّ محمَّدًا (صلى الله عليه وآله وسلم) ادَّعى الأفضليَّة وأتى بالمُعجِز، وكلُّ من يَدَّعي الأفضليَّة ويأتي بالمُعجِز أفضل، فمحمَّدٌ (صلى الله عليه وآله وسلم) أفضلُ[1].

أمَّا إثبات صغرى القياس[2]، فلا يحتاجُ لتجشُّم الاستدلال، فقد وَرَدَ عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) مستفيضُ قولِهِ: «**آدَمُ وَمَنْ دُونَهُ تَحْتَ لِوَائِي يَوْمَ القيامةَ**»[3]، بل حتَّى الصدر الأوَّل يُدرِكون هذا المعنى بسبب ما سمعوه منه (صلى الله عليه وآله وسلم) مشافهةً، فقال حسَّانُ بن ثابت يفضِّله على الأنبياء من بحر المتقارب[4]:

وإن كان نوحٌ نجى سالمًا ... على الفُلك بالقومِ لمَّا نجى

---

(١) هو أحدُ أشكال القياس في المنطق، والشكل الأوَّل: هو ما كان الأوسط فيه محمولاً في الصغرى موضوعًا في الكُبرى. يُنظر: المنطق، الشيخ محمَّد رضا المظفَّر: ٢٤٧.

(٢) يُريدُ بها المقدِّمة الصغرى من قياس الشكل الأوَّل المذكور آنفًا، وهي هنا: أنَّ محمَّدًا (صلى الله عليه وآله وسلم) ادَّعى الأفضليَّة.

(٣) يُنظر: مسند أحمد بن حنبل: ٤/ ٣٣٠. رقم (٢٥٤٦)، وسنن الترمذي: ٥/ ٣٠٨. رقم (٣١٤٨).

(٤) لم أعثر على هذه الأبيات في ديوان حسَّان المطبوع. ووَرَدَ أوَّلُ بيتينْ منهما في بحار الأنوار: ١٦/ ٤٠٣.

فإنَّ النبيَّ نجى سالمًا إلى الغار في الليل لمَّا دَجى
وإن كان لوطٌ دعا[2] ربَّه على القوم فاستؤصِلُوا بالبلا
فإنَّ النبيَّ ببدرٍ دعا على المشركين بسيفِ الفنا
فناداه جبريل من فوقه بلبَّيكَ لبيكَ سَلْ ما تشا

وقال كعبُ بن مالك الأنصاريّ من بحر الطويل[2]:

فَإنْ يَكُ مُوْسَى كَلَّمَ اللهَ جهرةً عَلَى جَبَلِ الطُّورِ المُنِيْفِ المُعَظَّمِ
فَقَدْ كَلَّمَ اللهُ النَّبِي مُحَمَّدا عَلَى المَوْضِعِ الأعْلَى الرَّفِيْعِ المُسَوَّمِ

بل يكفي دليلًا على أفضليَّته خبرُ (لَوْلاكَ مَا خَلَقْتُ الأفْلاكَ)[3]، ولقد أجاد الأزريُّ - رَحِمَهُ اللهُ -؛ إذ قال من الخفيف[4]:

أيُّ خَلْقٍ لله أعظَمُ مِنْهُ وَهُوَ الغايَةُ التي استقْصَاها
قَلَّبَ الخافِقَين ظَهرًا لبطنٍ فَرَأى ذاتَ أحمدٍ فاجْتَبَاها

---

(١) في الأصل: (دعى)، والصواب ما أثبتناه.

(٢) يُنظر: ديوانه: ٢٧٠.

(٣) جزءٌ من حديثٍ مرويّ عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، وفيه يخُاطبُ اللهُ (عزَّ وجلَّ) رسولَه الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)، ويُشيرُ فيه إلى أهل البيت (عليهم السلام) ومكانتهم. يُنظر: بحار الأنوار: ١٥/ ٢٧ - ٢٨.

(٤) هو الشيخ محمَّد كاظم الأزريّ. صاحب نظم الأزريَّة في مدح النَّبي والوصيِّ والآل (صلوات الله عليهم أجمعين). (مطبوعة) تنظر: ٣١ - ٣٢. والأبيات متفرّقة بفعل تخميس القصيدة.

إلى أنْ قال - رَحِمَهُ اللهُ - [1]:

لَمْ يَكُنْ أكرمَ النَّبيِّينَ حتَّى ... عَلِمَ اللهُ أنَّه أتْقَاها

نوَّهَتْ باسمِهِ السَّمواتُ والأرْ ... ضُ كمَا نوَّهتْ بصُبْحٍ ذُكَاها

وأمَّا إثبات معاجِزه الذي هو تتمَّةُ الصغرى، فقد كفى منها القرآنُ المجيد الذي أقعَدَ البلغاءَ والفصحاءَ عن معارضتِه، قال - جلَّ شأنُه - في سورة البقرة: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[2]، فهل أدلَّ على صِدق دعواه مِن هذا، فإنَّه أنصفَهم بطَلَبِ معارضته إذا كانوا في شكٍّ مِن صِدقِ ما جاءَ به، ولم يطلب منهم عسيرًا، وإنَّما طَلَبَ أن يجيؤوا[3] بكلامٍ مثلِه، وهل يجسُر محمَّدٌ وهو ذلك الرجلُ الحكيمُ أن يتحدَّى جميعَ العرب بشيءٍ عَرَفَهم بإجادته والتفنُّنِ في أساليبه لو لم يكن ذلك مِن الله الحكيم؟ أم كيف يسوّغُ له عقلُهُ الراجحُ ذلك مع تجويزِ الإتيانِ بمثله لو لم يكن من الله؟ فإنَّ مفرداتِ القرآن بعضُ ألفاظِهم، ولم يكنْ فرقٌ بين استعمالها في كلامهم واستعمالها في القرآن إلّا حُسْنَ التركيبِ وسموَّ المعاني، مع عِلمِهم بعدم تلقّيه العلومَ من مدرسة أو مدرِّس، ولو كان ذلك المدرِّس لآثَرَ نفسَه بهذا الفخر العظيم والشرف الرفيع، ولو كان لبَانَ، فمن

(١) يُنظر: المصدر نفسه: ٣٧.

(٢) سورة البقرة/ الآيتان: ٢٣ - ٢٤.

(٣) في الأصل: (يجئوا)، والصواب ما أثبتناه.

أيـن لهـذا البـدويِّ هـذه العلـوم المختلفـة وهـذا الكـمالُ السـامي، والاسـتدلالُ المتـين، والآدابُ الراقيـة، وقـد نَشَـأ بـين ظهـرانيّ أمَّـةٍ مليئـةٍ بالخرافـات، مُثقَلَـةٍ بالجهـل والتوحّـش، كادت تذهـبُ بهـا الحـروبُ، وتفنيهـا الغـزواتُ؟ فآلَـفَ بينهـم، وكانـوا أعـداءً، ذاهبًا بهـم إلى أوجِ الكـمالِ والتمـدُّنِ، حتَّـى أخضعـوا العـالمَ لأمرِهِـم، وأصبحـوا ساسـةَ الأرضِ بعـد أن كانـوا عبيدَهـا.

وَلِدِيـنِ هـذا النبـيِّ الكريـم ميـزاتٌ خاصَّـةٌ تُفضِّلُـهُ عـلى سـائر الأديـان، فاليهوديَّـةُ ديـنٌ جامـدٌ خـرافيٌّ لم يتَّفـق والعلـمَ العـصريَّ، فغايـة سـعيها لم يتعـدَّ الأمـورَ المادّيّـة الفانيـة، حتَّـى قـال أحـدُ أبنائهـا نسـيم سوسـة[1] في وصفهـا: «إنهَّـا جسـمانيَّةٌ أكثـر منهـا روحانيَّـة، وفيهـا القليـلُ ممَّـا تصبـو إليـه النفـس مـن تلطيـف المشـاعر، كالبحـث في الآخـرة، ووصـف الحيـاة الأخرويَّـة ..»[2].

أمَّـا الديـنُ المسـيحيُّ، فنقيـضُ الديانـة اليهوديَّـة مـن هـذه الناحيـة، فهـو روحـانيٌّ أكثـر منـه ماديًّـا حتَّـى وَرَدَ في إنجيـل متّـي[3]: «أقـولُ لكُـم: لا تهتمُّـوا

(١) أصبح اسمُه بعد إسلامه أحمد نسيم سوسة. وُلِدَ بمدينة الحلَّة من عائلة آل سوسة المعروفة عام ١٩٠٢م، وقيل عام ١٩٠٠م، وهي أسرة عربيَّة يهوديَّة، عاشت في الجزيرة العربيَّة. تربو مؤلَّفاتُه على الخمسين كتابًا وتقريرًا فنيًّا وأطلسًا، فضلًا عن أكثر من ١١٦ مقالًا وبحثًا نُشِرَت في الصحف والمجلَّات العلمَّية المختلفة. وتتوزَّع مؤلَّفاته على حقول الرَّيّ والهندسة والزراعة والجغرافية والتاريخ والحضارة. تُوفّي الدكتور أحمد سوسة في بغداد عام ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢م. يُنظر: موسوعة أعلام الحِلَّة: ١٤ - ١٥.

(٢) في طريقي إلى الإسلام، د. أحمد سوسة: ٥٥.

(٣) يُنظر: الكتاب المقدَّس، العهد الجديد، (بشارة متى): ١٢.

لحياتِكُم بما تأكُلون وبما تشربون، ولا لأجسادِكم بما تلبسون، ولكن اطلبوا أوَّلًا ملكوتَ الله وبرّه، وهذه تُزادُ لكم». فتعاليمُ كلتا الديانتين غير إلهيَّة، وهي أقربُ لوضع البشر مِن الوحي، وكلتاهما سائر في سبيلٍ مِن التطرّف لا ينتهي إلى حدٍّ.

أمَّا الدينُ الإسلاميُّ الحنيف، فهو كما قال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**﴾[1]، فهي البرزخُ بين اليهوديَّة والنصرانيَّة، آخذةٌ مِن الوِجهَتَين المادّيَّة والروحانيَّة بنصيبها المطلوب، وهل أحسن من قول أحدِ أئمتها[2]: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَرَكَ دُنْيَاه لآخِرَتِهِ، وَلاَ مَنْ تَرَكَ آخِرَتَهُ لِدُنْيَاه..»، ومَنْ نَظَرَ في تعاليمها الاجتماعية، وآدابها، وفرائضها، وسننها، لوجدها معجزةً لا تقلُّ عن إعجاز القرآن الكريم.

والآن فلنرجع إلى إثباتِ المقدِّمتين، فممَّا مرَّ عليك عرفتَ صحة الصغرى وثبوتها. أمَّا الكبرى وهي: كلُّ من ادَّعى الأفضليَّة وأتى بالمُعجِز أفضلُ، فبديهيةٌ لا تفتقرُ إلى دليلٍ؛ إذ لو لم يكن كذلك، للَزِمَ كذب دعواه بالأفضليَّة، والكاذبُ لا يصلحُ للرسالةِ كما مرَّ آنفًا؛ إذ لا يخلو إمَّا صدقها أو كذبها، وكذبها ممنوع؛ لما مرَّ، فتعيَّن صدقُها، فالآن يلزمنا أن نحذفَ المتكرِّر[3]،

---

(١) سورة البقرة/ من الآية: ١٤٣.

(٢) هو الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام). يُنظر: من لا يحضره الفقيه: ٣/ ١٥٦، والوافي، للفيض الكاشاني: ١٧/ ٤١.

(٣) وهو المحمولُ في الصغرى، الموضوع في الكُبرى، وهو قولُ المؤلِّف - رحمه الله - المذكور آنفًا: (ادَّعى الأفضليَّة وأتى بالمُعجز، وكلُّ من يَدَّعي الأفضليَّة ويأتي

فينتج: (محمَّدٌ أفضلُ)، وهو المطلوب.

وقوله (عليه السلام): «**أَخَذَ عَلَى الوَحْيِ مِيثَاقَهُمْ ۞ وَعَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ أَمَانَتَهُمْ، لَمَّا بَدَّلَ أَكْثَرُ خَلْقِهِ عَهْدَ اللهِ إِلَيْهِمْ**» فيه تقديمٌ وتأخير وحذف، والتقدير: أخذ ميثاقَهم على أداء الوحي، وأكَّده بقوله: «وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم»، فكلُّ نبيٍّ أخذَ اللهُ عليه الميثاقَ أن يبلِّغَ الناسَ ما يوحيه إليهم من أحكامٍ شرعيَّة؛ كي لا تكون للناس على الله حُجَّةٌ بعدَ الرُّسُل، كقوله تعالى يوم غدير خمٍّ مخاطبًا نبيَّه محمدًا (صلى الله عليه وآله وسلم) في تبليغ ولاية الإمام الأمير (عليه السلام): ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾[1]، فجَمَعَ النَّاسَ وخطبَهم خطبةً بليغةً، رَفَعَ فيها من شأن أمير المؤمنين وعَقَدَ بيعتَه، وقال: «**يَا عَلِيّ أَنْتَ مِنِّي بِمَنزِلَةِ هارُون مِنْ مُوسى إلّا أَنَّهُ لا نَبِيَّ بَعْدِي**»[2].

وممَّا يُناسبُ هذا المقامَ أنَّ امرأةً ادَّعت النبوَّةَ في عهد هارون الرشيد، فبَعَثَ نحوَها وسألها عمَّا بَلَغَهُ عنها، فَلَم تُنكِر، فقال لها: إنَّ النبيَّ يقول لعليٍّ يوم الغدير: (أنت منِّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنَّه لا نبيَّ بعدي)،

بالمُعجِز أفضل، فمحمَّدٌ (صلى الله عليه وآله وسلم) أفضلُ).

(١) سورة المائدة/ من الآية: ٦٧.

(٢) يُنظر: هذا الحديث في: صحيح البخاريّ: ٥/ ١٩. رقم (٣٧٠٦)، ٦/ ٣. رقم (٤٤١٦). وصحيح مسلم: ٤/ ١٨٧٠ - ١٨٧١. رقم (٢٤٠٤). ورسائل الشريف المرتضى: ٤/ ٧٦، ومصباح المتهجِّد، الشيخ الطوسيّ: ٤٠٠، وبحار الأنوار، للمجلسيّ: ٣٧ / ٢٥٤ - ٢٨٩.

فقالت: صدق أخي محمَّد، قال: لا نبيَّ بعدي، وَلَم يقل: لا نبيَّةَ بعدي[1].

وادَّعى الرسالةَ رجلٌ في عهد المأمون، فبَعَثَ نحوَه، واستدلَّ عليه بالحديث الآنف الذكر، فأجابه: إنَّ أخانا محمَّدًا لم يقل: لا رسول بعدي، وأنا رسول. وادَّعى النُّبوَّة آخرُ، فسأله المنصور عن دليله، فقال: معجزتي أنِّي أموت في اليوم ثلاث مرَّات من الجوع، وأعود حيًّا.

وادَّعى أحدُ الجَهَلَةِ المعاصرين النبوَّة في الحِلَّة، فسألوه عن مُعْجِزِهِ، فقال: جهلي، فلا يستطيع أحدٌ أن يجيء بمثله. وادَّعى النبوَّةَ آخرُ، فقال له هارونُ الرشيد: أسألك فإن أصبتَ في الجواب أنت نبيٌّ حقٌّ، وإلّا أخذتُ رأسَك، فقال: سل يا أمير ما بدا لك، فقال هارون: أين قبلة استك؟ فأجابه المتنبِّئُ على الفور: ذقنُك يا أمير، فضحك وأخرجَه. وأظنُّ أنَّه أجابَ بالصواب، وإلّا فقد وَعَدَ أن يقتله إذا لم يجب بالصواب.

وادَّعى أحدُهم النبوَّةَ، فقيل له: إن كنت صادقًا، فادعُ هذه الشجرةَ، فإن انقَلَعت وأتتكَ نَعلَمُ أنَّك نبيٌّ كما تدَّعي، وإلّا عَلِمنا أنَّك كاذبٌ، فذهب معهم إلى شجرة بالقرب منهم ونادى ثلاث: انقلعي يا أيَّتها الشجرة المباركة، فَلَم تتحرَّك الشجرةُ عن مكانها، فذهبَ الرجلُ نحوَها، فقالوا له: أما قلتَ إنَّها تنقَلِعُ وتأتيك؟! فقال لهم: نحن معاشر الأنبياء لا نتكبَّر، إذا لم تأتِ الشجرةُ أنا أذهبُ إليها.

---

(١) تنظر هذه الحكاية في نثر الدرّ في المحاضرات، لأبي سعد الآبّي: ٢/ ١٥٥، والتذكرة الحمدونيَّة، لبهاء الدين البغداديّ: ٧/ ٢٤١.

وأتى للمعتصم العبّاسيّ رجلٌ يزعم أنَّه نبيٌّ، فقال له المعتصم: أشهد أنَّك نبيٌّ مجنونٌ، فأجابه الرجل: صدقت، ولهذا أتيتُ إليك حيث إنَّ اللهَ يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾[1].

وادَّعى النبوَّةَ آخرُ، فبَعَثَ نحوَه الرشيدُ، ولما استوى مجلسُه عندَه، قال له: إنَّك تدَّعي النبوَّةَ، فقال الرجلُ: نعم، إنِّي نبيٌّ، وحقِّ قبرِ الكعبةِ ولِحِيَةِ الله، فقال الرشيد: إنِّي سمعتُ أنَّك تكذب، فأجابه الرجل: إنِّي - يا أمير - لم أكذب إلّا مرَّةً واحدة، فقال هارون الرشيد: ومتى كان ذلك؟ فقال الرجل: إنَّه جرى ذكرُك في مجلس، فذمَّك الناسُ ومدحتُك، وغيرُ هذه المرَّة لم أكذب.

وتنبَّأَ رجلٌ في عهد المأمون العبَّاسيّ، فلمَّا جِيءَ به إليه، قال له: إلى مَنْ بُعِثتَ أيُّها النبيُّ، فقال الرجل: إلى أصفهان، فقال له المأمون: ولماذا لم تذهب إليها؟ فقال الرجل: وكيف أذهب إلى هناك بلا نفقة؟ فضحك ووَصَلَه.

وادَّعى آخرُ النبوَّةَ، فاستدعاه هارونُ الرشيد، ولَمَّا مَثُلَ بين يديه قال له: أحقًّا أنَّك نبيٌّ؟ فقال الرجل: أجل، فقال هارون الرشيد: إذا كنت نبيًّا فَأَرِني صورةَ الشيطان، فقال الرجل: انظر يا أمير بالمرآة، فإنَّك سترى صورة الشيطان الحقيقيّ.

وادَّعى النبوَّةَ رجلٌ في زمن الرشيد، فَلَمَّا أحضرَه قال: إنَّ النبيَّ لا يجهلُ شيئًا يُسأَل به، فقل: ما الفاعلُ؟ وما المفعول؟ فقال الرجل: أنا الفاعل وأنت المفعول، فقال الرشيد: إنَّ لفظة (ما) تُستعمَلُ لِما لا يَعقِل، فقال الرجل:

---

(١) سورة إبراهيم/ من الآية: ٤.

أجل، فأنت لا تَعقِل؛ إذ تدَّعي بالخلافة وأنت تعرف صاحبَها موسى بن جعفر، وأنا لا أعقِل؛ إذ أدَّعي النبوَّة.

وكان رجلٌ ذا لِحيةٍ طويلة يحافظُ عليها، وبعد مدَّة ادَّعى النبوَّةَ، وحَلَقَ لحيتَه، فسأله أحدُهم: إنَّك قبلَ أن تكون نبيًّا كنت أتقى؛ إذ لم تحلق لحيتَك وِفقَ أوامر الشريعة، فأجابه: إنَّك لا تعلم بالسبب، فقال الرجل: ما السبب؟ فقال: لا أستطيع أن أحمل النبوَّة ولحيتي، فألقيتُ أثقلَهما.

وادَّعى النبوَّةَ غيرُه، فبعث نحوَه الرشيدُ، وسأله عن صدق دعواه، فقال له: نعم، إنِّي نبيٌّ حقٌّ، فقال الرشيد: إنَّ عندي قفلًا عَجَزَتْ عن فتحِهِ أكثرُ الناس، فإن فتحتَه أنت آمنتُ بك[1]، فقال له الرجل: أنا قلت لك: إنيِّ نبيّ، ولم أقل لك: إني حدّاد[2]. وادَّعى غيرُه النبوَّةَ، فبَعَثَ نحوَه الرشيدُ، وحاوره في دعواه، وفي الأخير قال له: أنت مبعوثٌ إلى الحمير، فقال له الرجلُ: إذن وجبت عليك طاعتي.

وادَّعى النبوَّةَ بعضُ المفلِسين، فبَعَثَ نحوَه الرشيدُ وسألَه عن قصَّته، فقال: أنا نبيٌّ، أرسلني الله تعالى لهداية الناس، فقال الرشيد: هل ينزل عليك الوحي؟ قال: أجل، فقال: ومتى ينزل؟ فقال: يوم الجمعة، وكانت هذه المحاورة يوم السبت، فسجنه الرشيد في غرفة صغيرة قرب المطبخ إلى يوم الجمعة، وكان هذا المتنبي ذا مَكرٍ ودهاء، استطاع أن يصادقَ الطاهي ويعطيه

---

(١) في الأصل: (فيك)، والصواب ما أثبتناه.

(٢) يُنظر: نثر الدر في المحاضرات: ٢/ ١٥٧.

أحسنَ الطعام سِرًّا، ومكثَ على ذلك إلى أن أتى يوم الجمعة، فبعث الرشيدُ نحوه، ولَمَّا حضر سأله: هل نزل عليك الوحي؟ فقال: أجل، فقال له: ماذا هو؟ فقال الرجل: يقول لي إيَّاك أن تفارقَ الطاهي، فإنَّك إن فارقته تَمُتْ جوعًا.

ولنعد إلى شرح الفقرات، فقوله (عليه السلام): «**لَمَّا بَدَّلَ أَكْثَرُ خَلْقِهِ عَهْدَ اللهِ إِلَيْهِمْ..**»، فـ(**لَمَّا**) ظرفيَّة بمعنى (حين)، وجملة (جهلوا حقَّه) جوابُها، والفاء رابطة، وهنا إشكالٌ، وتقريره: إنَّ صريحَ كلام أمير المؤمنين(عليه السلام)إنَّ الأنبياءَ أُرسلوا إلى الخلق حين بدَّلَ أكثرُهم عهدَ الله إليهم، واتخذوا الأندادَ معه، فكيف تركهم الله بلا نبيٍّ حتَّى جَهِلوا حقَّه، واتخذوا الأندادَ معه، مع أنَّ آدمَ أوَّلُ الأنبياء وهو أوَّلُ البشر، [و] مع[1] أنَّ نفس فقرات هذه الخطبة تصرِّح أنَّ الله لم يترُك خلقَه مِن نبيٍّ مُرسَلٍ، أو كتابٍ مُنزَلٍ، أو حُجَّةٍ قائمةٍ؟ ودَفْعُ الإشكالِ أنَّ الأميرَ (عليه السلام) لا يريدُ كافَّة الأنبياء بهذا الوصف، ليتَّجهَ الإشكال، وإنَّما أرادَ بعضَهم، فيخرُج البعض الآخر كآدم (عليه السلام).

وقوله (عليه السلام): «**وَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ ۞ وَاقْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عِبَادَتِهِ..**» أي: صَرَفَتهم بالوساوس والشبهات عن معرفة الله تعالى، واقتَطَعَهم عن عبادته: أي فصلتهم عنها.

وقوله :(عليه السلام) «**فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ..**» أي: إنَّ الناس لَمَّا تنكَّبوا الطريقَ السويَّ، وأشركوا بالله، بَعَثَ إليهم رسلَه الكرام؛ لأجلِ هدايتهم وإرشادهم إلى عبادة الله تعالى لهذه الغاية، كما قال (عليه السلام): «**لِيَسْتَأْدُوهُمْ**

---

(١) الواو ليست في الأصل، والسياق يقتضيها.

مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ ۞ وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ..» ويريد بـ(يستأدوهم) طَلَبَ الأنبياءُ والرسلُ من الناس أداءَ ميثاق فِطرَة الله تعالى، مِن التوحيد الذي أخذَه عليهم في عالم الذَّرِّ، وهو قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى..**﴾[1] مع تذكيرهم للناس نِعَمَ الله التي نسوها بسبب الاشتغال بالدنيا الفانية، والانصراف عن الآخرة، ويحتجُّوا عليهم بالتبليغ، لإقناعهم وإرجاعهم إلى معرفة الله وعبادته.

وقوله (عليه السلام): «**وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ العُقُولِ**» أي: إنَّ الأنبياءَ والرسل بعد هدايتهم للناس يثقّفون أذهانَهم بنواصِعِ الحِكَم وأنوار العلوم، وقد استعار (عليه السلام) لفظَ الإثارة بعد أن استعارَ للحِكَم والعرفان لفظَ الدفائن، أي الكنوز؛ للمناسبة بين اللفظتين.

ثُمَّ قال (عليه السلام): «**وَيُرُوهُمْ الآيَاتِ المُقَدَّرَة..**» يريدُ أنَّ الأنبياءَ إنَّما بُعثوا لِمَا بيَّنّاه، ولأجل أن يُرُوا الناسَ آياتِ الله التي قَدَّرَها فأحسنَ تقديرها؛ وذلك كما قال (عليه السلام): «**مِنْ سَقْفٍ فَوْقَهُمْ مَرْفُوعٍ ۞ وَمِهَادٍ تَحْتَهُمْ مَوْضُوعٍ..**» يريد بالأوَّل السماءَ، وبالثاني الأرض، فإن قلتَ: كيف يُرسلُ الأنبياء لأجل أن يرووا الناس السماء والأرضَ والمعايشَ ونحوَها، وكلُّ ذلك حاصلٌ لديهم، وهم يَرَوْنَ السماءَ والأرضَ في كلِّ يومٍ؟ فنقول: إنَّه أرادَ (عليه السلام) رؤيَةَ التدبُّرِ والتفكير، لا مُطلَقِ الرؤيةِ البصريَّة، فإنَّ التفكيرَ في آثار الله مُرَغَّبٌ فيه، كقوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ**

(١) سورة الأعراف/ من الآية: ١٧٢.

مِـنْ شَيْءٍ﴾[1]، وقولـه تعـالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْـقِ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِـلَافِ اللَّيْـلِ وَالنَّهَـارِ لَآيَـاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَـابِ . الَّذِيـنَ يَذْكُـرُونَ اللهَ قِيَامًـا وَقُعُـودًا وَعَلَى جُنُوبِهِـمْ وَيَتَفَكَّـرُونَ فِي خَلْـقِ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَـا مَـا خَلَقْـتَ هَذَا بَاطِـلًا سُـبْحَانَكَ فَقِنَـا عَـذَابَ النَّـارِ﴾[2]، وقولـه تعـالى: ﴿أَوَلَـمْ يَتَفَكَّـرُوا فِي أَنْفُسِـهِمْ مَـا خَلَـقَ اللهُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَـا بَيْنَهُمَـا إِلَّا بِالْحَـقِّ..﴾[3]؛ لتحصـل النتيجـة السـامية، وهـي الاعتقـادُ بـأنَّ الله لم يخلُـقِ الكَـونَ باطـلًا، وأنَّ الـذي أوجَـدَ السـماءَ والأرضَ لقـادرٌ حكيـم واجـبُ الوجـودِ، وكلُّ ذلـك يـأتي مـن طريـق التفكُّـر، وإمعـان النظـر في هـذه الموجـودات، فإنَّهـا تـدلُّ بالبداهـة عـلى حـدوث العـالَم، ولذلـك أوعَـدَ مَـن نَظَـرَ هـذا ولم يُؤمِـن في قولـه عـزَّ مـن قائـل: ﴿وَمَـنْ أَظْلَـمُ مِمَّـنِ افْـتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًـا أَوْ كَـذَّبَ بِآيَاتِـهِ إِنَّـهُ لَا يُفْلِـحُ الظَّالِمُـونَ﴾[4]، والأمـيرُ (عليه السلام) أنزلَهـم منزلـةَ الأعمـى أو الغافـل، وجَعَـلَ بَعْـثَ الرسـلِ إليهـم لإبصارهـم وتنبيههـم مـن غفلَتِهـم.

وقولـه (عليه السلام): «وَمَعَايِـشَ تُحْيِيهِـمْ وَآجَـالٍ تُفْنِيهِـمْ..» إشـارة إلى حدوثهـم، لتغيُّرهـم مـن حيـاة إلى ممـات، بسـبب المعايـش والآجـال، وكلُّ متغـيِّرٍ حـادثٌ، وكلُّ حـادثٍ يحتـاجُ للمحـدِث، فـدلَّ هـذا أيضًـا عـلى وجـوبِ وجـودِ واجـبِ الوجـود.

---

(١) سورة الأعراف/ من الآية: ١٨٥.

(٢) سورة آل عمران/ الآيتان: ١٩٠ - ١٩١.

(٣) سورة الروم/ من الآية: ٨.

(٤) سورة الأنعام/ الآية: ٢١.

وقوله (عليه السلام): «**وَأَوْصَابٍ تُهْرِمُهُمْ ۞ وَأَحْدَاثٍ تَتَابَعُ عَلَيْهِمْ..**» فهم عرضة للموت والحياة، والأوصاب والهرم والأحداث، وكلُّ هذه حادثةٌ، وما لا ينفكُّ عن الحادثِ حادثٌ، وقد بيَّنّاه آنفًا.

وقوله (عليه السلام): «**وَلَمْ يُخْلِ اللهُ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ أَوْ كِتَابٍ مُنْزَلٍ ۞ أَوْ حُجَّةٍ لازِمَةٍ ۞ أَوْ مَحَجَّةٍ قَائِمَةٍ**» صريحٌ بأحقِّيَّة مذهبِ الشيعة القائلين باستحالة خُلوِّ الزَّمانِ من نبيٍّ أو وصيِّه، يُرشِدون النَّاسَ إلى ما فيه مصلَحَةٌ دينيَّة أو دنيويَّة، ويحذِّرونهم عمَّا فيه ضَرَرٌ دينيّ أو دنيويّ.

أمَّا وجوبُ إرسالِهِ، فلأنَّ الغايةَ من إيجاد الخَلْقِ هو المصلحةُ العائدةُ إليهم لا إلى الله، ولمَّا كانت المصلحةُ مجهولةً عليهم وَجَبَ عليهم تعيينُ مَنْ يُرشِدُ إليها، ويحذِّرهم مِن شرِّ غيرها.

أمَّا في الأمور الدنيويَّة، فيلزَمُ[1] إيجاد عادل ينقادُ الناسُ لأوامره ونواهيه؛ رفعًا للتخالف الناتج عن الأنانيَّة، الذي قد يضمحلُّ النوعُ الإنسانيُّ بسببه، فلَوَ كان اختيارُ هذا الزعيم العادل موكولًا لرأي الناس أيضًا، لحصَلَ التخالفُ المحذور منه؛ لاختلافِ النَّاسِ في الآراء والأهواء بحسب اختلاف طباعهم، فلا بُدَّ من عادلٍ يتميَّزُ عنهم بآياتٍ ومعجزاتٍ تكفي لتصديقه في دعواه، ويكونُ هذا أدْعَى إلى انقيادهم لأقواله وأوامره.

وأمَّا في الأمور الأخرويَّة، فلمَّا كانت سعادتُها غيرُ حاصلةٍ إلّا بعد كمالِ النَّفسِ وتنزيهها عن ذميمِ الأخلاقِ ورذائلها، والتحلِّي بشريف الصفات

(١) الأصل من دون الفاء الرابطة، والسياق يقتضي إضافتها.

وفضائلها، وتطهير القلب من أدران المساوئ، ولمَّا كان انهماكُ الناس بالأمور الدنيويَّة، وميلهم إلى الملاذِّ والشهوات، من مأكَلٍ أو مشرَبٍ أو ملبَسٍ أو طَرَبٍ أو لَهوٍ أو كَيدٍ أو حبِّ السمعة، مانعًا عن نيل السعادة على الوجه الأكمل، والعقلُ غيرُ كافٍ في الإرشاد، كما يذهب إليه البراهمة[1]؛ لجواز اعتراض الشكِّ، وعدم حصول الجزم بما يشيرُ إليه العقل، كالاختلاف الذي نراه بين العقلاء، فلو كان العقلُ يكفي عن الرسل ما اختلفوا، وتنازعوا، وعبدوا الأصنام، ووأدوا البنات، ونكحوا المحرَّمات، فلا بدَّ - والحالةُ هذه - من وجودِ رئيسٍ كامِلٍ لم يتَّصِف بذلك المانِع، فيزيلُ الشبهاتِ، ويُقيمُ العدلَ، ويهدي الناسَ إلى طريقِ نجاتِهم، ويُعضِّدُ ما اهتدت إليه عقولُهم مِن حبِّ الإنصاف، وحُسن الصدق، ومعرفة الخالق، ونحو ذلك من الأمور الدنيويَّة والأخرويَّة، ويُبيِّنُ لهم نوعَ العبادة، وما يجبُ أن يتَّصِفَ به الخالقُ، وما لا يجب أن يتَّصِفَ به، على وجهِ المتابعة في التذكير؛ لأنَّ النسيانَ والغفلةَ طبيعةٌ بشريَّةٌ، وما في الطبع لا يتخلَّفُ، فلزمَ إيجادُ ذلك الرئيس الكامل الذي يُلقَّبُ بالنبيّ أو الإمام في كلِّ زمان، كما يشيرُ إليه قوله (عليه السلام): «**وَلَمْ يُخْلِ اللهُ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ أَوْ كِتَابٍ مُنْزَلٍ ۞ أَوْ حُجَّةٍ لازِمَةٍ..**».

وأما قولُ ابن أبي الحديد[2]: «يمكنُ أن يكونَ المرادُ بها حجَّةُ العقل»، فليس بصواب؛ لأنَّ العقلَ كما بيَّنّاه لا يكفي أن يكون حجَّةً في كلِّ شيء يريده

---

(١) وهم قوم منكرون للنبوّات أصلاً. انتسبوا إلى رجل منهم يُقال له براهم، وقد مَهَّدَ لهم نَفيَ النبوّات، وقَرَّرَ استحالة ذلك في العقول. يُنظر: الملل والنحل: ٣/ ٩٥ - ٩٦.

(٢) يُنظر: شرح نهج البلاغة: ١/ ١١٥.

الله، ويُرادُ بالحُجَّةِ هنا الحجَّة على الإنسان بجميع جزئيَّات الشريعة وكلِّياتها، لا خصوص شيءٍ واحدٍ، ولو كان العقلُ هو المراد، لَوَقَعَ الخُلْفُ[1]؛ لوجود الكثير من المجانين الذين خَلَوا من العقل، وعلى كلِّ فرض سواءً كان العقلُ هو المراد أو الإمام لَزم ممَّا بيَّنّاه وجوبُ وجودِ الإمام أو النبيّ في كلِّ عصر، وهو أفضلُ أهل زمانه؛ لقُبح تقديم المفضول على الفاضل، ولقوله تعالى: ﴿**أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**﴾[2].

وقوله (عليه السلام): «**مِنْ سَابِقٍ سُمِّيَ لَهُ مَنْ بَعْدَهُ..**» أي نبيٌّ سابقٌ أعلَمَهُ اللهُ بمن يجيء بعدَه مِن رسولٍ.

وقوله (عليه السلام): «**أَوْ غَابِرٍ عَرَّفَهُ مَنْ قَبْلَهُ..**» يريد أو نبيّ متأخِّر ظهورُه بشَّرَ به النبيُّ السابقُ، وعرَّف أمَّتَه بظهوره، والفرق بين الجملتين: أنَّ الأولى تفيدُ أنَّ النبيَّ السابقَ عَلِمَ مَنْ يجيءُ بعدَه بواسطة غيرِه، وهو نائب الفاعل لـ(سميَّ)، وأمَّا الجملةُ الثانيةُ، فتُفيدُ أنَّ النبيَّ اللاحِقَ عرَّفَهُ النبيّ السابق على

---

(١) الخُلْفُ: هو استدلالٌ غيرُ مباشر يُبرهَنُ به على كذبِ نقيض المطلوب، ليستدلَّ به على صِدق المطلوب. وهو في الأشكال خاصَّةً يؤخذُ نقيض النتيجة المطلوب إثباتها، فيقال: لو لم تصدق لَصَدَق نقيضُها، وإذ فَرَضَ صدق النقيض يضمُّ إلى إحدى المقدّمتين المفروض صدقها، ليتألف من النقيض، وهذه المقدّمةُ ضربٌ من ضروب الشكل الأوَّل، فينتج ما يناقض المقدّمة الأخرى الصادقة بالفرض. يُنظر: المنطق: ٢٦٢ - ٢٦٣.

(٢) سورة يونس/ من الآية: ٣٥.

سبيل البشارة، ويكونُ هو الفاعل لهذا التعريف، وأيضًا يجوزُ أن يكونَ الفرقُ أنَّ النبيَّ الأوَّلَ قد سُمِّي له مَن بعده، ولم يُبشِّر به وينوِّه بظهورِه، وأمَّا الجملةُ الثانيةُ، فتُفيدُ التعريفَ والتبشيرَ، وردُّ ابن أبي الحديد على تفسير الراونديّ لهذه الفقرات إذا كان صادقًا في النقل أحسنُ رَدٍّ وتفنيدٍ.

من الأصل

«عَلَى ذَلِكَ نَسَلَتِ القُرُونُ ۞ وَمَضَتِ الدُّهُورُ ۞ وَسَلَفَتِ الآبَاءُ ۞ وَخَلَفَتِ الأَبْنَاءُ ۞ إِلَى أَنْ بَعَثَ الله سُبْحَانَهُ مُحَمَّدًا رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عليه وآلِهِ لإِنْجَازِ عِدَتِهِ ۞ وَتَمَامِ نُبُوَّتِهِ ۞ مَأْخُوذًا عَلَى النَّبِيِّينَ مِيثَاقُهُ ۞ مَشْهُورَةً سِمَاتُهُ ۞ كَرِيمًا مِيلاَدُهُ ۞ وَأَهْلُ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مِلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ ۞ وَأَهْوَاءٌ مُنْتَشِرَةٌ ۞ وَطَوَائِفُ مُتَشَتِّتَةٌ ۞ بَيْنَ مُشَبِّهٍ للهِ بِخَلْقِهِ أَوْ مُلْحِدٍ فِي اسْمِهِ ۞ أَوْ مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِهِ ۞ فَهَدَاهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلاَلَةِ ۞ وَأَنْقَذَهُمْ بِمَكَانِهِ مِنَ الجَهَالَةِ ۞ ثُمَّ اخْتَارَ سُبْحَانَهُ لِمُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وآله لِقَاءَهُ ۞ وَرَضِيَ لَهُ مَا عِنْدَهُ، وَأَكْرَمَهُ عَنْ دَارِ الدُّنْيَا ۞ وَرَغِبَ بِهِ عَنْ مُقَارَنَةِ البَلْوَى ۞ فَقَبَضَهُ إِلَيْهِ كَرِيمًا صلَّى اللهُ عليه وآله ۞ وَخَلَّفَ فِيكُمْ مَا خَلَّفَتِ الأَنْبِيَاءُ فِي أُمَمِهَا إِذْ لَمْ يَتْرُكُوهُمْ هَمَلًا بِغَيْرِ طَرِيقٍ وَاضِحٍ ۞ وَلا عَلَمٍ قَائِمٍ ۞ كِتَابَ رَبِّكُمْ مُبَيِّنًا حَلاَلَهُ وَحَرَامَهُ ۞ وَفَرَائِضَهُ وَفَضَائِلَهُ ۞ وَنَاسِخَهُ وَمَنْسُوخَهُ ۞ وَرُخَصَهُ وَعَزَائِمَهُ ۞ وَخَاصَّهُ وَعَامَّهُ ۞ وَعِبَرَهُ وَأَمْثَالَهُ ۞ وَمُرْسَلَهُ وَمَحْدُودَهُ ۞ وَمُحْكَمَهُ وَمُتَشَابِهَهُ ۞ مُفَسِّرًا مُجْمَلَهُ ۞ وَمُبَيِّنًا غَوَامِضَهُ، بَيْنَ مَأْخُوذٍ مِيثَاقُ عِلْمِهِ ۞ وَمُوَسَّعٍ عَلَى العِبَادِ فِي جَهْلِهِ ۞ وَبَيْنَ مُثْبَتٍ فِي الكِتَابِ فَرْضُهُ ۞ وَمَعْلُومٍ فِي السُّنَّةِ نَسْخُهُ ۞ وَوَاجِبٍ فِي السُّنَّةِ أَخْذُهُ ۞ وَمُرَخَّصٍ فِي الكِتَابِ تَرْكُهُ ۞ وَبَيْنَ وَاجِبٍ بِوَقْتِهِ ۞ وَزَائِلٍ فِي مُسْتَقْبَلِهِ ۞ وَمُبَايَنٌ بَيْنَ مَحَارِمِهِ ۞ مِنْ

كَبِيرٍ أَوْعَدَ عَلَيْهِ نِيرَانَهُ ۞ أَوْ صَغِيرٍ أَرْصَدَ لَهُ غُفْرَانَهُ ۞ وَبَيْنَ مَقْبُولٍ فِي أَدْنَاهُ ۞ وَمُوَسَّعٍ فِي أَقْصَاهُ».

اللغة

(النَّسْلُ) بالفتح والسكون: الولد، والنَّسَل بالتحريك: اللَّبَنُ الذي يخرُجُ بنفسه مِن الإحليل، والنَّسيل: العسل إذا ذابَ وفارَقَ الشمعَ، والنُّسال بضمِّ النون والتسكين: ما سقطَ من ريش الطيور ووبر البعير ونحوها، ونَسَلَ الثوبُ: سقط، ونَسَلَ يَنْسِلُ نَسْلًا ونَسَلان: أسرَعَ، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾[1] وَسُمِّيَتْ الذّرِّيَّةُ نَسْلاً؛ لانفصالها من الرجل، و(القرون): جمع قَرْن، وهو أهلُ زمانٍ واحد، وعليه قول الشاعر من الطويل[2]:

إذا ذَهَبَ القَرْنُ الذي أنتَ فيهِمُو ... وخُلِّفْتَ فى قَرْنٍ فأنتَ غَرِيبُ

والقَرنُ ثمانون سنة، وقيل: ثلاثون، وقيل: مئة، والقرن: شبيهك في السنّ، والقرن: الخصلة من الشَّعَر بالتحريك، ومنه قول أبي سفيان: (الرُّوم ذات القرون)[3]، والقرن: جانب الرأس، و(الدُّهُور): جمع دَهْر، وهو عبارة

---

(١) سورة يس/ من الآية: ٥١.

(٢) هو لَأبي مُحَمَّدٍ التَّمِيْمِيّ أو التيميّ في البيان والتبيين، لأبي عثمان الجاحظ: ٣/ ١٣٣، وزهر الآداب: ٣/ ٨٦١، والحماسة البصريَّة: ٢/ ٤٧. وروايةُ صدر البيت في هذه المصادر:

إِذا مَا مَضى القَرْنُ الَّذي أَنْتَ فِيهِمُ ...

(٣) قال أبو سفيان للعبَّاس بن عبد المطَّلب عندما رأى طاعةَ المسلمين للنبيِّ (صلى الله عليه وآله وسلم): تَالله مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ طَوَاعِيَةً قَوْمٌ جاؤوا من ههنا وههنا وَلا فَارِسَ الْكِرَامَ وَلا الرُّومَ ذَاتَ الْقُرُونِ. يُنظر: فتوح البلدان، للبلاذريّ: ٤٧، ولسان العرب، (قرن): ١٣/ ٣٣٤.

عن الزمان، و(سَلَفَتْ): مضتْ، كقولك: عفا الله عمَّا سَلَف، و(السِّمات) على وزن السهام: جمع سِمَة، وهي العَلامة، و(المِلَل): جمعُ مِلَّة بكسر الميم والتشديد، وهي الدين والشريعة، وعليه قوله تعالى: ﴿**مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ**﴾[1]، وقوله: ﴿**مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ**﴾[2]، و(الأهْوَاءُ): جمع هوًى، وهو إرادة النفس وميلانُها، و(الطَّوَائف): جمع طائفة، وهي الجماعة من الناس، وقيل: من الواحد فصاعدًا، و(الهَمَل) بالتحريك: الإبل بلا راعٍ، وتَرَكَها هَمَلًا أي: سُدًى بلا فائدة، و(أرْصَدَ غُفْرانَه) أي: أعدَّ له غُفرانَه.

الشرح

قوله عليه أفضل الصلاة والسلام: «**عَلَى ذَلِكَ نَسَلَتِ القُرُونُ ۞ وَمَضَتِ الدُّهُورُ..**» أي: الأزمنةُ والأيَّامُ مَضَتْ على ما ذَكَرَه (عليه السلام) آنفًا من تغيّر أحوال الناس، وعدم خلوّ كلِّ زمان من حجَّة قائمة كالنبيِّ والإمام، وعدم تصديق الناس دعوى النبيّ ودعوى الإمام إلّا بعد تكذيبهم، ومكابدة المِحَن في سبيل دعوتهم. ومَنْ فَسَّرَ (نَسَلَ) بمعنى ولد أراد المعنى المجازي، وهو الإشارة إلى حدوث القرون وتجديدها كشأن المولود.

وقوله (عليه السلام): «**وَسَلَفَتِ الآبَاءُ ۞ وَخَلَفَتِ الأَبْنَاءُ..**» أي: إنَّ الآباء قد مَضَتْ، والأبناءَ خَلَفَتْهُم (بالتسكين) وَلَحِقَتْهم، والزمانُ لم يَزَل يجري على الحالة التي ذكرناها من الأمور المارَّة آنفًا. وقوله (عليه السلام): «**إِلَى أَنْ بَعَثَ الله**

(١) سورة ص/ من الآية: ٧.

(٢) سورة الحج/ من الآية: ٧٨.

سُبْحَانَهُ مُحَمَّدًا رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عليه وآلِهِ لِإِنْجَازِ عِدَتِهِ» الضمير في (عِدَتِه) عائدٌ للنبيِّ لا للفظ الجلالة، كما توهَّمه ابنُ أبي الحديد[1]، بقرينة سياق الضمائر في الفقرات التي بعد هذه الفقرة، كقوله: نبوّته، وميثاقه، وسماته، وميلاده، فكلُّ هذه الضمائر عائدة للنبيّ؛ لعدم وجود الفاصل، ولا يجوزُ إعادتها كلّها للفظ الجلالة؛ بقرينة قوله: (ميلاده)، واللهُ لم يَلِد ولم يُولَد، فإعادة الضمير من (عِدَتِه) للباري، وإعادة الضمير من (نبوّته) للرسول مخالفٌ للبلاغة التي معناها الوصول إلى المعنى بأقرب الألفاظ؛ لوجود الالتباس. ولا مانع من إعادتها للرسول، فيكون المعنى أنَّ اللهَ وَعَدَ محمَّدًا (صلى الله عليه وآله وسلم) لتنفيذ تمام نبوَّته، وهو الجهر بها؛ إذ لم تتمّ أحكام الرسول بمجرَّد بعثه نبيًّا؛ لاستحالة ذلك عقلًا، فيحتاج إلى زمان، ولو بمقدار تبليغهم والوصول إليهم، ويجوزُ في هذا الزمان المفروض أنَّ اللهَ وَعَدَه بإنجاز أحكام شريعته.

وقوله (عليه السلام): «**مَأْخُوذًا عَلَى النَّبِيِّينَ مِيثَاقُهُ..**» يؤيِّدُ قولَ القائل[2]: إنَّ الله

---

(١) يُنظر: شرح نهج البلاغة: ١/ ١٧٧.

(٢) جاء في تفسير الطبريّ: «حدَّثني المثنى قال، حدَّثنا إسحاق قال، حدَّثنا عبد الله بن هاشم قال، أخبرنا سيف بن عُمر، عن أبي روق، عن أبي أيّوب، عن عليّ بن أبي طالب قال: لم يبعث اللهُ عزَّ وجلَّ نبيًّا - آدمَ فمن بعدَه - إلّا أخذ عليه العهدَ في محمَّد: لئن بُعِثَ وهو حيّ ليؤمننَّ به ولينصرَنّه، ويأمرُه فيأخذ العهدَ على قومه، فقال: «وإذ أخَذَ اللهُ ميثاقَ النبيِّين لما آتيتكم من كتاب وحكمة»، الآية». ينظر: ٦/ ٥٥٥. وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله أَنَّ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وآله وسلم) قَالَ: «...**وَالله لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا بَيْنَ أظهركم مَا حَلَّ لَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي**». وَفِي بعض الأحاديث له (صلى الله عليه وآله وسلم): «لَوْ كَانَ مُوسَى وَعِيسَى حَيَّيْنِ لَمَا وَسِعَهُمَا إِلَّا اتِّبَاعِي». يُنظر: تفسير القرآن العظيم، لابن

أخذَ ميثاقَ الرسولِ وعهدَه على عموم الأنبياء.

وقوله (عليه السلام): «**مَشْهُورَةً سِمَاتُهُ**» أي: إنَّ علاماته ذائعة معروفة لا يجهلُها أحدٌ، كما يشير إليه قوله: «**أَوْ غَابِرٍ عَرَّفَهُ مَنْ قَبْلَهُ...**»، فإنَّ الرَّسولَ عرَّفته الأنبياءُ لأممِهم، وبشَّرَت به قبلَ بعثِه وخلقه، وبعض هذه البشائر ثابت إلى اليوم في كتبهم الرائجة، لتقوم عليهم الحجَّة، ولو أذهَبَ التحريفُ والحذفُ أكثرَها، وهذه التوراة تصرِّح بنبوَّة النَّبيِّ (صلى الله عليه وآله وسلم) كما في الإصحاح الحادي والعشرين العدد السابع من كتاب إشعيا[1]، كما تصرِّحُ ببعض سماته وعلائمه بدلالة المطابقة، كما في الخامس والأربعين من سِفر المزامير[2]، فكلُّ هذه الصفات لا تنطبقُ على نبيٍّ غير نبيِّنا، فراجع.

وقوله (عليه السلام): «**كَرِيمًا مِيلادُهُ..**» فإنَّ ميلادَ النبيِّ كان ميمونًا مباركًا في السابع عشر من شهر ربيع الأول، وذهب بعضُ المخالفين إلى أنَّها في الثاني عشر منه، وشذَّ بعضُهم في أنَّها كانت في شهر رمضان، وكان يوم ولادته الجمعة، والمشهورُ عند المخالفين أنَّه الإثنين، فيه اندَحَرَتْ الشَّياطينُ، ونزلت البركات، وعمَّ الرخاء.

كثير: ٢/ ٦٨.

(١) إذ جاء: «وحيٌ على العربِ، بيتوا في صحراءِ العربِ، يا قوافل الدَّدانيِّين، هاتوا ماءً للعطشانِ يا سُكَّانَ تيماء». يُنظر: الكتاب المقدَّس، سِفر إشعيا: ٨٧٥.

(٢) جاء في آخر الإصحاح: «عرْشُ آبائِكَ يكونُ لبنيك، تُقيمُهُم رؤساءَ في كلِّ الأرضِ، سأذكُرُ اسمَكَ جيلًا بعد جيل، فتحمَدُكَ الشعوبُ مدى الدَّهر». يُنظر: الكتاب المقدَّس، سِفر المزامير: ٦٩٩.

وقوله (عليه السلام): «**وَأَهْلُ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مِلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ ۞ وَأَهْوَاءٌ مُنْتَشِرَةٌ ۞ وَطَوَائِفُ مُتَشَتِّتَةٌ..**» يشير إلى وجود هذه الأحوال بعد ولادته، فقد كانت العرب على أديانٍ ومِلَلٍ شتَّى؛ لكثرة جهلهم، وشدَّة توحّشهم، كما تقتضي لهم الوساوس والأوهام، فمنهم عبدة الأصنام، وهم قسمٌ من العرب عَرَفوا بفطرتهم وجودَ قوَّةٍ تديرُ الكونَ، ولكنَّهم لم يَعرفوا حقيقتَها، فجعلوا الأصنامَ واسطةً بينهم وبين الله، وهو قوله تعالى في حكايته عنهم: ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى**﴾[1] إلاّ أنَّ كلمةَ هؤلاء لم يعمل بها كلُّ عبدة الأصنام، بعضُهم اتخذَها قبلةً له يتَّجه إليها حينَ عبادته، كما اتُّخِذَت الكعبة.

وبعضُهُم جَعَلَ الأصنامَ واسطةً للشيطان في سبيل قضاء حوائجه منه، وأمنه من شرِّه ومكره، فعظَّمها أشدّ تعظيم، ومنهم ملاحدةٌ أنكر الربَّ والربوبيَّة، ويزعمون أنَّ الطبعَ هو المحيي، والدَّهرُ هو المميت، كما قال تعالى في الحكاية عنهم: ﴿**مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ**﴾[2]، ولكنَّ الله نقضَ شبهَتَهم هذه بعِدَّةِ آياتٍ قرآنيَّة، أثبتَ أنَّ المُبدِئَ هو المُحيي، والقادرُ على الإبداء قادرٌ على الإعادة، وأثبت أنَّ المبدِئ هو اللهُ لا الطبع؛ لأنَّ الطبعَ عَرَضٌ حادِثٌ يَعرِضُ على الشيء، وهو بنفسه يحتاج إلى مَن يوجِدُه، فكيف يُوجِدُ غيرَه؟! ولو كان للطبيعة عِلمٌ وقدرةٌ وإرادةٌ فسمِّها (الله)؛ لأنَّ المتَّصفَ بهذه الصفات هو المسمَّى بلفظ (الله)، فتبيَّن أنَّ النزاعَ لفظيٌّ أكثر منه معنوي، وإن كانت الطبيعة خالية من الحِكَم والقدرة

(١) سورة الزمر/ من الآية: ٣.

(٢) سورة الجاثية/ من الآية: ٢٤.

والإرادة، فكيف توجَد هذه الحِكَم الباهرة، والكائنات العجيبة، والنظام البديع؟ وفاقد الشيء لا يعطي الشيء، ومن المعلوم أنَّ الفعلَ دليلٌ على الفاعل، ومرآةٌ لماهيَّته، فإن كان الفعلُ جميلًا يُريكَ جمالَ نفسيَّة فاعلِه، وإن كان سخيفًا يُريكَ سخافةَ نفسيَّته، فلمَّا كانت هذه الكائنات في غاية الإتقان والبداعة والحِكْمَة دلَّتْ على حِكمَة صانعها.

والطبيعة عَرَضٌ لا يُوصفُ بالحِكمَة، وقد أشارَ تعالى إلى وجودِه بإتقان صُنْعِه كقوله: ﴿صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1]، ومَنْ قالَ بالدَّهر[2] قالَ بحِكمَتِه وإرادته وقدرته، وهو كُفرٌ، وليس منه قولُ الشاعر مِن مجزوء الكامل[3]:

مَنَعَ البَقَاءَ تَقَلُّبُ الشَّمْسِ ... وَطُلُوْعُهَا مِنْ حَيْثُ لا تُمْسِي

وَطُلُوْعُهَا حَمْرَاء صَافِيَة ... وَغُرُوْبُهَا صَفْرَاء كَالْوَرْسِ

تَجْرِي عَلَى كَبدِ السَّمَاءِ كَمَا ... يَجْرِي حِمَامُ المَوْتِ فِي النَّفْسِ

اليَوْم أعْلَمُ مَا يَجِيْءُ بِهِ ... وَمَضَى بِفَضْلِ قَضَائِهِ أمْسِ

إذ يجوزُ أنَّه أراد أنَّ الدَّهرَ يُهلِكُ النَّاسَ، ولم يَنْفِ واجبَ الوجود، أي: إنَّ

---

(١) سورة النمل/ من الآية: ٨٨.

(٢) وهم الذين يقولون: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ [سورة الجاثية/ من الآية: ٢٤]، وهو دينٌ وضعوه لأنفسهم بالاستحسان على غير تثبّت منهم ولا تحقيق لشيء ممَّا يقولون. يُنظر: الكافي: ٢/ ٣٨٩، والوافي: ٤/ ١٨٥.

(٣) نُسبت هذه الأبياتُ إلى تُبّع بن الأَقْرَع، وقيل لراهبٍ من نجران، في الحماسة البصريَّة: ٢/ ٤٠٦ - ٤٠٧، وشرح التصريح: ٢/ ٣٤٨.

الدهرَ واسطةٌ إلى إهلاكِهم، كالسيف الذي هو الواسطة إلى القتل، مع أنَّ فاعل القتل في الحقيقة غيرُ السيف، كقول الشاعر من الكامل[1]:

أفنَتْ عِدَاكَ صوارمٌ هِنديَّةٌ مثلُ الأهِلَّة تُهلِكُ الأعمارا

فهذا الشاعرُ لم يعتقد أنَّ السيفَ أفنى الأعداءَ من تلقاء نفسه، وهو في كلامه هذا لم يُنكِر حاملَ السيف.

ويوجدُ قسمٌ من العرب عبدوا الكائنات الطبيعيَّة، ومِن هؤلاء عَبَدَةُ الشمس، وقد تخيَّلوها - حسب جهالتهم - أنَّها مَلَكٌ مسخَّرٌ ذو إدراك وحسٍّ، يفيضُ بنورِهِ على الكواكب السماويَّة، وهي مصدرُ الكائنات السفليَّة، ولذلك بجَّلوها وعبدوها، ولكن بوَجْهٍ خاصٍّ، فرمزوا لها بصنم، بِيَدِهِ حَجَر كريم على لونها، وقدَّموا له الهدايا والنذور، فإن بزغتِ الشمس سجدوا لها، وعفَّروا وجوهَهم تذليلًا كما يفعلُ اليزيديَّة[2] في زماننا، وكانت عبادتهم لها في أوقات وكيفيَّات مخصوصة.

ومن هؤلاء أيضًا مَنْ عَبَدَ القمر، وزَعَم أنَّه يُديرُ الكونَ بمشيئته، ونسبوا له خَلْقَ هذا النظام البديع، ونحتوا له تمثالًا على هيئة العجل، وقصدوه

---

(١) لم أعثر على قائله.

(٢) هَؤُلاَءِ أتبَاع يزِيد بن أبي أنيسَة الخَارِجِي، كَانَ من البَصْرَة ثمَّ انْتقل الى نون من أرْض فَارس، كَانَ على رَأْي الأباضيَّة من الخَوَارِج، وزَعَمَ أنَّ الله تعالى سيبعث رسولًا من العجم، ويُنزِلُ عليه كتابًا قد كُتِبَ في السماء، وينزِل عليه جملة واحدة، ويترك شريعةَ المصطفى محمَّد (صلى الله عليه وآله وسلم). ينظر: الفرق بين الفرق، لعبد القاهر بن طاهر البغداديّ الأسفراييني: ٢٦٣، والملل والنحل: ١/ ١٣٦.

بعباداتهم، وهم يأتونه بالطعام ثُمَّ يأكلونه، وبعد ذلك يعزفون ويرقصون فرحًا وسرورًا.

ومِن هؤلاء مَنْ ألَّه الكواكبَ، وشيَّدوا لها الهياكلَ والتماثيلَ، وعَكَف على عبادتها، وهم يعتقدون أنَّ لكلِّ معبود من الكواكب عملًا خاصًّا[1]، فيحتفلون بها أيّما احتفال.

ومِن العرب قِسمٌ على دين الصابئة[2]، وهم قسمان: مُشرِكون وموحِّدون، بدليل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[3]، فهذه الأمم الأربعة كلّ واحدة منها تنقسم لـ(ناجي وهاوي)، وقد ذَكَر الصابئة منها، فَعُلِم أنَّها تنقسم كذلك،

---

(١) في الأصل: (عمل خاص)، والصواب ما أثبتناه.

(٢) قومٌ من أصحاب الديانات القديمة، اختلفَ العلماءُ والمؤرِّخون في حقيقة أمرِهم، والصابئةُ: مِن صَبَأ الرجلُ: إذا مالَ وزاغَ. فبِحُكم ميلِ هؤلاء عن سنن الحقِّ، وزيغهم عن نهج الأنبياء، قيل لهم الصابئة، وقيل: بأنَّها كلمةٌ آرامية الأصل تدلُّ على التطهير، ويعرف منهم: الصابئة الحرّانيّون الذين انقرضوا في القرن الحادي عشر الهجريّ، ومركزهم (حرّان). وهناك الصابئة المندائيّون الذين يزعمون أنَّهم أتباع النبيّ يحيى (عليه السلام). والصابئة يقدِّسون الكواكبَ والنجومَ، ويُعدُّ الاتّجاه نحو القطب الشمالي والتعميد في المياه الجارية من أبرز معالِم ديانتهم. يُنظر: الملل والنحل، محمَّد بن عبد الكريم الشهرستانيّ: ٢/ ٦٣، والموسوعة الميسَّرة في الأديان والمذاهب: ٢/ ٧١٤.

(٣) سورة البقرة/ الآية: ٦٢.

ويقالُ[1]: إنَّ الصابئة الموحِّدة على دين إبراهيم الخليل (عليه السلام)، والمشركون يعظِّمون البروجَ والكواكبَ السيَّارة، ويرمزون إليها بصور مخصوصة في هياكلِ عباداتهم، وهم شديدو التكتّم في أحكام شريعتهم، فلا يُطلِعون عليها غيرَهم؛ لعلمهم بعدم استحقاقها للظهور، ويقال: إنَّ هذه الطائفة تنتسبُ إلى صابئ بن مُتُّوشَلْخ بن إدريس[2]، وقيل: من نَسْل صابئ بن ماري[3]، وكان في عصر إبراهيم الخليل، والبعض[4] يزعم أنهَّم على دين نوح ثُمَّ حرَّفوه كما حَرَّفَت النصارى دينَ عيسى، واليهودُ دين موسى، وقائلٌ[5]: إنهَّم مِن الأمم الكلدانيَّة والسريانيَّة، ويذهبون في التعصب للروحانيَّات إلى حدٍّ بعيد جدًّا؛ إذ يعتبرونها الوسيط بينهم وبين الإله.

وقسمٌ من العرب عبدوا الملائكةَ، وهم الذين قصدهم تعالى بقوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾[6].

ومنهم من عَبَدَ الجنَّ، وخضَعَ لها، وزعم أنَّها المؤثِّر في الكون، وهم

---

(١) يُنظر: الفهرست، لابن النديم: ٣٧.

(٢) هو صابئ بن مُتوشلخ [مُتوشلح] بن إدريس (عليه السلام)، وكان على الحنيفيَّة الأولى. يُنظر: وفيات الأعيان: ١/ ٥٤، وشذرات الذهب: ٤/ ٤٣٨ - ٤٣٩.

(٣) صابئ بن ماري، وكان في عصر الخليل (عليه السلام). تنظر المصادر السابقة نفسها.

(٤) يُنظر: تفسير مقاتل: ٤٩٣.

(٥) يُنظر: التحرير والتنوير: ١/ ٥٣٤.

(٦) سورة سبأ/ الآية: ٤٠.

الذين عناهم تعالى بقوله: ﴿كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾[1]، ومنهم كانوا على دين موسى، وأكثرهم من حِمْيَر وبني كِنانة وكِندة.

وقِسمٌ من العرب كانوا على دين المسيح إلّا أنَّهم أقلُّ أهل الأديان الأخرى، لا يستحقّون الذِّكْر، وأغلبهم من غسَّان، وبعض قضاعة، وربيعة، أخذوها عن تجّارهم الذين يسافرون للروم، فاقتبسوها منهم ونشروها بينهم.

ومن العرب قِسم على دين المجوسيَّة يبيحون نكاح الأمَّهات والبنات والعمَّات والأخوات والخالات والمحرَّمات من النساء، ويقولون بثنية الصانع أحدهما يزدان[2]، والآخر أهريمن[3]، وقيل: أهريمز وأهريمن، أمَّا أهريمز أو يزدان، فهو إله الخير والبركة، وأمَّا أهريمن أو أهرمان، فهو إله الشَّرِّ والنحوس، وهو شبيه بمذهب أهل السُّنَّة الذين ينسبون الشرَّ إلى خالقهم، كما تَنسِبُ المجوسُ الشرَّ إلى ربِّهم أهرمان، أو كمذهب القدريَّة[4] منهم، الذين يضيفون الخيرَ إليه، والشرَّ إلى غيره، إلّا أنَّهم يقولون ذلك في

---

(١) سورة سبأ/ من الآية: ٤١.

(٢) هو إلهٌ قديم عند المجوس، وعندهم هو الله تعالى، وكان أصل دينهم مبنيًّا على تعظيم النور، وهو يزدان، والتحرّز من الظُّلْمَة وهو أهرمن. يُنظر: الملل والنحل: ٢/ ٣٨، والمختصر في أخبار البشر، لأبي الفداء: ١/ ٨٣.

(٣) هو الإلهُ الآخرُ عند المجوس، مخلوق من الظُّلْمَة مُحْدَثٌ، وأهرمن هو إبليس، وقالوا: يزدان أزليٌّ قديم، وأهرمن مُحدَث مخلوق. يُنظر: الملل والنحل: ٢/ ٣٨، والمواقف: ٣/ ٦٥.

(٤) يطلق على مَنْ يقول بالقدر خيره وشّره مِن الله تعالى. يُنظر: الملل والنحل: ١/ ٤٣.

غير الأعيان، أعني في الأحداث. وقسمٌ من المجوس عَدَلوا إلى عبادة النار، ويفضّلونها على التراب، ويرجِّحون لإبليس رفضَ السجود لآدم، ومنهم القائل من بحر البسيط[1]:

الأرْضُ سَافِلَةٌ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ وَالنَّارُ مَعْبُوْدَةٌ مُذْ كَانَتِ النَّارُ

وعبدةُ النار على أنواع متباينة وعقائد مختلفة، ومنهم مَنْ يحثُّ على التمسّك بالفضائل والابتعاد عن الرذائل، ويُعنَوْنَ بتربية أولادِهم عليهما، مع انتشار الظلم وأنواع الفضائح في تلك العصور المظلِمة.

ومِن العرب مَن عبدَ الماءَ دون المبدع الحكيم، وحجته أنَّه أصلُ الأشياء، وكلّها تفتَقِرُ إليه إمَّا لنموٍّ، أو لطهارة، أو لتكوين، أو غير ذلك، ويعبدونه بالمكوث فيه قليلًا مِن الزمان، ويُلقي فيه ما معه من الأوراد والرياحين تقرُّبًا إليه، وممَّا يقولونه من الشعر حين دخولهم في الماء قولُ بعضِهم من بحر الطويل[2]:

عبدناكَ لا نَخْشَى ملامةَ لائم وإنْ كان متبوعًا مطاعَ الأوامِرِ

فللزَّرع والأثمار أنت مكوِّنٌ ولولاك ما كان الوجودُ بعامِرِ

ومنهم ناظِمُ هذين البيتين- من الوافر[3]:

---

(١) نُسِبَ إلى بشار بن برد. يُنظر: ملحقات ديوانه: ٤/ ٧٨. والروايةُ فيه:

الأرْضُ مُظْلِمَةٌ والنَّارُ مُشْرِقَةٌ ...

(٢) لم أعثر على قائله.

(٣) لم أعثر على قائله.

أيكفُرُ بالمياهِ غلامُ عَمْرٍو ولم يعبُد مكوِّنَهُ الغلامُ
فلولا الماءُ ما كانتْ حياةٌ ولا صبحٌ منيرُ ولا ظَلام

وقِسمٌ من العرب متبصِّرون يُنكرون عبادةَ الأصنام، ويُقِّرون بالمبدع تعالى شأنُه، وهم على أنواع: فمنهم من يقول بتجسيمِهِ كما تقول أهلُ السُّنَّة، حيثُ يزعمون أنَّ طوله ستّون ذراعًا[1]، ومِن عرب الجاهليَّة القائلين بالتجسيم أُميَّة بن أبي الصلت، كما يشهد قوله من الرجز[2]:

مِنْ فَوْقِ عَرْشٍ جَالِسٍ قَدْ حَطَّ رِجْـ ـلَيْهِ إلى كُرْسِيِّهِ المَنْصُوْبِ

ولكنَّه أسلم ومدح النبيّ بقصيدة من المتقارب، منها[3]:

لَكَ الحَمْدُ وَالمَنُّ رَبَّ العِبَا دِ أنْتَ المَلِيْكُ وَأنْتَ الحَكَمْ

ومنها[4]:

مُحَمَّدٌ أرْسَلَهُ بِالْهُدَى فَعَاشَ غَنِيًّا وَلَمْ يُهْتَضَمْ

ومنها[5]:

---

(١) سبق أن خرَّجنا هذا الحديث. وتخريج المؤلِّف: انظر صحيح البخاريّ المجلَّد الأوَّل ص ٥٧ الطبعة الأولى في المطبعة المليجيَّة في مصر، فانظرها.

(٢) يُنظر: ديوانه: ٢٩.

(٣) يُنظر: ديوانه: ١١١.

(٤) يُنظر: ديوانه: ١١٢.

(٥) يُنظر: ديوانه: ١١٢.

أطِيْعُوا الرَّسُوْلَ عِبَادَ الإلـ ـهِ تَنْجُوْنَ مِنْ شَرِّ يَوْمٍ أَلَمْ
وَتَنْجُوْنَ مِنْ ظُلُمَاتِ العَذَابِ وَمِنْ حَرِّ نارٍ عَلَى مَنْ ظَلَمْ

ومنها[1]:

نَبِي هُدًى صَادِقٌ طَيِّبٌ رَحِيْمٌ رَؤُوْفٌ بِوَصْلِ الرَّحِمْ
بِهِ خَتَمَ اللهُ مَنْ قَبْلَهُ وَمَنْ بَعْدَهُ مِنْ نَبِيٍّ خَتَمْ

وله القصيدة التي يقول فيها من بحر الطويل[2]:

ألَا لَنْ يَفُوْتَ المَرْءَ رَحْمَةُ رَبِّهِ وَلَوْكَانَ تَحْتَ الأرْضِ سَبْعِيْنَ وَادِيَا
ألا كُلُّ شَيءٍ هَالِكٌ غَيْرَ رَبِّنَا وَلِلّهِ مِيراثُ الَّذِيْ كَانَ فَانِيَا

موحِّدي العرب: سُوَيْد بن عامر[3]، وأسعد أبو كرب[4]، وأرباب بن

---

(١) يُنظر: ديوانه: ١١٢.

(٢) يُنظر: ديوانه: ١٥٠. وفي رواية الديوان تقديمٌ وتأخيرٌ، واختلافٌ قليل؛ إذ جاء فيها:

ألا كُلُّ شَيءٍ هَالِكٌ غَيْرَ رَبِّنَا وَلِلّهِ مِيْرَاثُ الَّذِيْ كَانَ فَانِيَا
وَقَدْ تُدْرِكُ الإنْسَانَ رَحْمَةُ رَبِّهِ وَلَوْكَانَ تَحْتَ الأرْضِ سَبْعِيْنَ وَادِيَا

(٣) سُوَيد بن عامر المصطلقيّ، كان على دين الحنفيَّة وملَّة إبراهيم، وقال شعرًا، وَصَلَت منه بضعةُ أبيات في «المنايا» وفي المقدَّر على الإنسان. قال عنه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «**لو أدرك هَذَا الإسلام لأسلم**». يُنظر: أسد الغابة: ٥/ ١٦٣، والمفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد عليّ: ١٢/ ٧٦.

(٤) هو أسعد أبو كرب الحِمْيَرِيّ، آمن بالنبيِّ (صلى الله عليه وآله وسلم) قبل أن يُبعَثَ بسبع مئة سنة، وهو أوَّل من كَسَا البيتَ الأنطاعَ والبرودَ. يُنظر: المعارف، لابن قتيبة: ٦٠، والروض

رئـاب[1]، وأبـــو قيـس[2] .....

الذي يقول قبل ظهور الإسلام من الخفيف[3]:

سَبِّحُوا اللّهَ شَرْقَ كُلِّ صَبَاحِ ... طَلَعَتْ شَمْسُهُ وَكُلِّ هِلَالِ

يَا بَنِي الأَرْحَامِ لا تَقْطَعُوْهَا ... وَصِلُوْهَا قَصِيْرَةً مِنْ طِوَالِ

إنَّ قَطْعَ الأَرْحَامِ عَارٌ وَذُلٌّ ... رَغِبَتْ عَنْهُمَا خِيَارُ الرِّجَالِ

ومِـن العـربِ الموحِّـدَةِ لا يقـول بالتجسـيم، ومنهـم مـرَّة بـن الأسـود الحِمْـيَرِيّ[4]، وهـو القائـل مـن بحـر البسـيط[5]:

الأنِف، أبو القاسم عبد الرحمن السهيليّ: ١/ ٨٥.

(١) وسـمّي رئـاب بـن الـبرَّاء الشّـنّيّ، وهـو مـن عبـد القيـس، كان عـلى ديـن المسـيح. وسـمعوا قُبَيْـل مبعَـث النبـيِّ - (ﷺ)- مناديًـا ينـادي: خيرُ أهـل الأرض ثلاثـة: رئـاب الشّـنّي، وبحيرى الراهـب، وآخـر لم يـأت- يعنـى: النبـيّ (ﷺ). يُنظـر: المعـارف: ٥٨، والـروض الأنِـف: ٢/ ١٤٠، ومـرآة الزمـان، لسـبط ابـن الجـوزي: ٢/ ٥٩٨.

(٢) أَبُـو قَيْسٍ، صَرِمَـةُ بـنُ أَبِي أَنَـسِ بـنِ صَرِمَـةَ بـنِ مَالِـكِ بـنِ عَـدِيِّ بـنِ عَامِـرِ بـنِ غَنْـمِ بـنِ عَـدِيِّ بـنِ النَّجَّـارِ، كَانَ رَجُـلًا قَـدْ تَرَهَّـبَ فِي الْجَاهِلِيَّـةِ، وَلَبِـسَ الْمُسُـوحَ، وَفَـارَقَ الْأَوْثَـانَ، وَهَـمَّ بِالنَّصْرَانِيَّـةِ، ثُـمَّ أَمْسَـكَ عَنْهَـا، وَدَخَـلَ بَيْتًـا لَـهُ، فَاتَّخَـذَهُ مَسْـجِدًا، وَقَـالَ: أَعْبُـدُ رَبَّ إِبْرَاهِيـمَ، حَـيْنَ فَـارَقَ الْأَوْثَـانَ وَكَرِهَهَـا، حَتَّـى قَـدِمَ رَسُـولُ اللهِ (ﷺ) الْمَدِينَـةَ، فَأَسْـلَمَ وَحَسُـنَ إِسْـلَامُهُ، وَهُـوَ شَـيْخٌ كَبِـيرٌ، وَكَانَ قَـوَّالًا بِالْحَـقِّ مُعَظِّمًا للهِ عَـزَّ وَجَـلَّ فِي جَاهِلِيَّتِـهِ. يُنظـر: السـيرة النبويَّـة، لابـن هشـام: ١/ ٥١٠، والمعـارف: ٦٠، ومـرآة الزمـان: ٢/ ٥٩٨.

(٣) تنظر مثل هذه الأبيات في: كتاب التعازي، للمبرِّد: ١٤٦.

(٤) لم أعثر على ترجمته.

(٥) لم أعثر على ديوانه.

اللهُ ربُّ السَّما في كلِّ ناحيةٍ فَعَاشَ غَنِيًّا وَلَمْ يُهْتَضَمْ

ومنهم وكيعُ بن سَلَمَة[1]، ووَرَقَةُ بنُ نوفل[2]، وهو القائل لخديجة في الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قبل ظهوره من الوافر[3]:

بِأنَّ مُحَمَّدًا سَيَسُوْدُ يَوْمًا وَيَخْصِمُ مَنْ يَكُوْنُ لَهُ حَجِيْجَا
وَيَظْهَرُ فِي البِلادِ ضِيَاءُ نُوْرٍ يُقِيْمُ بِهِ البَرِيَّةَ أنْ تَمُوْجَا
فَيَلْقَى مَنْ يُحَارِبُهُ خَسَارًا وَيَلْقَى مَنْ يُصَاوِلُهُ فلُوْجَا
فَيَا لَيْتَنِي إذَا مَا كَانَ ذَاكُمْ شَهِدْتُ وَكُنْتُ أوَّلَهُمْ وُلُوْجَا

وهو القائل من البسيط[4]:

لا تَعْبُدَنَّ إلَهًا غَيْرَ خَالِقِكُمْ فَإنْ دُعِيْتُمْ فَقُوْلُوا دُوْنَهُ حَدَدُ

---

(١) هو وكيع بن سَلَمَة بن زهير الإياديّ، من قضاة العرب في الجاهليَّة. وَلِيَ أمرَ البيت الحرام بعد جِرْهَم، فبَنَى صرحًا بأسفل مكَّة وجَعَل فيه سُلَّمًا، فكان يرقاه ويزعم أنه يناجي الله تعالى. يُنظر: الأعلام، للزركليّ: ٨/ ١١٧.

(٢) هو ورقة بن نَوْفَل بن أَسد بن عبد العُزَّى بن قُصّي بن كلاب بن مرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك القرشيّ الأسديّ، أحد من اعتزل عبَادَة الْأَوْثَان وَطَلَبَ الدّين، كان صاحبَ عِلْمٍ في الجاهليّة، قرأ الكتبَ وتبحَّر في التَّوراة والإنجيل. تنظر ترجمته في: تاريخ دمشق: ٦٣/ ٣، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير: ٥/ ٤١٦، والوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي: ٢٧/ ٢٥٧.

(٣) تُنظر أبيات ورقة بن نوفل في خزانة الأدب: ٣/ ٣٩٢.

(٤) يُنظر البيتان في الحماسة البصريَّة: ٢/ ٤٢٥، والوافي بالوفيات: ٢٧/ ٢٥٧، وخزانة الأدب: ٣/ ٣٨٩.

سُبْحَانَ ذِي العَرْشِ لا شَيْءٌ يُعَادِلُـ ـهُ رَبُّ البَرِيَّةِ فَرْدٌ واحِدٌ صَمَدُ

وهؤلاء كثيرون يضيق الطَّرْسُ بإحصائهم.

أمَّا الأممُ الأخرى، فعلى تبايُنٍ من العقائد والأديان، وربَّما توافِقُ بعضَهم في بعض الأصول أو الفروع، كالديانة المصريَّة القديمة، فقد كان المصريّون يعبدون الأوثانَ والكائناتِ الطبيعيَّةَ والطيورَ والثورَ والكلبَ والخنفساءَ والتماسيحَ والقططَ والأسدَ وابنَ آوى، وغيرها، وأشهر آلهتهم معبودُ الشمس الذي رمزوا إليه بصُوَرٍ متباينة، والمصريّون يعتقدون بتناسل آلهتهم، وإنَّ لهم أولادًا وأزواجًا، ويلقّبون زوجَةَ الرَّبِّ بآلهة السماء، ولكن اتجاه وثنيَّتِهم هذه إلى عبادة الحيوانات في الأعمِّ الأغلَب، فأشهر آلهتهم الحيوانيَّة عِجلٌ أسود لم يتجاوز الخامسة والعشرين من العمر، وله صفات غريبة قلَّ أن توجد في الثيران الأخرى، والمصريّون أشدّ تمسّكًا بعقائدهم الدينيَّة، وهم يؤمنون بالبَعثِ والنشور، ويقولون بالحلول والتناسخ، ويعتبرون قتل أحد تلك الحيوانات جناية لا تَقبَلُ الغفران، يستحقُّ فاعلُها الإعدامَ، وقد ساقَهم إيمانُهم بالمعاد إلى إتقان التحنيط، وفنِّ العمارة والبناء، لتشييد معابدهم، حتَّى إنَّهم كانوا يتسابقون إلى تنجيدها ورَقْمِ أسمائهم عليها؛ لتبقى دليلًا لهم على شدَّة عنايتهم بالدين، ومِن البواعث لإتقان فنِّ البناء نحت التماثيل لآلهتهم العديدة.

أمَّا الكلدانيّون والآشوريّون، فقد كانوا يقدِّسون الأجرامَ السماويَّةَ، ويقولون بإلوهيَّتِها، ولهذا اعتنَوْا بعِلمِ الفَلَك والميقات، واتَّخذوا لكلِّ مدينةٍ من مدنهم إلهًا خاصًّا، والطبقة الروحانيَّة المعبَّر عنها بالكهنة هي التي أَخَذَتْ على عاتقها خدمةَ الهيكلِ، وكان رئيسُ هؤلاء حاكمًا مستبدًّا في

الأمور الدينيَّة وغيرها، والشمسُ أشهرُ آلهتهم وأقدسُها، وكانوا يصوِّرُونَها على صورة البشر، ويجعلون لها أزواجًا وأولادًا، وهاتان الأمَّتان أوَّلُ مَنْ عَرَفَ السحرَ والتنجيم، ومن آلهتهم (آسور)[1] عند الآشوريّين، و(إيلو)[2] عند الكلدانيّين.

وأمَّا الفينيقيّون، فقومٌ يسكنون بين البحر المتوسِّط ولبنان، وحاضرتُهم (صُور)[3]، وديانتهم شبيهة بديانة الكلدانيّين، وأشهرُ آلهتهم (بعلت)[4]، وهي القمر، و(بعل) وهو الشمسُ، ومعناه الحاكِم إلّا أَنَّهم اتَّخَذوا لكلِّ مدينة إلهَيْن، وجعلوا لهما الهياكل والتماثيل، ومن معتقداتهم اعتقادهم بوجود

---

(١) أو (آشور) واشترك في هذا الاسم كلٌّ مِن الأرض، والعاصمة، ومعبودِها الأكبر وسكّانها الأوائل، مع تحويره في التشكيل والنطق، وانتشرت عبادةُ آشور عن طريق الجاليات التجاريَّة حتَّى أعالي دجلة وآسيا الصغرى، بحيث تداخَلَ اسمُه في أسماء بعض الأفراد. ووردت تسميةُ (آشور) في بعض النصوص الأراميَّة بلفظ آثور، وذكرَتها النصوص المصريَّة باسم (إسر) و(إسور). يُنظر: الشرق الأدنى القديم في مصر والعراق، عبد العزيز صالح: ٤٩٠.

(٢) أو (ألولم) هو أوَّل ملك كلديّ مُلِّكَ على أريدو، مركز مستوطَن الكلدان التاريخيّ القديم. يُنظر: الكلديّون/ الكلدان منذ بدء الزمان، عامر حنا فتوحي: ٣٥

(٣) وهي أهمُّ المدن الفينيقيَّة من الناحيتين الدينيَّة والسياسيَّة، وتقع في بلاد الشام. يُنظر: الحضارة الفينيقيَّة، ج. كونتنو، ترجمه: د. محمَّد عبد الهادي شعيرة، وراجعه: د. طه حسين: ٣٣.

(٤) ويسمَّى (بعل) ويعني السيِّد، فهو وصفٌ يعني إلهًا معيَّنًا، واسمه مشتقٌّ من أصلٍ أُخِذَت عنه الأفعال (كَسَرَ وأرعد وأبرق). يتولَّى أمرَ القِمم والعاصفة والرعد والمطر الجالب للخصْب. يُنظر: الحضارة الفينيقيَّة: ١٠٤.

أرواح شرِّيرة خبيثة وأرواح روحانيَّة طيّبة، ولكلٍّ منها تأثيرٌ عظيمٌ في الكون، والخالقُ الأعظَم قوَّةُ الشمس عندهم.

وأمَّا الإيرانيّون، فعلى المذهب المجوسيّ المذكور آنفًا، ومنهم من يعبُدُ القوى الطبيعيَّة المختَلِفة، وأمَّا العبرانيّون أو الإسرائيليّون، فكانوا يعبدون الأصنام كغيرهم من الأمم الوثنيّة، حتَّى بُعِثَ إبراهيمُ الخليل، فغيَّرَ مجرى اعتقادهم، إلى أن بَعَثَ اللهُ موسى الكليم، فدانوا باليهوديَّة، إلّا أنَّ الإيمان لم يرسخ في نفوس الإسرائيليّين وِفْقًا لغلظِ طباعهم، ولَمَّا أراد نبيُّهم موسى محاربةَ أعدائه وفتَحَ القدس قالوا له: ﴿**فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾[1]، فتاهوا لذلك أربعين سنة تُوفِّيَ خلالها موسى (عليه السلام)، وهم القائلون له: ﴿**لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً**﴾[2]، وبالجملة إنَّ الأمَّةَ اليهوديَّة أسوأُ أمَّةٍ ظهرت على وجهِ الأرض، شديدة الميل للفساد والدعارة وإشباع شهواتهم الحيوانيَّة بأيِّ طريق ولو غير مشروع، وهم يعتقدون أنَّ الفضَّة والذهب مُلكُ إسرائيل، فواجبٌ على كلِّ من ينتمي إليه أن يسلُكَ كلَّ طريق إلى جمعه، ولو ببذل الفروج، وتحليل بعض المناكر والخداع، وقد مُلِئ دينُهم بالخرافات والأوهام بعد موسى (عليه السلام)، وحرَّفوا التوراةَ وِفقَ أهوائهم، وهم أشدُّ الناس تعصُّبًا لدينهم، ولو عَلِموا مخالفَتَه للصواب، وقد ارتدَّ أكثرُهم عن دينهم بعد موت موسى، وعبدوا الأصنامَ، فأرسَلَ اللهُ عيسى المسيحَ لهدايتهم، فما كان منهم إلّا أن أساؤوا إليه، وأرادوا صلبَه، فَلَم يُفلِحوا،

(١) سورة المائدة/ من الآية: ٢٤.

(٢) سورة البقرة/ من الآية: ٥٥.

وشُبِّه لهم، ورفَعَهُ الله، كما أشار إلى ذلك قولُه تعالى: ﴿**وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ**﴾[1]، وبعد رَفعِ عيسى انتشرت شريعتُه بين الناس؛ وذلك أنَّ والد قسطنطين[2] وَقَعَ في غرام مسيحيَّة وتزوَّجها، فولدت له قسطنطين، وكانت قد غَرَزَتْ في نفسه مبادئَ الديانة المسيحيَّة وحبَّ المسيح سِرًّا، ولَمَّا مات أبوه ورث العرش، وأعلَنَ النصرانيَّةَ بالطريق الإجباريّ، وجعلَها الديانةَ الرسميَّة، ولكن لم تمضِ مدَّة حتَّى ارتدَّ المسيحيّون عن دينهم الصحيح، ونشأت فيهم الخرافات، فقالوا بتجسيم الإله، وإنَّ عيسى ثالث ثلاثة، وتركوا دينَهم القويم، وبتتالي الأجيال أصبحت المسيحيَّة هذه مناقضةً التعاليمَ التي جاءَ بها عيسى تمامَ المناقضة.

وأمَّا اليونانيّون، فكانوا كغيرهم مِن أُمم تلك العصور، يدينون بالوثنيَّة مع ذكائهم الفارط، فعبدوا الأصنامَ وصوَّروها بِصُوَرِ الرجال والنساء، ومن آلهتهم (جو بيتر)[3]،

---

(١) سورة النساء/ من الآية: ١٥٧.

(٢) هو إمبراطور رومانّي يُعرَف أيضًا باسم قسطنطين العظيم ابن قسطنس، يُعرَف بأُمِّهِ هيلاني، وإليها يُنسَب، مَلَكَ اثنتين وثلاثين سنة وثلاثة أشهر وهو الّذي أظهر دين النصرانيَّة وحارب عليها، حتَّى قُبِلَتْ وانتشرت في البلاد. يُنظر: التنبيه والإشراف، للمسعوديّ: ١١٩.

(٣) هو كبيرُ الآلهة ورئيسُ مجمع الأرباب عند الرومان، وهو يقابِل الإلهَ زيوس عند الإغريق، وهو ربُّ الضوء والسماء، الذي كان يُعبَد بصفته مشرِفًا على الطقس ومحدِثًا البرقَ والرعدَ. يُنظر: معجم الأعلام في الأساطير اليونانيَّة والرومانيَّة، أمين سلامة: ١٧٠ - ١٧١.

و(أبولون)[1]، و(فينوس)[2]، وقد مالَ بعضُهم لتأليه البشر، ومِن خرافاتهم أنَّ الكواكبَ أولادُ ملوكٍ عملوا بعقوق آبائهم فطردوهم.

وأمَّا الرومانيّون[3]، فقد اقتبسوا ديانَتَهم من اليونانيّين، ولذلك عبَدوا إلهَ اليونانيّين (جو بيتر)، وكانوا قبل هذا يعبدون أرواحَ أجدادِهم ويقدِّسونَها، ولهم آلهةٌ متعدِّدة على شكل الرجال والنساء، ومن آلهتهم (جونون)[4]، وهي ربَّةُ القمر، وعبدوا المشتري، وكانوا يقدِّمون الذبائحَ البشريَّة إلى هذه الأصنام، ويهدون لها الجواهرَ وبعضَ الأحجار الكريمة، ويلعبون ويرقصون تزلُّفًا لها وقربةً.

وهذه لمحةٌ قصيرة تريك كيفيَّة اختلاف الناس في الأديان، واجتماعهم

---

(١) وهو عند اليونانيّين إله الصنائع والأدبيَّات والطب وضياء الشمس، وكان على مثال شابٍّ جميل الصورة، وقد استرسل شعره إلى الأرض، وحمل في يده قوسًا. وقد بقيَ يُعبَد (١١٧٨) سنة. يُنظر: نهر الذهب في تاريخ حلب، كامل بن حسين الغزّيّ: ١/ ١٥٣.

(٢) ربَّة رومانيَّة، هي أفروديتي عند الإغريق، كانت عند الرومان بمثابة ربَّة القوى والطبيعة المنتجة، وربَّة الكياسة والازدهار. يُنظر: معجم الأعلام في الأساطير اليونانيَّة والرومانيَّة: ٢٤٤ - ٢٤٥.

(٣) في الأصل: (الرومانيّين)، والصواب ما أثبتناه.

(٤) أو (جونو) وهي ربَّة رومانيَّة، وهي (هيرا) عند الإغريق، ابنة ساتورن، وزوجة جو بيتر، كانت في الأصل ربَّة الضوء ثمَّ أصبحت ربَّة البدء وربَّة الميلاد ثم ربَّة النساء عامَّة. كان الرومان يعبدونها تحت ألقاب متعدِّدة تتناسب مع أعمالها الخاصَّة. يُنظر: معجم الأعلام في الأساطير اليونانيَّة والرومانيَّة: ١٧٣.

على وجودِ واجب الوجود، وإن اشتبهوا في طريق معرفته، والذي اضطرَّني الى هذا الفصل تفصيل قولِ أمير المؤمنين: «**وَأَهْلُ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مِلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ..**».

وقوله (عليه السلام): «**بَيْنَ مُشَبِّهٍ للهِ بِخَلْقِهِ، أَوْ مُلْحِدٍ فِي اِسْمِهِ..**» هذا تقسيمٌ للمِلل المختلفة، والمراد بالمشبِّه لله في خلقه، كأهل السُّنَّة الذين يقولون: إنَّه أعرجُ مِن سَهم النمرود، وإنَّ طولَه ستّون ذراعًا كصورة آدم (عليه السلام)، وكاليهود الذين يقولون: إنَّه كقوس قزح الذي يخرُجُ عقيبَ المطرِ في الشتاء، وكالنصارى الذين يقولون: إنَّه أبٌ، وإنَّ عيسى ابنه، وقد جاء في كتبهم السماويَّة أنَّ الله ظَهَر في الجسد، ونقول في البدء كانت الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله، والكلمة صار جسدًا، ومَنْ راجعَ الإنجيلَ عَرَفَ مقدارَ توغُّلِهم بالتجسّد المحال.

وأمَّا الملحدُ في اسم الله تعالى، فهو المنحَرِفُ به عن مفهومه، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿**يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ..**﴾[1]، فيفسِّرون البصيرَ مثلاً بكونه ذا جارحة بصريَّة، والسميع بأنَّ له جهازًا سمعيًّا[2]، والحيُّ بأنَّه ذو روحٍ وحسٍّ، والمتكلِّمُ بأنَّه ذو لسانٍ يتكلَّمُ به كما تتكلَّم البشرُ، فمَنْ ذَهَبَ هذا المذهبَ فهو مُلحِدٌ في اسم الله تعالى، ولربَّما يُرادُ بالملحدِ الذي يضعُ اسمًا للهَ غير ما يستحقُّ أن يُطلَقَ عليه، كالمحتال، والراكض، والمهذَّب، والأديب، ولكنَّ هذا القول يتخرَّجُ على رأي القائلين بتوقيف أسماء الله. أمَّا الذين يجوِّزون عليه كلَّ اسمٍ يُشعِرُ برفعةٍ وكمال، فلا يوافقهم هذا القول.

(١) سورة الأعراف/ من الآية: ١٨٠.

(٢) في الأصل: (جهاز سمعي)، والصواب ما أثبتناه.

وقوله (عليه السلام): «**أَوْ مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِهِ ..**» أي: بين مشير بالإلوهيَّة إلى غيره، كعبدة الأوثان والمجوس، ومَنْ يُؤلِّه المسيحَ، واليزيديَّة، ونحوهم.

وقوله (عليه السلام): «**فَهَدَاهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلاَلَةِ ..**» أي: إنَّ الله تعالى هدى هذه الطوائف المتشتِّتةَ والمِللَ المتفرِّقةَ - الذين فصَّلنا ضلالتهم وعباداتهم آنفًا - برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حين بعثَه هاديًا بشريعته السمحاء تلكَ الأمم الوحشيَّة.

وقوله (عليه السلام): «**وَأَنْقَذَهُمْ بِمَكَانِهِ مِنَ الجَهَالَةِ..**» إشارة إلى نشر العِلم والثقافة، وصفاءِ التوحيد، ونزاهة العرفان بين تلك الأمَّة التي كانت على أقبح جانبٍ من الجهل والعوائد الذميمة، وظُلُمات التوحُّش، والارتباكات الاجتماعيَّة، وسوء الاستقامة، وألَّف بين قلوبهم، وكانوا أعداءً لم يألفوا غيرَ شنِّ الغارات وسفك الدماء، فأصبحوا بفضل الله ورسوله أشدَّاء على الكفَّار رحماءَ بينهم، فأرشدوا الكتابيِّينَ إلى ديانتهم الجديدة ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ**﴾[1]، تلك الديانة التي تحتوي على كلِّ ما يحتاجُه البشرُ مِن دين، وسياسة، واقتصاد، وأخلاق، واجتماع، تأمُر بالفضيلة، وتنهى عن الرذيلة وخيالات الأوهام، وهي أعظمُ جامعة ألَّفت بين تلك القبائل المتعادية بأسرع من لمح البصر، بل ألَّفت بين العربيِّ والحبشيِّ والفارسيِّ والروميِّ والمدنيِّ والقرويِّ والبدويِّ حتَّى أصبحوا كالبنيان المرصوص، يشدُّ بعضُه بعضًا، كلُّ ذلك بفضلِ محمَّدٍ (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي

(١) سورة آل عمران/ من الآية: ٦٤.

نَشَل الناسَ من بَحر تلك الجهالة.

وقوله (عليه السلام): «**ثُمَّ اخْتَارَ سُبْحَانَهُ لِمُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وآله لِقَاءَهُ**» أي: إنَّ الرَّسولَ العربيَّ بعدَ أن أدَّى رسالتَه كاملةً، وهدى الناسَ، توفّاهُ اللهُ إليه، كما أخبره تعالى بقوله: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ**﴾[1]، فقُبِضَ (صلى الله عليه وآله وسلم) مسمومًا بالمدينة المنوَّرة يوم الإثنين في اليوم الثامن والعشرين من صفر في السنة العاشرة للهجرة، وعمره المبارك ثلاث وستّون سنة، وقيل: توفّي في شهر ربيع الأوَّل، ومدَّة نبوَّته ورسالته ثلاث وعشرون سنة، عشرةٌ منها بالمدينة وما بقي في مكَّة المكرَّمة.

وقوله (عليه السلام): «**وَرَضِيَ لَهُ مَا عِنْدَهُ وَ أَكْرَمَهُ عَنْ دَارِ الدُّنْيَا..**» أي: إنَّ الله ما قبضَ رسولَه إلّا إكرامًا له عن دار الدنيا التي لا تتَّفقُ ومنزلَةَ هذا الرسولِ العظيم، فرضِيَ له ما أعدَّه له من ثوابٍ وجزاءٍ في تلك الدار الباقية، وغَرَضُ هذا الخبر خارجٌ عن معناه الأصليّ، ويُرادُ به الإرشادُ والموعظة.

وقوله (عليه السلام): «**وَرَغِبَ بِهِ عَنْ مُقَارَنَةِ البَلْوَى..**» لَمَّا كانت الدنيا دار بلوى ومِحَنٍ واختبار، رَغِبَ اللهُ به عنها، مِن قولهم: رَغِبْتُ عن كذا، أي: زَهِدتُ به، وهو نقيض الرغبة في الشيء.

وقوله (عليه السلام): «**فَقَبَضَهُ إِلَيْهِ كَرِيمًا صلَّى اللهُ عليه وآله ..**» أي: إنَّه لَمَّا رَغِبَ اللهُ به عن مجامعة البلوى، قَبَضَهُ كريمًا لم يدنس تاريخَ حياته بالمساوئ، ونصب كريمًا على الحال، ويريد (عليه السلام) بتكرار (صلّى الله عليه وآله) تعليمَ

(١) سورة الزمر/ الآية: ٣٠.

الصلاة على النبيِّ على هذا النحو، لا كما يفعله أعداءُ أهل البيت بقولهم عند ذكر الرسول: (صلَّى اللهُ عليه وسلم) مع أنَّهم هم الذين يَرْوُون عن النبيِّ (صلى الله عليه وآله وسلم) نهيَهُ عن مثل هذه الصلاة، ففي (الصواعق المحرقة)، لابن حجر عن النبيِّ (صلى الله عليه وآله وسلم) أنَّه قال[1]: «لاَ تُصلّوا عَلَيَّ الصَّلاَةَ البتراء»، فَقَالُوا: وَمَا الصَّلاَةَ البتراء؟ قَالَ: (تَقولُونَ: اللهمَّ صلِّ على مُحَمَّدٍ وتمسكون، بل قُولُوا اللهمَّ صلِّ[2] على مُحَمَّد وآل محمَّد..»، ولكن ابن حجر نفسه عند ذكر الرسول لم يُلحِق بالصلاة عليه (آلَه)، ويذكّرني هذا الجاهلُ بقصَّة كنتُ أحفظُها من عهدٍ بعيد، ملخَّصُها أنَّ أحدَ الحكَّام المسلمين كان شديدَ التمسُّك بالدين، واتَّفقَ أن نُقِلَت وظيفَتُه إلى مدينة شهيرة بسَبِّ الدين، وعندما شاهد هذه المناكير أمر مناديًا يعلن منع الناس من سب الدين، ومَنْ خالَفَ هذا الأمرَ عرَّضَ نفسَه إلى العقوبة الشديدة، فذهب المنادي يطوف بالأزقة والشوارع، ويقول برفيع صوته: بأمر الحاكم مَن يسبُّ الدينَ يَلعَنُ الحاكمُ دينَه ومذهَبَه، وهذا دليلُ تمسُّكِ أهل السُّنَّة بأهل البيت الذين أذهَبَ اللهُ عنهم الرجس وطهَّرهم تطهيرًا.

وقوله (عليه السلام): «**وَخَلَّفَ فِيكُمْ مَا خَلَّفَتِ الأَنْبِيَاءُ فِي أُمَمِهَا**..» أي: إنَّ الرسول بعد أن قبضَهُ اللهُ إليه خَلَّفَ في الناس ما تُخلِّفُهُ سائرُ الأنبياء في أُمَمِها،

---

(١) يُنظر: الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة (الطبعة الحديثة المحقَّقة): ٢/ ٤٣٠. وجاء فيها في آخر الرواية: (بل قُولُوا اللهمَّ صلِّ على مُحَمَّد وعَلى آل مُحَمَّد) بتكرار حرف الجرِّ (على).

(٢) في الأصل: (صلي)، والصواب ما أثبتناه.

مِن شرائع دينها، وكتابها، وأوصيائها الذين يقومون مقامَهم في الإرشاد والتحذير والترغيب.

وقوله (عليه السلام): «**إِذْ لَمْ يَتْرُكُوهُمْ هَمَلًا..**» أي: إنَّ الأنبياء لم تترك أُمَمَها مهمَلين كالدابَّة المهمَلَة بغير مَن يهديها إلى سبيل الرشد، وهذا نحو قوله في الفقرات السابقة: «**وَلَمْ يُخْلِ اللهُ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ أَوْ كِتَابٍ مُنْزَلٍ ۞ أَوْ مَحَجَّةٍ قَائِمَةٍ..**» إلّا أنَّ المسنَد إليه مختلِف، ففي هذه الفقرات كان المسند إليه رسول الله، وفي تلك كان البارئ عز وجل.

وقوله (عليه السلام): «**بِغَيْرِ طَرِيقٍ وَاضِحٍ ..**» يريد القرآن الكريم، فإنَّه طريقٌ واضحٌ يُوصل من سار عليه إلى جنَّات النعيم، أو إنَّه يريد الشريعة الإسلاميَّة.

وقوله (عليه السلام): «**وَلاَ عَلَمٍ قَائِمٍ..**» استعارة لطيفة، يريدُ بها تشبيهَ الإمام بالجبل الذي يُهتدَى به للطريق، والإمامُ اسمُ جنسٍ، ويُرادُ به كلُّ واحدٍ من الأئمَّة الاثني عشر (عليهم السلام)، وقد جاءَ هذا اللفظُ في الخطبة التي خطبها النبيُّ يوم الغدير؛ إذ قال (صلى الله عليه وآله وسلم): «مَعَاشِرَ النَّاسِ: إنَّ ربَّكم - جَلَّ جلاله - أمَرَني أنْ أقيمَ عليًّا إمامًا وحاكمًا وخليفةً، وأنْ أتَّخِذَه أخًا ووزيرًا»[1].

وقوله (عليه السلام): «**كِتَابَ رَبِّكُمْ مُبَيِّنًا حَلالَهُ وَحَرَامَهُ..**» نَصَبَ الكتابَ على أنَّه مفعولٌ إلى (خَلَّفَ)، فيكون التقدير: (خَلَّفَ فيكم كتابَ الله)، وهذا الكتابُ مبينٌ للحلال، وهو ما تساوى طرفاه، أي: لم يكن فيه اقتضاء الفعل، ولا اقتضاء الترك، كشُربِ الماءِ، وأكلِ الخبز، وكلّ ما يجوزُ فعلُه. وأمَّا الحرامُ،

(١) يُنظر: روضة الواعظين: ١٠٠، ومشارق أنوار اليقين، الحافظ رجب البرسّي: ٨٤.

فنقيضُه، وهو ما كان فيه اقتضاءُ التركِ مع المنعِ من النقيض، كالإفطارِ، وأكلِ لَحَمِ الخنزير، وقتلِ النفس بدون نفس، وإيذاءِ الجار، وعقوقِ الوالدين، وأكلِ مال الناس بالباطل، وبعبارة أوْجَز: الحرامُ كلُّ فِعْلٍ يستحقُّ فاعلُه العقوبةَ.

وأمَّا الفرائضُ، فجميعُ الواجبات الشرعية، وهي كلُّ شيءٍ فيه اقتضاءُ الفِعلِ مع المنعِ من النقيض، كالصلاة للمميِّز البالغ، والصوم في شهر رمضان، والحجّ لمن استطاع إليه سبيلًا، والزكاة لمن بَلَغَ عنده النصاب، والخمس لمن حالَ على مالِه الحولُ، والاعتقاد بعدل الله، والمعاد، والنبوَّة. وأمَّا الفضائلُ، فكلُّ ما اشتملَ عليه القرآنُ مِن حثٍّ على المكارم والأخلاق، والتحذير عن القبائح. وفي هذا المقام قال ابن أبي الحديد[1]: «الفضائلُ النوافل»، ثمَّ اعترَض على الراونديِّ، فقال: قال الراونديُّ[2]: «الفضائل هنا جمع فضيلة، وهي الدرجة الرفيعة»، وليس بصحيح، ألا تراه كيف جعل الفرائضَ في مقابلتها وقِسمًا لها؟.. لأنَّ الفضائلَ تشملُ النوافلَ وتصدُقُ عليها»، فابن أبي الحديد فَسَّرَ العامَّ بالخاصِّ، وعلى هذا اتضَحَ أنَّ النزاعَ لفظيٌّ يرجعُ إلى مجرَّد التسمية، والنوافل لا تقابل الفرائض في المعنى، ولكن المحرَّمات تقابلها تمامَ المقابلة.

وقوله عليه السلام: «**وَنَاسِخَهُ وَمَنْسُوخَهُ**» أي: مبيِّنهما، ومعنى النسخ: إعلامُ الناسِ بزوالِ حُكْمٍ من الأحكام، وهو لغةً: الإزالة، والناسخ: ما أزالَ حُكمًا سابقًا عليه، وذلك الحُكمُ يُسمَّى منسوخًا، أمَّا في الشرع، فالنسخ: إزالة

(١) يُنظر: شرح ابن أبي الحديد: ١/ ١٢٠.

(٢) رأيُّ الراونديّ يُنظر: في منهاج البراعة: ١/ ٨٩.

بعض الأحكام الشرعيَّة بالنصِّ الشرعيّ لفظًا أو حكمًا، ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[1].

واختلفَ العلماءُ في المنسوخ[2]، فمن قائلٍ: إذا أوجَبَ الشارعُ حكماً ثمَّ نَسَخَ وجوبَه، فهل يبقى العملُ به جائزًا أم لا؟ وهذا المتردِّد[3] في الحُكم لا يدري بجوازه أو عدمه، ومنهم مَنْ يقول: يبقى جائزًا، ومنهم من يمنعُ الجواز.

والمنسوخ نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾[4]، ونحو قوله تعالى: ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾[5]، ونحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾[6] بآية: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾[7]، ونُسِخَت آية الوصيَّة للأقربين[8] بآية الميراث[9]، ونُسِخَت

---

(١) سورة الرعد/ الآية: ٣٩.

(٢) يُنظر: الخلاف في المنسوخ في: الإحكام في أصول الأحكام، لابن حزم: ٤/ ٦٧، والبحر المحيط في أصول الفقه: ٣/ ١٥٢، وقوانين الأصول: ١٢٧،

(٣) في الأصل: (المُترد)، والصواب ما أثبتناه.

(٤) سورة الممتحنة/ من الآية: ١٠.

(٥) سورة النور/ من الآية: ٣.

(٦) سورة البقرة/ من الآية: ٢٢١.

(٧) سورة المائدة/ من الآية: ٥.

(٨) يعني الآية: ١٨٠ من سورة البقرة، وهي قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾.

(٩) وهي قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ

آية: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾[1] بآية: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾[2]، والناسخ هنا متأخِّر عن المنسوخ ذِكْرًا، لا تنزيلًا وتشريعًا.

وأمَّا آية إباحة المتعة[3]، فليست منسوخة بآية: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾[4]؛ لأنَّ آية المتعة مدنيّة، وآية: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ﴾ مكّيَّة، وغير معقول سبق الناسخ على المنسوخ تنزيلًا، بل كما قلتُ من أرجوزتي (ذكرى رزيَّة الطفّ)[5]:

ويلزمُ الناسخ أن يؤخّرا ... فهو على المنسوخ حكمٌ صَدَرا
ما حازَ للحكمِ على المحكومِ ... أنْ يشغلنَّ رتبةَ التقديمِ
إذ يُعرف المحكومُ ثم يُحكَمُ ... فالسارقُ المجهولُ لا يغرّمُ

وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ﴾ [سورة النساء/ من الآية: ١٢].

(١) سورة البقرة/ من الآية: ٢٤٠.

(٢) سورة البقرة/ من الآية: ٢٣٤.

(٣) وهي قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [سورة النساء/ من الآية: ٢٤].

(٤) سورة المؤمنون/ الآية: ٥.

(٥) يُنظر: مخطوطة (ذكرى رزيَّة الطفّ): ٣٤.

واعترضوا جهلاً وقد قالوا لنا ... قولَ سفيهٍ لا يُداني وَهَنا
أنْ فعلها لو لم يكن محرَّما ... لعملت به نساءُ العُلَما
دلَّت على تحليلها أقوالُكم ... وبيَّنت تحريمَها أفعالُكم
وقد أجبنا قولَهم صوابا ... وإن يكن لم يستحق جوابا
إنَّ الحلالَ مثلُ أكلِ السمكة ... ما جازَ أن تفعلَه وتتركه
وكم حلالٍ لا يليق فعلُه ... وليس بالإجماعِ ينفى حِلَّه
والقصدُ منها مثلُ قصدِ الدائمِ ... كما بذا يشهدُ كلُّ عالِمِ
تجوزُ حتى لو نوى التلذذا ... كذلك الدائمُ قد حلَّ لذا
وإنَّها في الطيِّباتِ تُجعَلُ ... لذا لها صحبُ الرسولِ فعلوا
وبدعةُ التحريمِ أن تنكرْ ... بعد النَّبيِّ صدرت من عُمَرْ

ومن هذا الموضوع[1]:

وما رَوَوْهُ عن عليِّ المُرتضى ... فاقدُ صحَّةٍ فليس يُرتَضى
لا تُرتضى روايةُ الخصمِ الألدّ ... شهادةُ الخصمِ لنفسِه تُرَدّ
قال البُخاري فاقرأ البُخاري ... وغيرَه من كُتُبِ الأخبارِ
مات النبيُّ وهي حِلٌّ دائما ... وما أتى وحيٌ لها مُحَرِّما

(١) يُنظر: مخطوطة (ذكرى رزية الطف): ٣٣. وفيها اختلفت رواية البيت الثاني؛ إذ جاء في صدره:

وكيف يُرضى ما روى الخصمُ الألدّ ...

ومنه[1]:

كيف أحلَّها النبيُّ زَمَنَا ... إذا فرضْنَا أنَّها مِنَ الزِّنَى

وقولُهُم (إلّا عَلَى أزواجِهِم) ... دلَّ على سخافةِ احتجاجِهِم

إذ آيةُ المتعةِ والحِلِّيَّة ... في يثربٍ وهذه مكّيّة

فإذا عرفتَ هذا عرفتَ وجودَ النسخ وجوازَه في الشريعة الإسلاميَّة.

أمَّا المسيحيَّة واليهوديَّة وإن أنكرتاه جَدَلًا فهو ثابتٌ في الإنجيل والتوراة وكتبهم الدينيَّة، وإن شئتَ التفصيلَ فراجع الجزءَ الأوَّل من كتاب (الهدى إلى دين المصطفى)[2]، لآية الله المرحوم الشيخ جواد البلاغي[3]، ففيه البيان الكافي والرَّدّ الشافي.

وقوله (عليه السلام): «**وَرُخَصَهُ وَعَزَائِمَهُ..**» الرُّخَص: جمعُ رُخْصَة، وهي رَفْعُ

---

(١) تنظر مخطوطة (ذكرى رزيَّة الطفّ): ٣٤. وجاء فيها: (كيف أباحها) بدلاً من: (كيف أحلَّها)

(٢) تنظر موسوعة العلاّمة الشيخ محمَّد جواد البلاغي، الهدى إلى دين المصطفى: م١/ ٢٨٣ - ٣٧٨.

(٣) هو محمَّد جواد بن حسن بن طالب البلاغيّ الربعيّ. فقيه متكلِّم وأديب شاعر. من آثاره الكثيرة: العقود المفصَّلة في حلِّ المسائل المشكِلة، حاشية على المكاسب، وغيرها. جُمِعَت مؤلَّفاته في موسوعة كبيرة. هاجر من النجف إلى سامراء، وبقي فيها نحوًا من عشر سنين، ثمَّ عادَ إلى النجف، فتوطَّنها إلى أن تُوفّي في ٢٢ شعبان عام ١٣٥٢هـ. يُنظر: معجم المؤلِّفين: ٣/ ١٦٤، وموسوعة طبقات الفقهاء: ١٤/ ٦٤٤، والأعلام: ٦/ ٧٤.

الحَرَجِ، والتسهيلُ في الأمور، كالتداوي بالخمر إذا حَكَم العادِلُ المجتهدُ بفنِّ الطب، وأكل الميتة عند الاضطرار، وإفطار شهر رمضان للمريض والمسافر والشيخ والشيخة.

وأمَّا العزائمُ، فجمع عزيمة، وهي الفرائض، كترك الأحكام المذكورة عند رفع عِلَّة تحليلها، كقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ**﴾[1]، وكقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ**﴾[2]، فهذه عزيمة أعقبَها برخصة، وهي قوله تعالى: ﴿**فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ**﴾[3] أي: إنَّ المضطرَّ إلى أكل هذه ولم يقصد فلا إثمَ عليه في أكلها ولا حَرَج.

وقوله (عليه السلام): «**وَخَاصَّهُ وَعَامَّهُ..**»، فالخاصُّ: هو البعض المُراد من أفراد العامّ حين الاستعمال، ولا بدَّ من مخصِّصٍ متَّصِل أو منفصِلُ يبيِّن المقصودَ قبل الشروع بالعامّ، وهو بمعنى الاستثناء، ويحتاج للقرينة المخصِّصّة، فإذا انتفت يجبُ إجراء أصالة عدم التخصيص، فإنَّ عدمَ الدليلِ دليلُ العدمِ كما يُقالُ[4].

---

(١) سورة الأنعام/ من الآية: ١٢١.

(٢) سورة البقرة/ من الآية: ١٧٣.

(٣) سورة البقرة/ من الآية: ١٧٣.

(٤) هذه القاعدة إنَّما تفيدُ انتفاء الحكم في الواقع، ولذا خصَّها بعضُ المحقِّقين بما يعمّ به البلوى؛ إذ عدم وصول الدليل في مثله دليل على انتفائه في الواقع، وهو دليل على انتفاء الحكم في الشريعة، إذ لو كان هناك حكم لبيَّنه الشارع. يُنظر: هداية المسترشدين، الشيخ محمَّد تقي الرازيّ: ٣/ ٥٤٤.

وأمَّا النَّسخُ، فشبيهٌ بالتخصيص، لا يَعرفُ سوادُ الناس تمييزَه عنه، وهو ما يكونُ بعدَ حُكمٍ عامٍّ عُمِلَ به ومضى زمانُ حِكْمَة تشريعه، وبين النسخ والتخصيص عموم وخصوص من وجه، واجتماعهما فيما كان نسخًا وتخصيصًا في الأزمان، والعامّ ضدُّ الخاصِّ، وهو كلِّيٌّ وضِعَ ليدلَّ على جميع مصاديقه على السواء من أجزاء أو جزئيَّات، كقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ**﴾[1]، وكقوله تعالى: ﴿**يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ**﴾[2]، وخطابُ المشافهةِ منه، إلاّ أنَّه لا يعمّ المتأخِّرَ عنه؛ لاستلزامه نسبة الجهل لله، نحو قوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾[3]؛ لأنَّ المعدومَ يقبح بالعاقل أن يطلب منه شيئًا، كما يُرشِدُ لذلك العقلُ السليم، وشبهةُ القائلين أنَّه لو لم يكن الرسول مخاطِبًا للحاضر والمعدوم لم يكن مرسَلًا للمعدوم، فجوابه: منع انحصار التبليغ بالعمومات الشفهيَّة؛ إذ يجوز أن يكون ذلك بالدلائل والنقل الصحيح.

وقوله (عليه السلام): «**وَعِبَرَهُ وَأَمْثَالَهُ..**» العِبَر - بكسر العين المهمَلَة وفتح الباء المعجمة -: جمع عِبرَة، وهي الموعظة، وذلك كالآيات التي تُخبِر عن أحوال الأمم السالفة واندراسهم وعقوبتهم على عصيانهم، وهو قوله تعالى: ﴿**كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا**﴾[4]،

---

(١) سورة الإسراء/ من الآية: ٣١.

(٢) سورة النساء/ من الآية: ١١.

(٣) سورة النساء/ من الآية: ١١.

(٤) سورة طه/ الآية: ٩٩.

ومن العِبَر القرآنيَّة قوله تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾[1] إلى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾[2]، وكقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ..﴾[3].

وأمَّا أمثالُ القرآن فكثيرة، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾[4]، وكقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[5]، وكقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[6]، والأمثالُ تمثِّلُ العِبَرَ، كما تشملُ الفضائلَ النوافل، وقد مرَّ شرحُها.

---

(١) سورة النازعات/ الآية: ١٧.

(٢) سورة النازعات/ الآية: ٢٦.

(٣) سورة الفجر/ الآية: ٦.

(٤) سورة البقرة/ الآية: ٢٦.

(٥) سورة يونس/ الآية: ٢٤.

(٦) سورة العنكبوت/ الآية: ٤١.

وقوله (عليه السلام): «**وَمُرْسَلَهُ وَمَحْدُودَهُ ..**» أي مطلقة ومقيَّدة، والأوَّل كتحرير رقبة، والثاني كتحرير رقبة مؤمِنة، والمطلق: ما دلَّ على شائع في جنسه، والفرق بينه وبين العامّ ما بيَّنه الشهيدُ الثاني - رحمه الله -[1]؛ إذ قال: «إنَّ المُطْلَقَ: هو الماهيَّة لا بِشرطِ شيء، والعامّ: هو الماهيَّة بشرط الكثرةِ المستغرِقة، والمقيَّد بخلاف المطلق»[2].

وقوله (عليه السلام): «**وَمُحْكَمَهُ وَمُتَشَابِهَهُ..**» المحكم: المحفوظ من الإجمال، ويعرِفُها عامَّة الأمة، كقوله تعالى: ﴿**وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**﴾[3]، ونحو قوله تعالى: ﴿**وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ**﴾[4]، والمتشابه: ما جاء على وجه الإجمال، بحيث يحتاج إلى إمعانِ الفكر، وفائدته شحن القرائح، وتوسيع الفهم، فالمعارفُ بنتُ البحث، وهي مفتقِرَة للنظر في معرفة المقصود منها، وهي خاصَّة لأهل العِلم والعرفان، وهذا النوع هو المقصود بقوله تعالى: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**﴾[5]، وذلك

---

(١) هو زينُ الدين بن عليّ بن أحمد بن جمال الدين الجبعيّ العامليّ، المعروف بالشهيد الثاني، أحد أعيان الإماميَّة وكبار مجتهديهم، صنّف كتبًا ورسائل كثيرة. قُتلَ شهيدًا سنة ستٍّ وستين وتسعمائة. يُنظر: موسوعة طبقات الفقهاء: ١٠/ ١٠٤ - ١٠٨، والأعلام: ٣/ ٦٤.

(٢) يُنظر: تمهيد القواعد (موسوعة الشهيد الثاني): ٥/ ٧٢.

(٣) سورة فصلت/ من الآية: ٤٦.

(٤) سورة التوبة/ من الآية: ٣٠.

(٥) سورة آل عمران/ من الآية: ٧.

كقوله تعالى: ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾[1] و ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[2]، و﴿يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾[3]، و﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[4]، فكلُّ واحدةٍ من هذه الآيات الشريفة تحتاجُ إلى تحقيقٍ ونظرٍ؛ لإخراجها عن مفاهيمها اللغويَّة؛ لاقتضائها التجسيمَ المحال الذي يمنعُه العقلُ الصحيح؛ ولقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[5]، فإن فرضناه جسمًا كان مثله شيء، وهو ينافي ما وَصَفَ به نفسَه بعدم وجود شيء مثله تعالى؛ ولأنَّ الجسمَ لازمُه وجهةٌ واحدة، والله يقول: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾[6]، فهو ليس بجهة، وإذا صحَّ هذا فهو ليس بجسم، فصحَّةُ اللازم تقتضي صحةَ الملزوم، والعكس بالعكس، وقد نصَّ تعالى على وجود المتشابهات والمُحكَمات في قرآنه المجيد في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾[7].

---

(١) سورة الأعراف/ من الآية: ٥٤. وسورة يونس/ من الآية: ٣، وسورة الرعد/ من الآية: ٢، سورة الفرقان/ من الآية: ٥٩، وسورة السجدة/ من الآية: ٤، وسورة الحديد/ من الآية:٤.

(٢) سورة الفتح/ من الآية: ١٠.

(٣) سورة البقرة/ من الآية: ٢١٠.

(٤) سورة القيامة/ الآيتان: ٢٢ – ٢٣.

(٥) سورة الشورى/ من الآية: ١١.

(٦) سورة البقرة/ من الآية: ١١٥.

(٧) سورة البقرة/ من الآية: ٧.

فإن قلت: هذه الآية تقسِّمُ القرآنَ إلى قسمين: مُحكَم ومتشابه، مع أنَّه تعالى يقول في سورة الزمُر: ﴿**اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ..**﴾[1]، فكيف الجمع بين هاتين الآيتين؟

والجواب: أنَّ المرادَ بالتشابه في سورة الزُمُر التشابه بالإعجاز، وإتقان الصياغة، وسموّ المعنى، فيكون المتشابه من قِبَل المشترَك اللفظيّ بين ما يُقابِل المُجمَل وبين المتقارِب بالإعجاز، فلا تدافُع. والجواب الثاني: جواز إطلاق المتشابهات على القرآن ولو دَخَل فيها المُحكَمُ مِن باب التغليب. والجواب الثالث: أنَّ المرادَ بها الآيات الخبريَّة، بقرينة قوله (حديث)، فتخرُجُ الإنشاءات، كالأوامر والنواهي والاستفهامات والنداء.

وقوله (عليه السلام): «**مُفَسِّرًا مُجْمَلَهُ..**» الضمير يرجع لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، والمُجْمَل: ما لم يكن قطعيَّ الدلالة على معناه، كالتباس إعادة الضمير مثلًا، كقوله تعالى: ﴿**أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ**﴾[2]، فقد يريدُ وَلِيَّ المرأة، أو يريدُ الزوجَ. أمَّا المبيَّن: فهو بخلافه، أي: هو متعيِّن الدلالة على المقصود منه، كقوله تعالى: ﴿**وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾[3]، ويريد بهذه الفقرة: إنَّ

---

(١) سورة الزمر/ من الآية: ٢٣.

(٢) سورة البقرة/ من الآية: ٢٣٧.

(٣) سورة البقرة/ من الآية: ٢٨٢، سورة النساء/ من الآية: ١٧٦، سورة النور/ من الآية: ٣٥، ومن الآية: ٦٤، سورة الحجرات/ من الآية: ١٦، سورة التغابن/ من الآية: ١١.

رسولَ الله لم يَمُتْ حتَّى فَسَّرَ المجمَلَ من القرآن؛ دفعًا للالتباس والخلاف.

وقوله (عليه السلام): «**وَمُبَيِّنًا غَوَامِضَهُ..**» أي: إنَّه أوضَحَ ما فيه من إشكالٍ تنبو الأفهامُ عن معرفته، وتنكُصُ القرائحُ دونَ مغزاه؛ لتعمَّ فائدتُه، فإنْ قلتَ: ذكرتَ سابقًا فائدةَ المتشابهات، وقلت: إنَّها تحدُّ القرائح والأذهان، فكيف الرسول يبيِّنها فتذهب الغايةُ منها؟ فنقول: إنَّه (صلى الله عليه وآله وسلم) لو بيّن ثلاثةً أو أكثر من المسائل الغامضة يصحُّ أن تسندَ إليه تبيان الغوامض، إذ لا يُرادُ منه عموم الغوامض، كقولك: أكلت طعامه، وأنت تريد البعض منه، أو أنَّه بيَّنها على وجه لا يخلو من وجود هذه الغاية معه.

وقوله (عليه السلام): «**بَيْنَ مَأْخُوذٍ مِيثَاقُ عِلْمِهِ..**» بعد أن ذَكَرَ (عليه السلام) تبيانَ الرسول لحلال القرآن وحرامه، وناسخِه، وغير ذلك ممَّا ذَكَرَه من الأحكام، شَرَعَ (عليه السلام) بتقسيم أحكام القرآن المجيد، فجعلها بين مأخوذ ميثاقُ عِلمِه، وهو ما كان في غاية الوضوح، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**﴾[1]، وبين موسعٍ على العباد في جهلُه، كالمتشابهات التي استأثر اللهُ في علمِها، نحو: حروف التهجّي التي في أوائل السور، مثل: (كهيعص)، و(ألم)، و(حميم)، و(عسق)، و(يس)، ونحوها ممَّا لم يبيِّن للناس معناه.

[وقوله (عليه السلام)]: «**وَبَيْنَ مُثْبَتٍ فِي الكِتَابِ فَرْضُهُ ۞ وَمَعْلُومٍ فِي السُّنَّةِ نَسْخُهُ..**»، ويراد بالسنّة هنا: قولُ النبيِّ فقط، أو فعلُه، أو تقريرُه، فيكون قولُ

(١) سورة يوسف/ من الآية: ٢٣.

النبيِّ أو فعلُه أو تقريره مانعًا من بقاء الحكم المنسوخ، وإنَّما اشترطنا قولَ النبيّ فقط؛ لنزول الوحي عليه دونَ غيره، والسُّنّةُ في غير هذا المقام أعمُّ؛ إذ تشمل هذه الأحوالَ من النبيّ وأوصيائه الاثني عشر (عليهم السلام)، ولا يُنسَخُ القرآنُ إلّا بسُنَّةٍ متواترة في عصرنا؛ لإحراز اليقين، وقد قال ابنُ أبي الحديد في تفسير هذه الفقرة[1]: «إنَّ مِن القرآن ما حُكمُه مذكورٌ في الكتاب منسوخٌ بالسُّنَّة، وما حُكمُه مذكورٌ في السُّنَّة منسوخٌ بالكتاب، مثال الأوَّل قوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾[2] نُسِخَ بما سَنَّه (عليه السلام) من رَجم الزاني المحصَن، ومثال الثاني صوم يوم عاشوراء كان واجبًا بالسُّنَّة ثمَّ نَسَخَه صومُ شهر رمضان الواجب بنصِّ الكتاب» انتهى كلامه.

أمَّا عندي فيُحتمَل أن تكونَ في السُّنَّة في كلتا الفقرتين هي الناسخة، وليس الفرقُ إلّا في تصاريف الكلام، وإيراد المعنى الواحد على وجوه، كما تقتضيه بلاغته (عليه السلام)، ويريد بذلك التأكيد، ولكن يبقى الفرقُ بين الفقرتين أن يكون - مرَّةً - الحكمُ في الكتابِ رُخصَةً، وتأتي السُّنَّة فتجعله عزيمةً، ومرَّةً يكون الحكمُ في الكتاب عزيمةً، وتأتي السُّنَّة وتجعله رُخْصَةً، فالسُّنَّة هي الناسخة في كلتا الفقرتين.

وأمَّا تفسيرُ الشيخ محمَّد عبده - مفتي الديار المصريَّة - لهما، فبعيد عن الصواب، قال[3]: «والمُثبَت في الكتاب فرضُه مع بيان السُّنَّة لنسخه، كالصلاة،

(١) شرح نهج البلاغة: ١/ ١٢٢.

(٢) سورة النساء/ من الآية: ١٥.

(٣) يُنظر: هامش نهج البلاغة (شرح الشيخ محمَّد عبده): ٢٩ - ٣٠.

فإنَّها فُرِضَت على الذين مِن قبلنا، غير أنَّ السُّنَّة بيَّنت لنا الهيئةَ التي اختصَّنا اللهُ بها، وكلَّفنا أن نؤدّي الصلاةَ بها، فالفرضُ في الكتاب، وتبيين نَسْخِه لِما كان قبلَه في السُّنَّة، والمرخَّص في الكتاب تركُه ما لم يكن منصوصًا على عينه» إلى أن قال: «كقوله تعالى: ﴿**فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ**﴾[1]، وقد عيَّنته السُّنَّة بسورة مخصوصة في كلِّ ركعة، فوَجَبَ الأخذُ بما عيَّنتهُ السُّنَّة..». وهذا قولٌ غيرُ سديد. أمَّا قولُهُ في المثال الأوَّل: (كالصلاة، فإنَّها فُرِضَت ..)، فليس هذا من النسخ، ولكنَّه تبينٌ بعد إجمال، فإنَّ قولَه تعالى: ﴿**أَقِيمُوا الصَّلَاةَ**﴾ مُجْمَلٌ لم نعرف كيفيَّة الصلاة، فأتت السُّنَّةُ مبيِّنةً لا ناسخة، ولكن الشيخ خَلَطَ النسخَ بالتبيين.

وأمَّا قولُهُ: «**وَمُرَخَّصٍ فِي الكِتَابِ تَرْكُهُ..**»، والمرخَّص في الكتاب تركُه ما لم يكن منصوصًا على عينه، ومثل قوله تعالى: ﴿**فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ..**﴾، **ثمَّ قال: «وقد عيَّنتهُ السُّنَّة بسورة مخصوصة ..»**، فهذا أيضًا بيانٌ بعد إجمال، لا مِن الواجب في السنة أخذه، والمرخَّص في الكتاب تركُه، فإنَّ الكتابَ يريدُ إيجاد ماهيَّة الصلاة، ولم يرخِّص في ترك أيِّ ماهيَّة، كما أنَّه لم يوجبها، بل يريد ما يتحقَّق بها الصلاة، وهذا مجملٌ لا يعرفُه الناسُ، فأتت السُّنَّةُ مبيِّنةً لهم ما يتحقَّق به الصلاة بالكيفيَّة المخصوصة والوجه المعهود، ولو قال في المثال الأوَّل: كالصلاة، فإنَّها مفروضة على غيرنا، ونَسَخَتْها السُّنَّة بتشريع غيرها، أو كقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ**﴾[2]، فالاستماع للقرآن واجبٌ

(١) سورة المزمل/ من الآية: ٢٠.

(٢) سورة الأعراف/ من الآية: ٢٠٤.

في الكتاب، ولكن السُّنَّة نسخَتْهُ بوجوبه خَلْفَ الإمام لكان له وجهُ صحَّةٍ.

وقوله (عليه السلام): «**وَبَيْنَ وَاجِبٍ بِوَقْتِهِ ۞ وَزَائِلٍ فِي مُسْتَقْبَلِهِ ..**» من جملة أقسام الكتاب التي ذكرها (عليه السلام)، ويريدُ به ما كان من الواجبات المؤقَّتة بوقت حصولها، كالزكاة، والخمس، والحجّ، والصوم، فإنَّ وجوبَها زائلٌ في استقبالها، أي: قبل حصولها، وتجب بوقتها، أي حين حصولها أو حصول أسباب وجوبها.

وقوله (عليه السلام): «**وَمُبَايَنٌ بَيْنَ مَحَارِمِهِ ..**» برفع (مُبَايَن) على أنَّه خبر للكتاب[1]، أي: إنَّ الكتابَ قد فرَّق بين المحارم الموجودة فيه، فليست كلّها على نوعٍ واحدٍ، ثُمَّ شرع ببيان تنويعها، فقال (عليه السلام): «**مِنْ كَبِيرٍ أَوْعَدَ عَلَيْهِ نِيرَانَهُ...**» (أوعَدَ): من الوعيد لا من الوعد، والفرق بينهما: أنَّ تَركَ الأوَّل جائزٌ غيرُ مذموم، بخلاف تَرك الثاني، فإنَّه من الرذائل، و(الكبائر): الذنوب العظام، أو الإصرار على الصغائر، قال تعالى: ﴿**إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ**

(١) قولُهُ (عليه السلام): «وَمُبَايَنٌ بَيْنَ مَحَارِمِهِ..» اختُلِفَ في ضبطِهِ بين رَفْعِ (مُبايَن) وجرِّه، والأكثر الأقرب هو الجرُّ، بخلاف توجيه المؤلِّف - رحمه الله - بالرَّفع على أنَّها خبرٌ لـ(الكتاب)؛ لأنَّ لفظَ (الكتاب) ليس مبتدأً حتَّى يصح أن تكون (مُبَايَن) خبرًا، وأنَّ توجيه الجرّ يكونُ بالعطف على المجرورات التي سبقتْ، وبهذا النَّحو الإعرابيّ ضبطها الشيخ قيس العطَّار في نسخة النهج التي بتحقيقه، وكذا يُفهمُ من شرح الشيخ ابن ميثم البحرانيّ لهذه الفِقرة، وإن كان تشكيلها في النَّصِّ بالرَّفع، في حين يكون توجيهها بالرَّفع ليس كما ذهب المؤلِّف بأنَّها خبرٌ لـ(الكتاب)، بل يمكنُ توجيهُهُ بتكلّفٍ على أنَّه خبرٌ لمبتدأ محذوف. يُنظر: شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحرانيّ: ١/ ٢٢٢، ونهج البلاغة، تحقيق: الشيخ قيس بهجت العطَّار: ٥٢

عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾[1]، وفي الكافي بسند يرفعُه إلى أبي الحسن (عليه السلام) أنَّه سأله رجلٌ عن الكبائر كم هي؟ وما هي؟ فكتب (عليه السلام): «الْكَبَائِرُ: مَنِ اجْتَنَبَ مَا وَعَدَ اللهُ عَلَيْهِ النَّارَ..»[2]، وفي سندٍ آخر مرفوع لأبي عبد الله (عليه السلام) أنَّه قال: «الْكَبَائِرُ سَبْعٌ: قَتْلُ الْمُؤْمِنِ مُتَعَمِّدًا، وقَذْفُ الْمُحْصَنَةِ، والْفِرَارُ مِنَ الزَّحْفِ، والتَّعَرُّبُ بَعْدَ الْهِجْرَةِ، وأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ظُلْمًا، وأَكْلُ الرِّبَا بَعْدَ الْبَيِّنَةِ، وكُلُّ مَا أَوْجَبَ اللهُ عَلَيْهِ النَّارَ»[3]، وفي خبرٍ آخر حذفنا سنده للاختصار، عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنَّه قال: «هُنَّ فِي كِتَابِ عَلِيٍّ (عليه السلام) سَبْعٌ: الْكُفْرُ بِاللهِ، وقَتْلُ النَّفْسِ، وعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وأَكْلُ الرِّبَا بَعْدَ الْبَيِّنَةِ، وأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ظُلْمًا، والْفِرَارُ مِنَ الزَّحْفِ، والتَّعَرُّبُ بَعْدَ الْهِجْرَةِ. قال الراوي: قلتُ: هذا أَكْبَرُ المَعَاصِي، قالَ: نعم. قُلْتُ فَأَكْلُ دِرْهَمٍ مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ ظُلْمًا أَكْبَرُ أَمْ تَرْكُ الصَّلَاةِ. قَالَ: تَرْكُ الصَّلَاةِ..»[4]، والصغائر داخلة في الاستثناء من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾[5].

---

(١) سورة النساء/ الآية: ٣١.

(٢) الكافي: ٢/ ٢٧٦. وتتمَّة الرواية التي تتضمَّن جواب الشرط، فضلاً عن الشاهد المُراد هي قولُهُ: «... كَفَّرَ عَنْه سَيِّئَاتِه إِذَا كَانَ مُؤْمِناً والسَّبْعُ الْمُوجِبَاتُ: قَتْلُ النَّفْسِ الْحَرَامِ، وعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وأَكْلُ الرِّبَا، والتَّعَرُّبُ بَعْدَ الْهِجْرَةِ، وقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ، وأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، والْفِرَارُ مِنَ الزَّحْفِ».

(٣) الكافي: ٢/ ٢٧٧.

(٤) الكافي: ٢/ ٢٧٨.

(٥) سورة النساء/ من الآية: ٤٨.

وقوله (عليه السلام): «**أَوْ صَغِيرٍ أَرْصَدَ لَهُ غُفْرَانَهُ..**» هذا هو النوع الثاني من المحارم، فإنَّ الذنوبَ منها ما يقبُح العفو عنها، ومنها ما يُستَحسَنُ، والعاقل مَنْ استعملَه في مواضعه، وإلّا فهو قبيحٌ، كقول الشاعر من الطويل[1]:

فَوَضْعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ فِي الْعُلى ... مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

كما يُحكى أنَّ معاوية ابن أبي سفيان دخل منزلَه، فوجَدَ رجلًا مفترِشًا زوجَتَه يعملُ فيها المنكَر، فبَصُرَ به الرجلُ واضطَرَبَ، وقال: بحلمِك يا أميرَ المؤمنين، فقال معاويةُ: أوَتَسْتُرُ؟ فقال: نعم أَسْتُرُ، فقال: تحلَّمْت وتكرَّمتُ، فأطلقه. فهذا النوع من العفو رذيلة.

أمَّا الذنوبُ التي يُستَحسَنُ العفوُ عنها، ما كانت من الصغائر الفاقدة للإصرار؛ لأنَّ الإصرارَ على الذنبِ ذنبٌ ثانٍ[2]، كما قال أميرُ المؤمنين (عليه السلام) في غير هذا المقام: «إنَّ الْقَلْبَ لَيُوَاقِعُ الْخَطِيئَةَ، فَمَا تَزَالُ بِه حَتَّى تَغْلِبَ عَلَيْه فَيُصَيِّرَ أَعْلَاه أَسْفَلَه»[3].

وتركُ الأَوْلَى ليس من الصغائر ولا الكبائر، بل هو دونهما؛ لأنَّهما محضوران، وهو جائزٌ فِعلُه، وإن كان يُلامُ فاعِلُه؛ لارتكاب النهي التنزيهيّ، والصغائرُ كتقبيل المرأة الأجنبيَّة، والنظر إليها بشهوة، وفي مجمع البحرين في

---

(١) البيت للمتنبّي، يُنظر: ديوانه: ٣٧٢.

(٢) في الأصل: (ثاني). والصواب ما أثبتناه.

(٣) الكافي: ٢/ ٢٦٨.

مادة (صَغَرَ)[1]: «اُختُلف في معنى الصغيرة والكبيرة، فقيل: كلُّ ما نهى اللهُ عنه فهو كبيرة؛ لأنَّ المعاصِيَ كلَّها كبائرُ مِن حيثُ إنَّها قبائحُ كلّها، بعضُها أكبرُ مِن بعض، وليس في الذنوب صغيرٌ، وإنَّما يكونُ صغيرًا بالإضافةِ إلى ما هو أكبر منه..». وهذا القولُ غيرُ مرضِيٍّ؛ لمخالفته نصَّ القرآن، فقد قال (عزَّ شأنُه): ﴿**إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ**﴾[2]، فَوَعْدُ الغفران على السيِّئات إذا اجتنبوا الكبائرَ، والشيءُ لا ينقسم لنفسه ولغيره، فتعيَّن أنَّ الذنوب على نوعين: كبائر وصغائر، ثمَّ لو لم تكن صغائرُ، فأيّ شيء يكفِّرهُ اللهُ بعد ذلك ويتجاوز عنه، وقولهم: «ليس يوجد صغير وإنما يكون بالإضافة إلى ما هو أكبر منه»، فلنا أن نعكس القول، ونقول: لا يوجد كبير، وإنَّما هو بالإضافة إلى ما هو أصغر منه، والقول الصواب: إنَّ الذنوب منها ما هو من الكبائر التي يُقالُ: إنَّها سبعة، أو سبعون[3]، أو سبعمائة، ومنها ما هو من الصغائر، وهو ما خَرَجَ عن هذا العدد؛ لآيةِ: ﴿**إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ**﴾؛ ولقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ**﴾[4]؛ ولتقسيم أمير المؤمنين لها، وجعلِها على نوعين كما قال (عليه السلام): «**مِنْ كَبِيرٍ أَوْعَدَ عَلَيْهِ نِيرَانَهُ ۞ أَوْ صَغِيرٍ أَرْصَدَ لَهُ غُفْرَانَهُ**»، فَمَنْ جَعَلَ الذنوبَ كلَّها من الكبائر يَلزَمُ أن لا يغفرَها اللهُ؛ للشرط في أن تجتنبوا،

---

(١) مجمع البحرين: ٣/ ٣٦٥.

(٢) سورة النساء/ من الآية: ٣١.

(٣) في الأصل: (سبعين)، والصواب ما أثبتناه.

(٤) سورة النساء/ من الآية: ٤٨.

مع أنَّ تمامَ الآية وهذه الفقرة يصرِّحان بغفران بعضِ الذنوب، فثبتَ ما أردناه من تقسيم الذنوب لكبائر وصغائر، والأوَّل كالشرك بالله، والثاني كالخطرات التي لا يؤاخَذ عليه الإنسان؛ لعدم دخولها تحتَ الاختيارِ والقصدِ.

وقوله (عليه السلام): «**وَبَيْنَ مَقْبُولٍ فِي أَدْنَاهُ ۞ وَمُوَسَّعٍ فِي أَقْصَاهُ..**» هذا عَوْدٌ على بدء، تقسيم الكتاب إلى ما يَسَعُ الناس جهلُه وما لا يَسَع، ويريدُ (عليه السلام) بالمقبول في أدناه، كقراءة بعض القرآن، وبالموسَّعِ في أقصاه، قراءته كلَّهُ، أو يريدُ بالأوَّلِ الفرائضَ، وبالثاني الفرائضَ مع النوافل.

من الأصل

في ذِكْرِ الحج: «**وَفَرَضَ عَلَيْكُمْ حَجَّ بَيْتِهِ الْحَرَامِ ۞ الَّذِي جَعَلَهُ قِبْلَةً لِلْأَنَامِ ۞ يَرِدُونَهُ وُرُودَ الْأَنْعَامِ ۞ وَيَأْلَهُونَ إِلَيْهِ وُلُوهَ الْحَمَامِ ۞ جَعَلَهُ سُبْحَانَهُ عَلَامَةً لِتَوَاضُعِهِمْ لِعَظَمَتِهِ ۞ وَإِذْعَانِهِمْ لِعِزَّتِهِ ۞ وَاخْتَارَ مِنْ خَلْقِهِ سُمَّاعًا أَجَابُوا إِلَيْهِ دَعْوَتَهُ ۞ وَصَدَّقُوا كَلِمَتَهُ وَوَقَفُوا مَوَاقِفَ أَنْبِيَائِهِ وَتَشَبَّهُوا بِمَلَائِكَتِهِ الْمُطِيفِينَ بِعَرْشِهِ يُحْرِزُونَ الْأَرْبَاحَ فِي مَتْجَرِ عِبَادَتِهِ ۞ وَيَتَبَادَرُونَ عِنْدَهُ مَوْعِدَ مَغْفِرَتِهِ ۞ جَعَلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِلْإِسْلَامِ عَلَمًا ۞ وَلِلْعَائِذِينَ حَرَمًا ۞ وَفَرَضَ حَقَّهُ وَأَوْجَبَ حَجَّهُ[1] وَكَتَبَ عَلَيْكُمْ وِفَادَتَهُ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ**

(١) في الأصل تقديمٌ وتأخير في العبارة؛ إذ قال: «فرضَ حجَّه، وأوجب حقَّه»، والمُثبت منقولٌ من شرح ابن أبي الحديد: ١/ ١٢٣.

العالَمِينَ﴾[1]».

اللغة

(فَرَضَ): أَوجَبَ، و(الحجّ) في اللغة: مُطَلَقُ القَصد، واستعملَه الشارعُ في أداء مناسكَ معلومةٍ، إمَّا بوضعٍ خاصٍّ أو على طريق المَجاز، على الخلاف المشهور، و(يأتُون): يشتاقون، و(الإذعان): الانقياد والطاعة، و(سبحان): مصدرٌ بمعنى الأمر أي نزِّهه، ويأتي للتعجّب، كقوله: سبحانَ الله ما هذا بَشَر!، ويأتي بمعنى الحَمد، و(العَلَم) بالتحريك: العَلامة، وقيل: الجَبَل الذي يُهتَدى به للطريق، و(العائذين): اللاجئين، و(الحرم والحرام): ما لا يَحِلُّ انتهاكُه، و(كَتَبَ) أي: أوجَبَ، كقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾[2] أي: فَرَضَهُ، و(الوفادة): الذهاب للاسترفاد، ويُرادُ به هنا الحجّ، و(السبيل): الطريق.

الشرح

قوله (عليه السلام): «وَفَرَضَ عَلَيْكُمْ حَجَّ بَيْتِهِ الحَرَامِ» يريدُ: إنَّ اللهَ أوجَبَ حجَّ مكَّةَ المكرَّمة، والحجُّ في عُرفِ الفقهاء[3]: قصد البيت الحرام دون سواه مع نيَّة القُربَة إلى الله تعالى بأفعالٍ مخصوصة، والواجب منه أوَّلًا وبالذات حِجَّة

(١) سورة آل عمران/ من الآية: ٩٧.

(٢) سورة البقرة/ من الآية: ١٨٣.

(٣) يُنظر: الاقتصاد، للشيخ الطوسّي: ٢٩٧، والسرائر (موسوعة ابن إدريس الحلّيّ): ٢/ ٢٤١، وتحرير الأحكام: ١/ ٥٣٣.

الإسلام، ولا تجبُ إلّا مرَّةً واحدةً في العُمُر، وهي على ثلاثة أقسام[1]: حجّ تمتّع، وحجّ قِران، وحجّ إفراد، والنوع الأوّل هو الواجب على الأغلب، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «**فَرَضَ اللهُ على أمّتي الوقوفَ والتضرُّعَ والدعاءَ في أحبِّ المواضع إليه، وتكفَّلَ لها بالجنَّة**»[2] إلى أن قال (صلى الله عليه وآله وسلم): «**والذي بَعَثَني بالحقِّ بشيرًا ونذيرًا إنَّ لله بابًا في السماء الدنيا يُقال له: باب الرحمة، وباب التوبة، وباب الحاجات، وباب التفضل، وباب الإحسان، وباب الجود، وباب العفو، ولا يجتمعُ بعرفات أحدٌ إلّا استأهَلَ مِن الله في ذلك الوقتِ هذه الخصال..**»[3].

ووَرَدَ عن أبي عبد الله لَمَّا سُئل عن حدود الإيمان، فقال (عليه السلام): «شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَه إِلَّا اللهَّ وأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهَّ (صلى الله عليه وآله وسلم)، والإِقْرَارُ بِمَا جَاءَ بِه مِنْ عِنْدِ اللهَّ، وصَلَاةُ الْخَمْسِ، وأَدَاءُ الزَّكَاةِ، وصَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ، وحِجُّ الْبَيْتِ، ووَلَايَةُ وَلِيِّنَا وعَدَاوَةُ عَدُوِّنَا، والدُّخُولُ مَعَ الصَّادِقِينَ»[4]، ورُوي عن صادق أهل البيت (عليه السلام) أنَّه سأله رجلٌ، فقال: «عَتقُ نَسَمَةٍ أفضلُ أم حِجَّة؟ فقال (عليه السلام): حِجَّة، قال الرجل: فرقبتَينِ، قال (عليه السلام): بل حجَّة، فَلَم يَزَل يزيدُ، وهو (عليه السلام) يقول: بل حِجَّة، حتَّى بَلَغَ ثلاثين رقبة، فقال: الحجّ أفضل»[5]،

---

(١) يُنظر: الاقتصاد: ٢٩٨، والسرائر: ٢/ ٢٦٤، وشرائع الإسلام، للمحقق الحلّيّ: ١/ ١٧٣.

(٢) يُنظر: الأمالي: ٢٦٠، وروضة الواعظين: ٣٥٩، ووسائل الشيعة: ١٣/ ٥٥٠.

(٣) تنظر المصادر السابقة نفسها.

(٤) يُنظر: الكافي: ٢/ ١٨، ووسائل الشيعة: ١/ ١٧.

(٥) يُنظر: روضة الواعظين: ٣٦١، ووسائل الشيعة: ١١/ ١٢٢.

وقال (عليه السلام): «مَنْ مَاتَ ولَمْ يَحُجَّ حَجَّةَ الإِسْلَامِ ولَمْ يَمْنَعْه مِنْ ذَلِكَ حَاجَةٌ تُجْحِفُ بِه، أَوْ مَرَضٌ لَا يُطِيقُ مَعَهُ، أَوْ سُلْطَانٌ يَمْنَعُه، فَلْيَمُتْ – إن شاء – يَهُودِيّاً أَوْ نَصْرَانِيًّا. انتهى»[1]، ونستفيد من هذا التخيير أنَّ عقابَ اليهود والنصارى واحدٌ، وإلّا ما جازَ أن يخيِّرَ العاصي مع العِلم أنَّه يختار الأخف، ومَن تَرَكَ الحجَّ لا لعذر كافرٌ بنصِّ القرآن، وهو أثقلُ التكاليف الشرعيَّة وأصعبها؛ لمفارقة الأهل والوطن، ومشقَّة السفر، وبذل المال، والتعرّض للمخاطر، حتَّى قال تعالى: (ولستم ببالغيه إلا بشق الأنفس)[2]. ويحكى إنَّ أحد المتموِّلين من أهل فارس كان في رفاهية عيش، ومعه شيء من التقوى، واتّفَقَ أنَّه قَرَأَ قولَه تعالى: (ولستم ببالغيه إلّا بِشِقّ الأنفس)، فتعجَّبَ وقال في نفسه: هذا لا يمكن أبدًا ثمَّ عزم على الحجّ في تلك السنة، فعمل له مَحمَلًا وثيرًا[3]، والخدم تحيطُ به، وهو يأمر وينهى، ولمَّا دخَلَ الحجازَ ذَكَرَ الآية، فقال في نفسه: كيف يقولُ تعالى ذلك وأنا بلغتُهُ بدون شِقّ الأنفس؟ وبينما هو غارق في مثل هذه الهواجس إذ اعترَضَتهُ شوكةٌ قويَّة، أفقَدَتهُ إحدى عينَيه، فتألَّمَ وتَضَجَّر، ثمَّ قضى مناسك الحجّ وقفل إلى أهله راجعًا، وبعد مدَّة اتفق أنَّه قرأ تلك الآية، فأخَذَ قلمًا وكتب: بعد شِقِّ الأنفس وقلع الأعين.

---

(١) يُنظر: الكافي: ٤/ ٢٦٨، ومَنْ لا يحضره الفقيه: ٢/ ٤٤٧، والوافي: ١٢/ ٢٥٢،

(٢) ليس من القرآن. ولعلَّه أراد قوله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ [سورة النحل/ من الآية: ٧]

(٣) الوثير: الفِراشُ الوَطيء، وكلّ وطيء وثير. يُنظر: العين، (وثر)، للخليل بن أحمد الفراهيديّ: ٨/ ٢٣٤.

ولذلك كان الحجّ من أصعب العبادات.

وهو يشتملُ أنواعًا من الطاعة، وضُروبًا من العبادة، مِن تجرُّدٍ لِذِكرِ الخالِق، وإنفاقِ الأموال في سبيله، وتحمّل أذيَّة السفر لأجله، وكفّ الشهوات، وتوجيه القلب إليه، مع إظهار الذلِّ لعظمتِهِ، وامتحان القلوب في طاعته ببعض الأفعال التي تقصر عن فهمِها العقولُ وتَحِيرُ الأفكار، كرمي الجِمار، والهرولة بين الصفا والمروة سبعةَ أشواط، وتحريم بعض ما أحلَّه اللهُ تعالى، كالصيد البرّيّ، وأكله وإمساكه، والجُماع، واستعمال الطِّيب والرياحين، ولبس المَخِيط للرجال، والاكتحال بقصد الزينة، والنظر بالمرآة، ولبس الخفّ، وقتل الهوامّ التي في بدن المُحرِم، كالقمل، والبرغوث، والتختّم للزينة، وإزالة الشَّعر، والتظليل، وتقليم الأظفار[1]. وقد جعلَ الشارعُ ذلك سِرًّا لم يَذُعْهُ للَخلق، فإنَّ ما يعرفه الناسُ وتُدرَكُ أسرارُه سهلٌ عليهم القيامُ به، ومالت نفوسُهم إليه، بخلاف ما كان مكتومًا عنهم، فإنَّ قيامَهم به أعظَمُ مظهرٍ للعبوديَّة والانقياد، ولعلَّ هذه الحكمةَ هي السببُ في كتمان معانيها عن الناس.

وقوله (عليه السلام): «**الَّذِي جَعَلَهُ قِبْلَةً لِلْأَنَامِ..**» (الذي): بدلٌ من لفظ الجلالة[2]، و(القِبلَة) - بكسر القاف -: الجهة، أي: جعلَ اللهُ متَّجهًا للناس

---

(١) وهذه تسمَّى محظورات أو محرَّمات الحجّ. يُنظر: المبسوط، الشيخ الطوسّي: ١/ ٣٣٦، والمختصر النافع، المحقّق الحلِّيّ: ٨٤، وتحرير الأحكام، العلّامة الحلِّيّ: ١/ ٥٣٣.

(٢) وَهَمَ المؤلِّفُ - رحمه الله - في إعراب الاسم الموصول؛ إذ إنَّ موضعَه من الإعراب

يقصدونـه في كلِّ عـام؛ لأداء مناسـكهم.

وقولـه (عليه السلام): «**يَرِدُونَـهُ وُرُودَ الأَنْعَـامِ..**» (يَرِدُونَـهُ) مِـن وَرَدَ لا رَدَّ، يريـد: أنَّ النـاس يجيئـون للبيـت الحـرام كـما تجـيء الأَنعَـامُ بفتـح الهمـزة، وجِهَـة الشـبه في الانقيـاد والطاعـة والأنعـام الراغيـة، وأكثـر مـا يُستَعمَل في الإبـل.

وقولـه (عليه السلام): «**وَيَأْلَهُـونَ إِلَيْـهِ وُلُـوهَ الحَـمَامِ**» أي: إنَّ النـاسَ يشـتاقون إلى البيـت الحـرام كـما يشـتاقُه الحـمامُ السـاكن بـه عنـد مفارقتـه في طلـب القـوت.

وقولـه (عليه السلام): «**جَعَلَـهُ سُـبْحَانَهُ عَلامَـةً لِتَوَاضُعِهِـمْ لِعَظَمَتِهِ..**»، وهذا يكشـفُ بعـضَ السـرِّ في بعـض أحـكام الحـجّ التـي يسـتهجنُها مَـن لم يَقِـف عـلى حِكمَتِها.

وقولـه (عليه السلام): «**يُحْـرِزُونَ الأَرْبَـاحَ فِي مَتْجَـرِ عِبَادَتِـهِ..**» أحسـنُ اسـتعارة، فـإنَّ التجـارة يأمَـلُ بهـا صاحبُهـا الربـحَ، فسـمَّى الثـواب ربحًـا، والعبـادة تجـارة.

وقولـه (عليه السلام): «**جَعَلَـهُ سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى لِلْإِسْـلامِ عَلَـمًا**» أي: علامـة يتميَّـزون بـه عـن غيرهـم؛ وذلـك بعـد تحريـم دخولـه عـلى المشركـين في قولـه تعـالى: ﴿**يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـوا إِنَّمَـا الْمُشْرِكُـونَ نَجَـسٌ فَـلَا يَقْرَبُـوا الْمَسْـجِدَ الْحَـرَامَ بَعْـدَ عَامِهِـمْ هَـذَا...**﴾[1].

وقولـه (عليه السلام): «**وَلِلْعَائِذِيـنَ حَرَمًـا**» أي: جعلَـه اللهُ موضِعًـا لا تُنتَهـكُ فيـه حُرمـة، فيجتمـعُ القاتـلُ مـع أهـلِ المقتـول في صعيـدٍ واحـد، ولا يهيجونـه بسـوء مـع قدرتهـم عـلى الاقتصـاص منـه وأخـذ الثـأر، فـكان مانعًـا لبعضِهـم عـن بعـض

نعتٌ لـ(البيت) في محلِّ جر، وليس بدلًا.

(١) سورة التوبة/ من الآية: ٢٨.

في زمان الجاهليَّة والإسلام، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾[1]. وقوله (عليه السلام): «وَفَرَضَ حَقَّهُ وَأَوْجَبَ حَجَّهُ» إشارة لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[2]، وهذه الآية آخر هذه الخطبة المباركة .

(١) سورة البقرة/ من الآية: ١٢٥.

(٢) سورة آل عمران/ من الآية: ٩٧.

[الخطبة الثانية]

الأصل

ومِن خِطْبَةٍ له (عليه السلام) بعد مُنصرَفِهِ من صِفِّين:

«أَحْمَدُهُ استِتْمَامًا لِنِعْمَتِهِ ۞ واستِسْلامًا لِعزَّتِهِ ۞ واسْتِعْصَامًا مِنْ مَعْصِيَتِهِ ۞ وأَسْتَعِيْنُه فاقَةً إلى كِفايَتِه، إنَّهُ لا يَضِلُّ مَنْ هَدَاه ۞ ولا يَئِلُ مَنْ عادَاه ۞ ولا يَفْتَقِرُ مَنْ كَفَاه ۞ فإنَّهُ أَرْجَحُ مَا وُزِنَ ۞ ..»

روافد التحقيق

-القرآن الكريم.

-المصادر والمراجع:

١.الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، أبو عبد الله عبيد الله بن محمَّد العُكْبَريّ المعروف بابن بَطَّة العكبريّ (ت٣٨٧هـ)، تحقيق: عثمان عبد الله آدم الأثيوبيّ، دار الراية للنشر – السعوديَّة، ط٢/ ١٤١٨هـ.

٢.الاحتجاج، الشيخ الطبرسيّ (ت٥٤٨هـ)، تعليق وملاحظات: السيد محمَّد باقر الخرسان، دار النعمان للطباعة والنشر – النجف الأشرف/ ١٩٦٦م.

٣.الإحكام في أصول الأحكام، أبو محمَّد عليّ بن أحمد الأندلسيّ القرطبيّ الظاهريّ (ت٤٥٦هـ)، تحقيق: الشيخ أحمد محمَّد شاكر، قدَّم له: الأستاذ الدكتور إحسان عبَّاس، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

٤.الأزريَّة في مدح النَّبي والوصي والآل (صلوات الله عليهم أجمعين)، لناظمها الشيخ محمد كاظم الأزري، وتخميسها للأديب الشيخ جابر الكاظمي، دار الأضواء، بيروت، ط١/ ١٩٨٩م.

٥.أُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (ت٦٣٠هـ)، تحقيق: علي محمد معوض - عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، ط١/ ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

٦.الأصول في النحو، أبو بكر محمد بن السرّيّ بن سهل النحويّ المعروف بابن السراج (ت٣١٦هـ)، تحقيق: عبد الحسين الفتليّ، مؤسَّسة الرسالة، لبنان – بيروت. (د.ط).

٧.الأعلام، خير الدين بن محمود الزركليّ الدمشقيّ (ت١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، ط١٥/ ٢٠٠٢م.

٨.أعلام النبوَّة، أبو الحسن علي بن محمد البصريّ البغداديّ، الشهير بالماورديّ (ت٤٥٠هـ)، دار ومكتبة الهلال – بيروت، ط١/ ١٤٠٩هـ.

٩.الاقتصاد، الشيخ الطوسيّ (ت٤٦٠هـ)، منشورات مكتبة جامع چهلستون – طهران، مطبعة الخيام – قم / ١٤٠٠هـ.

١٠.الأمالي، الشيخ الصدوق (ت٣٨١هـ)، قسم الدراسات الإسلاميَّة، مؤسَّسة البعثة – قم، ط١/ ١٤١٧هـ.

١١.بحار الأنوار، محمَّد باقر بن محمَّد تقي المشهور بالعلّامة المجلسيّ (ت١١١١هـ)، تحقيق: السيد إبراهيم الميانجيّ، محمد الباقر البهبودي، مؤسسة الوفاء – بيروت، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢ المصححة/ ١٤٠٣ – ١٩٨٣م.

١٢.البحر المحيط في أصول الفقه، الزركشي (ت٧٩٤هـ)، تحقيق: الدكتور محمَّد محمَّد تامر، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١/ ١٤٢١ – ٢٠٠٠م.

١٣.البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشيّ البصريّ ثم الدمشقيّ (ت٧٧٤هـ)، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ط١/ ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

١٤.البديع في نقد الشعر، أبو المظفر مجد الدين أسامة بن مرشد الكنانيّ الكلبيّ الشيزريّ (ت٥٨٤هـ)، تحقيق: الدكتور أحمد أحمد بدوي، الدكتور حامد عبد المجيد، مراجعة: الأستاذ إبراهيم مصطفى، الجمهوريَّة العربيَّة المتحدة – وزارة الثقافة والإرشاد القومي – الإقليم الجنوبي – الإدارة العامة للثقافة، (د.ط)، (د.ت).

١٥.البيان والتبيين، عمرو بن بحر بن محبوب الكنانيّ، الليثيّ، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (ت٢٥٥هـ)، دار ومكتبة الهلال، بيروت/ ١٤٢٣هـ

١٦.تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين أبو عبد الله محمَّد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبيّ (ت٧٤٨هـ)، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢/ ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م.

١٧.تاريخ بغداد، أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغداديّ (ت٤٦٣هـ)، تحقيق: الدكتور بشَّار عوَّاد معروف، دار الغرب الإسلاميّ - بيروت، ط١/ ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

١٨.تاريخ الفكر الدينيّ الجاهليّ، محمد إبراهيم الفيوميّ (ت١٤٢٧هـ)، دار الفكر العربي، ط٤/ ١٤١٥هـ -١٩٩٤م.

١٩.تحرير الأحكام، العلّامة الحلِّيّ، الحسن بن يوسف بن المطهر (ت٧٢٦هـ)، تحقيق: الشيخ إبراهيم البهاديريّ، إشراف: جعفر السبحانيّ، مؤسّسة الإمام الصادق (عليه السلام)، مطبعة الاعتماد - قم، توزيع: مكتبة التوحيد - قم - إيران، ط١/ ١٤٢٠هـ.

٢٠.التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمَّد الطاهر بن عاشور التونسيّ (ت١٣٩٣هـ)، الدار التونسيَّة للنشر - تونس/ ١٩٨٤هـ.

٢١.التذكرة الحمدونيَّة، محمَّد بن الحسن بن حمدون، أبو المعالي، بهاء الدين البغداديّ (ت٥٦٢هـ)، دار صادر، بيروت، ط١/ ١٤١٧هـ.

٢٢.التعازي [والمراثي والمواعظ والوصايا]، محمَّد بن يزيد بن عبد الأكبر الثماليّ الأزديّ، أبو العباس، المعروف بالمبرِّد (ت٢٨٥هـ)، تقديم وتحقيق: إبراهيم محمد حسن الجمل، مراجعة: محمود سالم، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ط)، (د.ت).

٢٣.تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشيّ البصريّ ثم الدمشقيّ (ت٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر

والتوزيع، ط٢/ ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٢٤.تفسير مقاتل بن سليمان، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزديّ البلخيّ (ت١٥٠هـ)، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث – بيروت، ط١/ ١٤٢٣هـ.

٢٥.التمثيل والمحاضرة، عبد الملك بن محمَّد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبيّ (ت٤٢٩هـ)، تحقيق: عبد الفتاح محمَّد الحلو، الدار العربيَّة للكتاب، ط٢/ ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٢٦.التنبيه والإشراف، أبو الحسن عليّ بن الحسين بن عليّ المسعوديّ (ت٣٤٦هـ)، تصحيح: عبد الله إسماعيل الصاويّ، دار الصاوي – القاهرة. (د.ط)، (د.ت).

٢٧.تهذيب الأحكام، الشيخ الطوسيّ، محمَّد بن الحسن (ت٤٦٠هـ)، تحقيق وتعليق: السيد حسن الموسويّ الخرسان، دار الكتب الإسلاميَّة – طهران، ط٤/ ١٣٦٥ش.

٢٨.التوحيد، الشيخ الصدوق، محمَّد بن بابويه، تصحيح وتعليق: السيد هاشم الحسينيّ الطهرانيّ، مؤسسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرفة.

٢٩.الثقات، محمد بن حبَّان، التميميّ، أبو حاتم، الدارميّ، البُستيّ (ت٣٥٤هـ)، طبع بإعانة: وزارة المعارف الهنديَّة، تحت مراقبة: الدكتور محمد عبد المعيد خان مدير دائرة المعارف العثمانيَّة، دائرة المعارف العثمانيَّة بحيدر آباد الدكن الهند، ط١/ ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

٣٠.جامع البيان في تأويل القرآن، محمَّد بن جرير، أبو جعفر الطبريّ (ت٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمَّد شاكر، مؤسَّسة الرسالة، ط١/ ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٣١.جامع الدروس العربيَّة، مصطفى بن محمَّد سليم الغلاييني (ت١٣٦٤هـ)، المكتبة العصريَّة، صيدا – بيروت، ط ٢٨/ ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣م.

٣٢.الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبيّ)، أبو عبد الله محمَّد، شمس الدين القرطبيّ (ت٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردونيّ وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصريَّة – القاهرة، ط٢/ ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

٣٣.الجرح والتعديل، أبو محمَّد عبد الرحمن بن محمَّد، الرازيّ ابن أبي حاتم (ت٣٢٧هـ)، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانيَّة - بحيدر آباد الدكن – الهند، دار إحياء التراث العربيّ – بيروت، ط١/ ١٢٧١ هـ ١٩٥٢م.

٣٤.جمهرة اللغة، أبو بكر محمَّد بن الحسن بن دريد الأزديّ (ت٣٢١هـ)، تحقيق: رمزي منير بعلبكيّ، دار العلم للملايين – بيروت، ط١/ ١٩٨٧م.

٣٥.الجواهر السنيَّة، الحرُّ العامليّ، محمَّد بن الحسن (ت١١٠٤هـ)، مطبعة النعمان - النجف الأشرف، طبع على نفقة المكتبة العلميَّة لصاحبها محمد جواد الكتبيّ الكاظميّ - بغداد/ ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

٣٦.الحضارة الفينيقيَّة، ج. كونتنو، ترجمه: د. محمَّد عبد الهادي شعيرة، وراجعه: د. طه حسين، شركة مركز كتب الشرق الأوسط، مصر/ ١٩٤٨م.

٣٧.حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهانّي (ت٤٣٠هـ)، السعادة - بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

٣٨.الحماسة البصريَّة، علي بن أبي الفرج، أبو الحسن البصريّ (ت٦٥٩هـ)، تحقيق: مختار الدين أحمد، عالم الكتب – بيروت. (د.ط)، (د.ت).

٣٩.الحيوان، عمرو بن بحر، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (ت٢٥٥هـ)، دار الكتب العلميَّة – بيروت، ط٢/ ١٤٢٤هـ.

٤٠.خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغداديّ (ت١٠٩٣هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمَّد هارون، مكتبة الخانجيّ، القاهرة، ط٤/ ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م.

٤١.الخصال، الشيخ الصدوق، تصحيح وتعليق: عليّ أكبر الغفاريّ، مؤسَّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة/ ١٤٠٣هـ - ١٣٦٢ش.

٤٢.الدرُّ الفريد وبيت القصيد، محمَّد بن أيدمر المستعصميّ (ت٧١٠هـ)، تحقيق: الدكتور كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلميَّة، بيروت – لبنان، ط١/ ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

٤٣.دراسة حول نهج البلاغة، محمَّد حسين الحسينيّ الجلاليّ، مؤسَّسة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت - لبنان، ط١/ ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٤٤.ديوان أبي الأسود الدؤليّ (الشعر المشكوك)، صنعة أبي سعيد الحسن السُكَّريّ (ت٢٩٠هـ)، تحقيق: الشيخ محمَّد حسن آل ياسين، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط٢/ ١٩٩٨م.

٤٥.ديوان أبي العتاهية، دار بيروت للطباعة والنشر (د.ط)/ ١٩٨٦م.

٤٦.ديوان الكميت بن زيد الأسديّ، جمع وشرح وتحقيق: د. محمد نبيل طريفيّ، دار صادر، بيروت، ط١/ ٢٠٠٠م.

٤٧.ديوان المتنبّي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت/ ١٩٨٣م.

٤٨.ديوان أميَّة بن أبي الصَّلت، جمعه وحققه وشرحه: د. سجيع جميل الجبيليّ، دار صادر، بيروت، ط١/ ١٩٩٨م.

٤٩.ديوان بشار بن برد، شرح وتكميل: محمَّد الطاهر ابن عاشور، راجعه وصحَّحه: محمَّد شوقي أمين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة/ ١٩٦٦م.

٥٠.ديوان عنترة، تحقيق ودراسة: محمد سعيد مولويّ، المكتب الإسلامي (د.ط)/ ١٩٧٠م.

٥١.ديوان كعب بن مالك الأنصاريّ، دراسة وتحقيق: سامي مكّي العانيّ، ساعدت

جامعة بغداد على نشره، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، مطبعة المعارف، بغداد، ط١/ ١٩٦٦م.

٥٢.ديوان مِهيار الديلميّ، دار الكتب المصريَّة، القسم الأدبيّ، القاهرة، ط١/ ١٩٢٥م.

٥٣.الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أبو الحسن علي بن بسّام الشنتريني (ت٥٤٢هـ)، تحقيق: إحسان عبَّاس، الدار العربيَّة للكتاب، ليبيا – تونس، ط١/ ١٩٧٩م.

٥٤.الذريعة، آقا بزرگ الطهرانيّ (ت١٣٨٩هـ)، دار الأضواء - بيروت، ط٢/ (د.ت).

٥٥.رسالة الغفران، أبو العلاء المعرِّيّ (ت٤٤٩هـ)، ومعها نصّ محقّق من رسالة (ابن القارح)، تحقيق وشرح: عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطئ»، دار المعارف، القاهرة، ط٩/ ١٩٧٧م.

٥٦.رسائل الشريف المرتضى، الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسويّ (ت٤٣٦هـ)، تقديم: السيِّد أحمد الحسينيّ، إعداد: السيد مهدي الرجائيّ، مطبعة سيد الشهداء – قم، دار القرآن الكريم – قم/ ١٤٠٥هـ.

٥٧.روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسينيّ الألوسيّ (ت١٢٧٠هـ)، تحقيق: عليّ عبد الباري عطيَّة، دار الكتب العلميَّة – بيروت، ط١/ ١٤١٥هـ.

٥٨.الروض الأنِف في شرح السيرة النبويَّة لابن هشام، أبو القاسم عبد الرَّحمن بن عبد الله بن أحمد السهيليّ (ت٥٨١هـ)، تحقيق: عمر عبد السلام السلاميّ، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ط١/ ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٥٩.روضة الواعظين، الفتَّال النيسابوريّ (ت ٥٠٨هـ)، تقديم: السيد محمد مهدي السيِّد حسن الخرسان، منشورات الشريف الرضي – قم. (د.ط)، (د.ت).

٦٠.زهر الآداب وثمر الألباب، إبراهيم بن عليّ بن تميم الأنصاريّ، أبو إسحاق

الحُصريّ القيروانيّ (ت٤٥٣هـ)، دار الجيل، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

٦١. سلّم الوصول إلى طبقات الفحول، مصطفى بن عبد الله القسطنطينيّ العثمانيّ المعروف بـ «كاتب جلبي» وبـ «حاجي خليفة» (ت١٠٦٧هـ)، تحقيق: محمود عبد القادر الأرناؤوط، إشراف وتقديم: أكمل الدين إحسان أوغلي، تدقيق: صالح سعداوي صالح، مكتبة إرسيكا، إستانبول – تركيا، (د.ط)/ ٢٠١٠م.

٦٢. سمط اللآلي في شرح أماليّ القاليّ، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمَّد البكريّ الأندلسيّ (ت٤٨٧هـ)، تحقيق: عبد العزيز الميمنيّ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، (د.ط)، (د.ت).

٦٣. سنن الترمذيّ، محمَّد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحّاك، الترمذيّ، أبو عيسى (ت٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمّد شاكر (جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض (جـ ٤، ٥)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابيّ الحلبيّ – مصر، ط٢/ ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

٦٤. سِيَر أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمَّد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبيّ (ت٧٤٨هـ)، دار الحديث - القاهرة، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

٦٥. السيرة النبويَّة لابن هشام، عبد الملك بن هشام، أبو محمَّد، جمال الدين (ت٢١٣هـ)، تحقيق: مصطفى السقّا، وإبراهيم الأبياريّ، وعبد الحفيظ الشلبيّ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابيّ الحلبيّ وأولاده - مصر، ط٢/ ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.

٦٦. شرائع الإسلام، المحقّق الحلّيّ (ت٦٧٦هـ)، تعليق: السيِّد صادق الشيرازيّ، المطبعة: أمير – قم، انتشارات استقلال – طهران، ط٢/ ١٤٠٩هـ.

٦٧. شرح الأشمونيّ على ألفيّة ابن مالك، علي بن محمَّد بن عيسى، أبو الحسن، نور الدين الأُشْمُونيّ الشافعيّ (ت٩٠٠هـ)، دار الكتب العلميَّة بيروت - لبنان، ط١/ ١٤١٩هـ- ١٩٩٨مـ.

٦٨.شرح التصريح على التوضيح، أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو، خالد بن عبد الله الأزهريّ، زين الدين المصريّ (ت٩٠٥هـ)، دار الكتب العلميّة – بيروت، لبنان، ط١/ ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٦٩.شرح المفصَّل للزمخشريّ، يعيش بن عليّ بن يعيش ابن أبي السرايا، المعروف بابن يعيش (ت٦٤٣هـ)، قدَّم له: الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلميَّة، بيروت – لبنان، ط١/ ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٧٠.شرح المقاصد في علم الكلام، سعد الدين مسعود بن عمر التفتازانيّ الشافعيّ (ت٧٩٢هـ)، دار المعارف النعمانيَّة – باكستان، ط١/ ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٧١.الشرق الأدنى القديم في مصر والعراق، عبد العزيز صالح، مكتبة دار الزمان، (د.ط)، (د.ت).

٧٢.شرح تسهيل الفوائد، محمَّد بن عبد الله، ابن مالك الطائيّ الجيانيّ، جمال الدين (ت٦٧٢هـ)، تحقيق: د. عبد الرحمن السيِّد، د. محمد بدوي المختون، هَجَر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١/ ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٧٣.شرح ديوان المتنبّي، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبريّ البغداديّ (ت٦١٦هـ)، تحقيق: مصطفى السقّا، وإبراهيم الأبياريّ، وعبد الحفيظ شلبيّ، دار المعرفة – بيروت، (د.ط).

٧٤.شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد (ت٦٥٦هـ)، تحقيق: محمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيَّة - عيسى البابي الحلبيّ وشركاه، مؤسَّسة مطبوعاتي إسماعيليان، ط١/ ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م.

٧٥.شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحرانيّ (ت٦٧٩هـ)، مركز النشر، مكتب الإعلام الإسلامي، الحوزة العلميَّة، قم، إيران، ط١/ ١٣٦٢ش.

٧٦.شعر خِداش بن زهير العامريّ (ت٦هـ)، صنعة الدكتور يحيى الجبوريّ، مطبوعات

مجمع اللغة العربية بدمشق، دمشق (د.ط)/ ١٩٨٦م.

٧٧.شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، محمَّد بن أحمد بن علي، أبو الطيّب المكّيّ الحسنيّ الفاسيّ (ت٨٣٢هـ)، دار الكتب العلميَّة، ط١/ ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٧٨.الصحاح تاج اللغة وصحاح العربيَّة، أبو نصر إسماعيل بن حمَّاد الجوهريّ الفارابيّ (ت٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطَّار، دار العلم للملايين – بيروت، ط٤/ ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٧٩.صحيح البخاريّ، محمَّد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاريّ الجعفيّ، تحقيق: محمَّد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانيَّة بإضافة ترقيم محمَّد فؤاد عبد الباقي)، ط١/ ١٤٢٢هـ.

٨٠.صحيح مسلم، مسلم بن الحجَّاج أبو الحسن القشيريّ النيسابوريّ (ت٢٦١هـ)، تحقيق: محمَّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربيّ – بيروت، (د.ط)، (د.ت).

٨١.الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة، أحمد بن محمَّد بن عليّ بن حَجَر الهيتميّ (ت٩٧٤هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن عبد الله التركيّ - كامل محمَّد الخرَّاط، مؤسَّسة الرسالة – لبنان، ط١/ ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٨٢.طبقات أعلام الشيعة، نُقباء البشر في القرن الرابع عشر، آغا بزرك الطهراني، دار إحياء التراث العربيّ - بيروت، ط١/ ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م.

٨٣.طبقات الأولياء، ابن الملقّن سراج الدين أبو حفص عمر بن عليّ الشافعيّ المصريّ (ت٨٠٤هـ)، تحقيق: نور الدين شريبه، مكتبة الخانجي، بالقاهرة، ط٢/ ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

٨٤.العرش، شمس الدين أبو عبد الله محمَّد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبيّ (ت٧٤٨هـ)، تحقيق: محمَّد بن خليفة بن عليّ التميميّ، عمادة البحث

العلمي بالجامعة الإسلاميَّة، المدينة المنورة، المملكة العربيَّة السعوديَّة، ط٢/ ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٨٥.العقد الفريد، شهاب الدين أحمد بن محمَّد بن عبد ربَّه المعروف بابن عبد ربَّه الأندلسيّ (ت٣٢٨هـ)، دار الكتب العلميَّة – بيروت، ط١/ ١٤٠٤هـ.

٨٦.العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيديّ البصريّ (ت١٧٠هـ)، تحقيق: د مهدي المخزوميّ، د إبراهيم السامرائيّ، دار ومكتبة الهلال، (د.ط)، (د.ت).

٨٧.غريب الحديث، أبو سليمان حمد بن محمد البستيّ المعروف بالخطابيّ (ت٣٨٨ هـ)، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم الغرباويّ، خرَّج أحاديثه: عبد القيّوم عبد ربّ النبيّ، دار الفكر – دمشق/ ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٨٨.فتح الباري شرح صحيح البخاريّ، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب (ت٧٩٥هـ)، مجموعة محقّقين، مكتبة الغرباء الأثريَّة - المدينة النبويَّة، مكتب تحقيق دار الحرمين – القاهرة، ط١/ ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٨٩.فتوح البلدان، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البَلَاذُريّ (ت٢٧٩هـ)، دار ومكتبة الهلال - بيروت/ ١٩٨٨م.

٩٠.فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرَّيب (حاشية الطيبيّ على الكشَّاف)، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبيّ (ت٧٤٣هـ)، مقدّمة التحقيق: إياد محمَّد الغوج، القسم الدراسيّ: د. جميل بني عطا، ط١/ ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

٩١.الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، عبد القاهر بن طاهر بن محمَّد بن عبد الله البغداديّ التميميّ الأسفراييني (ت٤٢٩هـ)، دار الآفاق الجديدة – بيروت، ط٢/ ١٩٧٧م.

٩٢.الفروق اللغويَّة، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكريّ (ت٣٩٥هـ)، حقَّقه وعلَّق عليه: محمَّد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر،

(د.ط)، (د.ت).

٩٣.فقهاء الفيحاء وتطور الحركة الفكريَّة في الحلَّة، للسيِّد هادي حَمَد كمال الدين، تقديم نجله السيد عليّ هادي، مطبعة الزين/ ٢٠٠٨م.

٩٤.فقهاء الفيحاء وتطور الحركة الفكرية في الحلَّة، السيِّد هادي كمال الدين الحلِّيّ، دراسة وتحقيق: د. عبد الرضا عوض، دار الفرات، ط١/ ٢٠١٨.

٩٥.الفهرست، أبو الفرج محمَّد بن إسحاق، المعروف بابن النديم (ت٤٣٨هـ)، تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة - بيروت، ط٢/ ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٩٦.في طريقي إلى الإسلام، د. أحمد سوسة، المؤسَّسة العربيَّة للدراسات والنشر، بيروت، ط١/ ٢٠٠٦م.

٩٧.قوانين الأصول، الميرزا القمّيّ (ت١٢٣١هـ)، طبعة حجريَّة قديمة.

٩٨.الكافي، الشيخ الكلينيّ، محمَّد بن يعقوب (ت٣٢٩هـ)، تصحيح وتعليق: عليّ أكبر الغفاريّ، المطبعة الحيدريَّة، دار الكتب الإسلاميَّة – طهران، ط٥/ ١٣٦٣ ش.

٩٩.الكتاب، عمرو بن عثمان بن قنبر، أبو بشر، الملقَّب سيبويه (ت١٨٠هـ)، تحقيق: عبد السلام محمَّد هارون، مكتبة الخانجيّ، القاهرة، ط٣/ ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١٠٠.الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أحمد بن محمَّد بن إبراهيم الثعلبيّ، أبو إسحاق (ت٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمَّد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعديّ، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت – لبنان، ط١/ ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

١٠١.الكلديّون/ الكلدان منذ بدء الزمان، عامر حنَّا فتوحي/ ط٢.

١٠٢.لِسَانُ العَرَب، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاريّ (ت٧١١هـ)، دار صادر – بيروت، ط٣/ ١٤١٤هـ.

١٠٣.اللزوميَّات، أبو العلاء المعرِّي، تحقيق: أمين عبد العزيز الخانجيّ، منشورات

مكتبة الهلال، بيروت، مكتبة الخانجيّ، القاهرة/ ١٩٢٤م.

١٠٤. ما وراء الستار أو الصواعق الصواقع، السيِّد هادي السيِّد حمد كمال الدين، مطبعة دار الأرقم، الحلَّة/ ٢٠٠٩م.

١٠٥. المبسوط، الشيخ الطوسيّ، محمَّد بن الحسن (ت٤٦٠هـ)، تصحيح وتعليق: السيِّد محمَّد تقيّ الكشفيّ، المطبعة الحيدريَّة – طهران، المكتبة المرتضويَّة لإحياء آثار الجعفريَّة/ ١٣٨٧هـ.

١٠٦. مجمع البحرين، الشيخ فخر الدين الطريحيّ (ت١٠٨٥هـ)، مطبعة: طراوت، الناشر: مرتضوي، طهران. ناصر خسرو، ط٢/ شهريور ماه ١٣٦٢ ش.

١٠٧. محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، أبو القاسم الحسين بن محمَّد المعروف بالراغب الأصفهانيّ (ت٥٠٢هـ)، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، ط١/ ١٤٢٠ه..

١٠٨. المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمَّد عبد الحق بن غالب بن عطيَّة الأندلسيّ المحاربيّ (ت٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلميَّة – بيروت، ط١/ ١٤٢٢هـ.

١٠٩. المحكَم والمحيط الأعظم، أبو الحسن عليّ بن إسماعيل بن سيده (ت٤٥٨هـ)، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلميَّة – بيروت، ط١/ ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م.

١١٠. مختصر التحفة الاثني عشريَّة، شاه عبد العزيز غلام حكيم الدهلوي، نقله من الفارسية إلى العربيَّة سنة ١٢٢٧هـ: الشيخ الحافظ غلام محمد بن محيي الدين الأسلميّ، اختصره وهذَّبه سنة ١٣٠١هـ: محمود شكري الآلوسيّ، حقَّقه وعلَّق حواشيه: محبّ الدين الخطيب، المكتبة السلفيَّة، القاهرة/ ١٣٧٣هـ.

١١١. المختصر النافع، المحقّق الحلِّيّ، جعفر بن الحسن (ت٦٧٦هـ)، قسم الدراسات

الإسلاميَّة في مؤسَّسة البعثة – طهران، ط٣/ ١٤٠٢ – ١٤١٠هـ.

١١٢. المختصر في أخبار البشر، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي (ت٧٣٢هـ)، المطبعة الحسينيَّة المصريَّة، ط١، (د.ت).

١١٣. مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، شمس الدين أبو المظفّر يوسف بن قِزْأُوغلي المعروف بـ «سبط ابن الجوزيّ» (ت٦٥٤هـ)، مجموعة محقّقين، دار الرسالة العالميَّة، دمشق – سوريا، ط١/ ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

١١٤. المزهر في علوم اللغة وأنواعها، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطيّ (ت٩١١هـ)، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلميَّة – بيروت، ط١/ ١٤١٨هـ -١٩٩٨م.

١١٥. المستطرَف في كلِّ فن مستظرف، شهاب الدين محمَّد بن أحمد بن منصور الأبشيهيّ، أبو الفتح (ت٨٥٢هـ)، عالم الكتب – بيروت، ط١/ ١٤١٩هـ.

١١٦. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمَّد بن حنبل (ت٢٤١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركيّ، مؤسَّسة الرسالة، ط١/ ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

١١٧. مشارق أنوار اليقين، الحافظ رجب البرسيّ (كان حيًّا ٨١٣هـ)، تحقيق: السيِّد عليّ عاشور، مؤسَّسة الأعلميّ للمطبوعات - بيروت – لبنان، ط١/ ١٤١٩ - ١٩٩٩م.

١١٨. مصباح المتهجد، الشيخ الطوسيّ، (ت٤٦٠ه)، مؤسَّسة فقه الشيعة – بيروت، ط١/ ١٤١١هـ – ١٩٩١م.

١١٩. المعارف، أبو محمَّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوريّ (ت٢٧٦هـ)، تحقيق: ثروت عكاشة، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، القاهرة، ط٢/ ١٩٩٢م.

١٢٠.معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السّرّي بن سهل، أبو إسحاق الزجَّاج (ت٣١١هـ)، عالم الكتب – بيروت، ط١/ ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١٢١.المعاني الكبير في أبيات المعاني، أبو محمَّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوريّ (ت٢٧٦هـ)، تحقيق: المستشرق الدكتور سالم الكرنكوي (ت١٣٧٣هـ)، عبد الرحمن بن يحيى بن عليّ اليمانيّ (ت١٣٨٦هـ)، مطبعة دائرة المعارف العثمانيَّة - حيدر آباد الدكن بالهند، ط١/ ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م، ثم صوّرتها: دار الكتب العلميَّة، بيروت – لبنان، ط١/ ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.

١٢٢.معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، عبد الرحيم بن عبد الرحمن، أبو الفتح العبّاسيّ (ت٩٦٣هـ)، تحقيق: محمَّد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب – بيروت، (د.ط)، (د.ت).

١٢٣.معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الروميّ الحمويّ (ت٦٢٦هـ)، تحقيق: إحسان عبَّاس، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ط١/ ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

١٢٤.معجم الأعلام في الأساطير اليونانيَّة والرومانيَّة، أمين سلامة، مؤسَّسة العروبة للطباعة والنشر، مصر، ط٢/ ١٩٨٨م.

١٢٥.معجم المؤلِّفين، عمر كحالة، مكتبة المثنّى – بيروت، ودار إحياء التراث العربيّ – بيروت، (د.ط)، (د.ت).

١٢٦.معجم المطبوعات النجفيَّة، محمد هادي الأمينيّ، مطبعة النعمان - النجف الأشرف، مطبعة الآداب - النجف الأشرف، ط١/ ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م.

١٢٧.المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد عليّ (ت١٤٠٨هـ)، دار الساقي، ط٤/ ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

١٢٨.المقتضب، محمَّد بن يزيد، أبو العباس، المعروف بالمبرِّد (ت٢٨٥هـ)، تحقيق: محمَّد

عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب. – بيروت، (د.ط)، (د.ت).

١٢٩. المِلل والنحل، أبو الفتح محمَّد بن عبد الكريم الشهرستانيّ (ت٥٤٨هـ)، مؤسَّسة الحلبي، (د.ط)، (د.ت).

١٣٠. مناقب الإمام أحمد، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن عليّ بن محمَّد الجوزيّ (ت٥٩٧هـ)، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركيّ، دار هجر، ط٢/ ١٤٠٩هـ.

١٣١. منتهى الأصول، حسن بن عليّ أصغر الموسويّ البجنورديّ (ت١٣٧٩هـ). (د.ط)، (د.ت).

١٣٢. المنطق، الشيخ محمَّد رضا المظفَّر (ت١٣٨٣هـ)، مؤسسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين – قمّ المقدَّسة، (د.ط)، (د.ت).

١٣٣. مَن لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، محمَّد بن بابويه، تصحيح وتعليق: عليّ أكبر الغفاريّ، مؤسَّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة، ط٢/ ١٤٠٤هـ.

١٣٤. منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، حبيب الله الهاشميّ الخوئيّ (ت١٣٢٤هـ)، تحقيق: سيد إبراهيم الميانجيّ، مطبعة الإسلاميَّة بطهران، منشورات دار الهجرة – إيران – قم، طبع في المطبعة الإسلاميَّة بطهران، ط٤، (د.ت).

١٣٥. منهاج السُّنَّة النبويَّة في نقض كلام الشيعة القدريَّة، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية الحرّاني (ت٧٢٨هـ)، تحقيق: محمَّد رشاد سالم، جامعة الإمام محمَّد بن سعود الإسلاميَّة، ط١/ ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

١٣٦. موسوعة ابن إدريس الحِلِّيّ، ابن إدريس الحِلِّيّ (ت٥٩٨هـ)، تحقيق وتقديم: السيّد محمَّد مهديّ الموسويّ الخرسان، مكتبة الروضة الحيدريَّة، العتبة العلويَّة المقدَّسة، العراق، النجف الأشرف، ط١/ ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م.

١٣٧.موسوعة أعلام الحلَّة منذ تأسيس الحلَّة حتَّى نهاية ٢٠٠٠م (١١٠١م - ٢٠٠٠م/ ٤٩٥هـ - ١٤٢١هـ)، د. سعد الحدَّاد، مكتب الغسق للطباعة، الحِلَّة ٢٠٠١م.

١٣٨.موسوعة الشهيد الثاني (تمهيد القواعد)، الجزء الخامس، المركز العالي للعلوم والثقافة الإسلاميَّة، مركز إحياء التراث الإسلاميّ، مطبعة الباقريّ، قم، ط١/ ٢٠١٣م.

١٣٩.موسوعة العلّامة البلاغيّ، الجزء الثالث، الهدى إلى دين المصطفى، تحقيق: أسعد الطيّب، مركز العلوم والثقافة الإسلاميَّة، قسم إحياء التراث الإسلاميّ، مطبعة الباقريّ، قم، ط٢/ ٢٠١٠م.

١٤٠.الموسوعة الميسَّرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالميَّة للشباب الإسلاميّ، إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهنيّ، دار الندوة العالميَّة للطباعة والنشر والتوزيع، ط٤/ ١٤٢٠هـ.

١٤١.موسوعة طبقات الفقهاء، اللجنة العلميَّة في مؤسَّسة الإمام الصادق (عليه السلام)، إشراف: جعفر السبحانيّ، مؤسَّسة الإمام الصادق (عليه السلام)، توزيع مكتبة التوحيد، قم - ساحة الشهداء، مطبعة الاعتماد - قم، ط١/ ١٤٢٤هـ.

١٤٢.نثر الدر في المحاضرات، منصور بن الحسين الرازيّ، أبو سعد الآبيّ (ت٤٢١هـ)، تحقيق: خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١/ ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

١٤٣.نزهة المجالس ومنتخب النفائس، عبد الرحمن بن عبد السلام الصفوريّ (ت٨٩٤هـ)، المطبعه الكاستليَّة - مصر، (د.ط)/ ١٢٨٣هـ.

١٤٤.نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، شهاب الدين أحمد بن محمَّد المقريّ التلمسانيّ (ت١٠٤١هـ)، تحقيق: إحسان عبَّاس، دار صادر - بيروت، ط١/ ١٩٩٧م.

١٤٥.نهج البلاغة، وهو ما اختاره الشريف الرَّضيّ (رحمه الله) من كلام سيِّدنا ومولانا

أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) تحقيق: الشيخ قيس بهجت العطَّار، مؤسَّسة الرافد للمطبوعات، قم، ط١/ ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

١٤٦. نهر الذهب في تاريخ حلب، كامل بن حسين بن محمَّد بن مصطفى الحلبيّ، الشهير بالغزّيّ (ت١٣٥١هـ)، دار القلم، حلب، ط٢/ ١٤١٩هـ.

١٤٧. هداية المسترشدين، الشيخ محمَّد تقي الرازيّ (ت١٢٤٨هـ)، مؤسَّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرفة. (د.ط)، (د.ت).

١٤٨. الهداية إلى بلوغ النهايَّة في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، أبو محمَّد مكّيّ بن أبي طالب القيسيّ (ت٤٣٧هـ)، حُقِّقَ بإشراف جامعة الشارقة، ط١/ ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

١٤٩. الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفديّ (ت٧٦٤هـ)، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، دار إحياء التراث - بيروت/ ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

١٥٠. الوافي، الفيض الكاشانيّ (ت١٠٩١هـ)، تحقيق: مركز التحقيقات الدينيَّة والعلميَّة في مكتبة الإمام أمير المؤمنين علي (عليه السلام)، ط١/ ١٤١٢هـ.

١٥١. وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، الحرُّ العامليّ (ت١١٠٤هـ)، تحقيق: مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث، بقم المشرّفة، ط٢/ ١٤١٤هـ.

١٥٢. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العبَّاس شمس الدين أحمد بن محمد ابن خلِّكان البرمكيّ الإربليّ (ت٦٨١هـ)، تحقيق: إحسان عبَّاس، دار صادر - بيروت، (د.ط)/ ١٩٠٠م.

المحتويات

مقدمة المؤسسة ٩
مقدِّمة المحقِّق ١١
ترجمة المؤلِّف ١٢
بين يدي الشرح ١٥
عملنا في التحقيق ١٦
من صور المخطوط ١٩

شرح الخطبة الأولى من نهج البلاغة
النَّصُّ الـمُحَقَّق

مقدِّمة المؤلِّف ٢٧
توطئة ٣٣
[شَرْحُ الخُطْبَةِ الأوْلَى] ٤٣
[الخطبة الثانية] ١٨٨
روافد التحقيق ١٨٩

تم بحمد الله